عبد العزيز آل سعود

سيّد الجزيرة العربية

تأليف

هـ. س. أرمسترونج

ترجمة وتقديم

البرفسور يوسف نور عوض

رئيس قسم الدراسات الاسلامية - جامعة سالفورد البريطانية





الإهــــداء

أتقدم بخالص شكرى
لصاحب الجلالة الملك عبد العزيز
لما قدمه لى من ضيافة وكريم عطف خلال
زيارتى الأخيرة للمملكة العربية السعودية .





مذكرة المؤلف

محاولة وصف قائد عربى متميز ، يحكم قطراً عظيماً هو أمر صعب جداً لاسيما حين يكون الوصف موجهاً إلى القراء الأوربيين ذلك أن العرب والأوروبيين يملكون كثيراً من الأشياء التى يختلفون حولها ، فهم يختلفون فى التجربة والنظرة وطريقة التعبير . ويمكن على وجه الاجمال القول بأن المعايير التى يستخدمونها لما هو صحيح أو خطأ تتباين بشكل كبير . ذلك أنه فى الوقت الذى يشعر فيه العرب بالاشمئزاز من الإباحة فإن الأوربيين يرفضون كثيراً من العادات العربية ، لذلك حاولت أن أعبر عن كثير من الأفكار والمفاهيم بطريقة تمكن القارىء من تفهم المعنى بطريقة صحيحة .

ومن المعروف أن هنالك كثيراً من الأصوات فى اللغة العربية لايمكن إنتاجها بالحروف اللاتينية . فاللغة العربية تحتوى على ثمانية وعشرين حرفاً تتواصل بطريقة معقدة،وتتغير أشكالها بحسب موقعها من الكلمة . ولقد اتبعت طريقة واحدة فى هجاء الكلمات العربية وهى جعلها مقبولة للقارىء الإنجليزى . وكذلك فإن العربى يتجه فى ذكر الاسماء إلى التسلسل النسبى كأن يقول عبد العزيز بن عبد الرحمن ابن الفيصل آل سعود ، وقد يضيف إلى ذلك إذا كان مزاجه معتدلاً كنيته فيقول : « أبو تركى » ، ولم أعتمد شيئا من ذلك فى هذا الكتاب إذ ركزت على اسم واحد وهو ابن سعود « لم يلتزم المترجم بذلك » .

ويجدر بى أن أذكر أن الكتب والمقالات والمخطوطات حول حياة ابن سعود قليلة جداً ويأتى فى مقدمة من كتب عنه السيد جون فيلبى وهو مسلم إنجليزى كان يعمل فى الخدمة المدنية الهندية ثم انتقل إلى العمل التجارى لصالح شركات انجليزية وأمريكية فى الجزيرة العربية ، وكذلك السيد أمين الريحانى وهو عربى سورى ويحمل الجنسية الأمريكية . غير أن معظم المعلومات التى اعتمدت عليها أخذتها عن طريق المشافهة ، وقد رجعت فى بعض الأحيان إلى مؤلفات فيلبى والريحانى وهى مؤلفات قيمة ، ولكنى فى كل مرة استعنت بمؤلفات هذين الكاتبين دققت فيها ووثقتها بواسطة الأشخاص الذين عاصروا الأحداث ذاتها .



مقدمة المؤلف

فى ذلك الزمن الذى كانت فيه أوربا تعانى من أثر العصور الجليدية ، كانت الجزيرة العربية تزدهر بالغابات والمراعى ، وتسقى بواسطة ثلاثة أنهر عظيمة . ولما دارت الأرض حول محورها مرتفعة هنا ومنخفضة هناك ، تغيرت الفصول والمناخات،وذاب الجليد فاستيقظت أوروبا على حياتها الجديدة . وقد تحولت الجزيرة العربية إلى صحراء ، حيث توقفت الأمطار عن الهطول ، وجفت الأنهار وتلاشت الغابات وحلت الرمال فوق المراعى القديمة .

واستمرت الجزيرة العربية على هذه الحال قرونا طويلة ، نشأت الحضارات على أطرافها وبلغت ذروتها ثم تلاشت ، كما أصاب الغنى كثيراً من الأقطار ، وازدهرت كثير من الأمبراطوريات ثم آلت إلى السقوط .

وهناك على ضفاف دجلة والفرات قامت حضارات بابل ونينوى ، وما بعدهما قامت حضارة فارس . كما قامت فى الغرب حضارة الفراعنة بكل ما تمثله من عظمة وازدهار . وكذلك قامت فى الشمال وعلى شواطىء البحر الأحمر حضارة الفينيقيين وأمبراطورية الرومان .

وعلى الرغم من ذلك فقد ظلت الجزيرة العربية فى حالة عزلة تامة،ولم يعرف عنها إلا بعض القصص التى رواها الرحالة العابرون ، فقد روى التجار والذين أتوا من الهند وأفريقيا عبر البحر الأحمر حاملين الأحجار الكريمة والعاج والتوابل والعطور إلى المناطق التجارية فى مكة والمدينة بعض الأخبار عن المدن الغائرة فى الصحراء ولكنها لم تكن روايات موثقة،بل كانت روايات عابرين .

وكان الامبراطور أغسطس قد أرسل فى القرن الذى سبق ميلاد المسيح حاكمه فى مصر لغزو الجزيرة العربية ، وتلك المدن التى روى عنها الرحالة . ولكن الحاكم لم يجد فى الجزيرة العربية شيئا سوى اليباب الذى تسكنه بعض القبائل البدوية ، وقد مات رجاله من العطش والضياع فى الصحارى القاحلة .

وظلت الجزيرة العربية هكذا معزولة وغير معروفة بسبب قسوتها وخشونة أهلها الذين كانوا فى مثل صعوبة أرضهم .

وكانت هنالك - على الرغم من ذلك - فى مواقع الآبار والماء،وفى الواحات وعلى شاطىء البحر بعض القرى والأكواخ الطينية - يسكنها أناس ظلوا يكافحون الرمال القاسية . وكان معظم البدو يعيشون على الرعى يتنقلون من مكان إلى آخر بحثاً عن الماء والمرعى .

ولقد اتسمت حياة البدو والقرويين فى الجزيرة العربية بالخطورة ، وكانوا وثنيين ومتوحشين ، وفقراء،ويؤمنون بكثير من المعتقدات الجاهلية . وكانوا إلى جانب ذلك أهل نخوة وحرية يضحون بأنفسهم من أجل اكتساب حريتهم . ونظراً لأنهم كانوا يعيشون حياة تغلب عليها الوحشية ، فقد انقسموا إلى قبائل وبطون وأفخاذ يحاربون بعضهم بعضاً،ولايستأنسون للأجانب أو المتغيرات فى حياتهم .

وفجأة ظهر فيهم رجل عظيم يبشر بديانة عظمى هو الرسول محمد ﷺ .

ولقد قام الإسلام بتوحيد العرب وتطهيرهم وجعلهم ينتمون إلى عقيدة واحدة . ولم تمض عشر سنوات حتى كان الإسلام قد غطى الجزيرة العربية كلها . وقد خرج المسلمون بعد ذلك من الجزيرة العربية إلى أرض فارس والعراق . وقد وصل العرب فى الشمال إلى سوريا وآسيا الوسطى ودكوا أسوار القسطنطينية،كما اجتاحوا فى الغرب الشاطىء الشمالى لأفريقيا عبر الصحراء الكبرى حتى وصلوا إلى المحيط الأطلنطى،ومن هناك إلى أسبانيا حيث قاموا بتهديد الأراضى الفرنسية .

وما هو إلا قرن من الزمان حتى كان العرب قد مدوا امبراطوريتهم من جبل طارق وحتى نهر الأنديز . ومن أواسط أفريقيا إلى الحدود الفارسية .

وذهب الإسلام إلى أبعد من ذلك حيث وصل إلى القسطنطينية ، ومن هناك حمله الأتراك المنتصرون عبر جبال البلقان إلى أبواب فيينا . وكان ذلك أعظم تهديد للمسيحية،وانتشر الإسلام عبر البحر الأسود فى روسيا ، واتخذ طريق فارس إلى آسيا الوسطى حتى بلغ سور الصين العظيم .

ومع اتساع الإمبراطورية العربية ، أصبح الإسلام هو الدين الرسمى لكثير من الأمم بحيث لم تعد الجزيرة العربية هى قاعدة الانطلاق - فقد انتقلت انطلاقة الإسلام إلى دمشق وبغداد والقاهرة .

لقد صدَّرَت الصحراء القوة الدافعة للإسلام ، وبمجرد أن قامت الجزيرة العربية بهذا الدور الأولى رجعت من جديد إلى عزلتها خارج نطاق العالم المعروف .

ومرت قرون أخرى . وجاءت العصور الوسطى ، والحملات الصليبية ، وقامت الامبراطورية البيزنطية وسقطت ، وجاء تيمورلنك وجنكيزخان والتتار ، ثم جاء الغزو التركى الذى استولى على كل بوابات الشرق ، وفى كل تلك الحقب لم تشارك الجزيرة العربية بشىء يذكر . إذ ظل سكان الجزيرة يعيشون نفس حياتهم القديمة يقاومون الرمال ويحاربون بعضهم بعضاً ، وقد فرض الاتراك حمايتهم عليها ولكن دون سلطة حقيقية .

وهكذا انقضى ألف عام ومرة أخرى فى نهاية القرن الثامن عشر ، ظهر رجل تتأجج فيه الدوافع الدينية،ويستهدف أن يجمع العرب فى أمة واحدة تحت راية القرآن ، إنه محمد بن عبد الوهاب الذى أخذ يدعو إلى الصحوة الإسلامية .

وكان محمد بن عبد الوهاب مناهضاً للهرطقة والبدع ، وداعيا للعقيدة الإسلامية فى صورتها النقية والبسيطة . لقد طالب العرب بتطهير أنفسهم من أرجاس الضلالات والترف والتوجه إلى الله الواحد الأحد .

ووجدت دعوته مقاومة فى أول الأمر ، مما دفعه إلى الالتجاء إلى نجد حيث احتمى بالإمام محمد بن سعود حاكم الدرعية والرياض .

وكان وسط الجزيرة هضبة مقفولة من ثلاث جهات بالصحراء،ومن جهة رابعة بالمراعى التى كان البدو يرعون فيها قطعانهم . ولقد تناثرت فوق هذه الهضبة كثير من القرى والواحات يسكنها قوم عرفوا بالصلابة والعمل الدؤوب . ويجرى فى وسط الهضبة واد غنى بالمياه تعمره أشجار النخيل والبساتين ، وهو الوادى الذى تقوم عليه مدينة الرياض . عاصمة نجد التى هى قلب الجزيرة ، وقد قيل إن الذى يحكم نجد هو المؤهل لحكم الجزيرة العربية كلها .

لقد كان أمير الدرعية رجلاً طموحاً عرف مكانة ابن عبد الوهاب.وهكذا دخل معه فى حلف تعاهدا فيه على استخدام السيف،والدعوة من أجل إعادة الناس من جديد إلى شريعة الإسلام الخالصة . وكان نجاحهما عاجلاً ، ذلك أن سعود كان قائداً وجندياً كما كان محمد بن عبد الوهاب واعظاً تأسر خطبه خيال الناس فى جزيرة العرب . لقد قام الاثنان فى أول الأمر بتحقيق دعوتهما فى الدرعية ومن ثم فى نجد . وتحطمت

على أيديهما القباب والمزارات وأصبح حكم القرآن سارياً على كل الناس ، الذين أخذوا يؤدون صلواتهم الخمس فى كل يوم،ويصومون رمضان ويمتنعون عن التدخين وشرب الخمر .

وأخذت القبائل واحدة إثر الأخرى تفد للمبايعة ، وتتقيد بتعاليم الدعوة،واستطاع سعود الكبير أن يقود جنوده خارج نجد حتى بسط نفوذه على كل الجزيرة العربية بحيث أصبحت الدولة السعودية خلال ستين عاما تمتد من الخليج العربى إلى مكة والمدينة ، ومن المحيط الهندى إلى سوريا ولبنان . وأصبح السعوديون سادة الصحراء،ورفضوا الاعتراف بسيادة سلطان وخليفة إسطنبول . وقد بلغت غارات هؤلاء العراق ومدينة كربلاء ، وكما فعل أسلافهم فى الماضى فقد هاجموا أيضاً سوريا وشواطىء البحر الأبيض المتوسط وجعلوا مدينة حلب تدفع لهم كما هاجموا المواقع خارج مدينة دمشق ووصلت غاراتهم إلى مدينة البصرة .

وصحا الأتراك فجأة على هذا الخطر الذى يتهددهم،فأمروا محمد على حاكمهم على مصر أن يسير إلى الجزيرة العربية،واستطاع محمد على أن يأخذ عاصمة نجد وأرسل حاكمها إلى اسطنبول حيث تم إعدامه فى الميدان الواقع أمام جامع « سانتا صوفيا » المطل على « البوسفور » .

ولم يستطع الأتراك والمصريون الإقامة طويلاً فى تلك الأراضى الصعبة، فأقاموا بعض الحاميات وتركوا أهل نجد يحكمون أنفسهم بأنفسهم .

وهكذا كما الرمال ، تلاشت امبراطورية سعود الكبير، وظلت نجد على تلك الحال دون أن يظهر رجل قوى يقود رجالها ويوحدهم من جديد . وارتد العرب من جديد إلى انقساماتهم ـ ومناحراتهم القبلية المعهودة . حيث تقود قبيلة الإغارة على أخرى أو يقتل شيخ شيخا ثم تدور الدائرة على الآخر . وظل الأمر كذلك خلال القرن التاسع عشر وهو القرن الذى ارتد فيه الناس الى الصراع وسفك الدماء ولم يكن فيه أحد آمناً على شىء،وتوقف المسافرون عن الحضور إلى الجزيرة العربية .

واستمر الأمر كذلك حتى ذات فجر فى شهر نوفمبر عام ١٨٨٠ وبينما كان المؤذن ينادى لصلاة الفجر انطلقت صيحات وليد جديد فى قصر الرياض لـ عبدالرحمن وهو أحد أحفاد سعود الكبير وذلك من زوجته سارة . وقد أطلق عبد الرحمن على الصبى اسم عبدالعزيز ولكنه عرف فيما بعد باسم جده العظيم « ابن سعود » .



مقدمة المترجم

انتهيت من ترجمة كتاب « سيد الجزيرة العربية » منذ عدة سنوات ، ولم أفكر في ذلك الوقت في نشره ، بل آثرت أن أحتفظ به ضمن المعلومات التي أشير إليها حين أكتب مقالاتي الفكرية والثقافية العامة . وذات يوم وبينما كنت في زيارة لصحيفة « الندوة » في مكة المكرمة ذكرت أمام عدد من الأصدقاء شيئاً من أمر الترجمة ، فطلب إليّ على الفور الأستاذ يوسف دمنهوري رئيس التحرير أن أقوم بنشرها مسلسلة على صفحات الجريدة ، ولم أكن في أول الأمر مقتنعا بالفكرة لاعتقادي أن الصحف اليومية ليست هي المكان المناسب لنشر مثل تلك الترجمات . ولدى إلحاح الأصدقاء بدأت في نشر الترجمة ، وكانت المفاجأة كبيرة جدا ، ذلك أنه منذ اليوم الأول الذي ظهرت فيه الترجمة أخذت تستقطب الاهتمام في المملكة العربية السعودية ، وبدا وكأن الناس يقرءون سيرة الملك عبد العزيز للمرة الأولى ، وعند اكتمال نشر الحلقات بدأ المهتمون يتصلون بي راغبين في الحصول على نسخة كاملة من الترجمة ، بل وعرض على بعضهم أن ينشرها على نفقته الخاصة . وأثار الأمر اهتمامي لدرجة كبيرة ، وحاولت أن أعرف السر المتزايد حول هذه الترجمة بالذات ، على الرغم من وفرة المعلومات في الكتب التي نشرت عن الملك عبد العزيز من قبل . وقال لي من أثق في حكمه : لقد تميز ما قرأه الناس عن الملك عبد العزيز في هذا الكتاب بأمرين أساسيين ، الأول هو أن « أرمسترونج » لم يركز على الأحداث التاريخية الجافة أو الوقائع العسكرية المحض ، وإنما تعامل مع الملك عبد العزيز على أنه موقف إنساني شامل ، وأظهر من الجوانب في حياة الملك عبد العزيز ما جعله مثار إعجاب الجميع ، والأمر الثاني هو الأسلوب الذي تمت به الترجمة ، إذ حرص المترجم على أن يجعل من الكتاب عملاً أدبياً متكاملاً يقرأ من أجل المتعة الفنية كما يقرأ من أجل القيمة التاريخية . ولم أكن في الحقيقة واثقاً من أني بلغت تلك الغاية ، ولكني كنت واثقاً بحكم عملي كأستاذ لنظرية الترجمة في جامعة سالفورد البريطانية أنني استخدمت وسائل متطورة في النظرية الانفصالية تجعل النص يبدو وكأنه كتب لأول مرة في اللغة العربية وليس في اللغة الإنجليزية . وذلك على الرغم

من الصعوبة التي واجهتها في ضبط أسماء المواقع والأعلام ، ذلك أنه على الرغم من اجتهادي في هذه الناحية ، فقد وجدت تفاوتاً بين المصادر سواء كانت إنسانية أم مكتوبة ـ مما جعلني أنشر الأسماء على النحو الذي ظهرت به في هذه الطبعة تاركاً المجال للمختصين كي يصوبوا أخطائي حتى أتداركها في الطبعة الثانية لهذا الكتاب بإذن الله .

ومهما يكن من أمر ، فلاشك أن اهتمامي بحركة الإصلاح الإسلامي المعاصر جعلني أقف كثيراً أمام الأحداث المتضمنة في سيرة الملك عبد العزيز ، وذلك كي أستخلص منها درساً يشكل القيمة الأساسية وراء اهتمامنا بالشخصية العظيمة ، ولقد اهتديت إلى أنه على الرغم من الانجاز العظيم الذي قام به الملك عبد العزيز في توحيد الجزيرة العربية واستعادة ملك أسرته ، فإن المؤرخين قد أهملوا الدور الأساسي للملك عبد العزيز كمصلح إسلامي تتجاوز أهميته حدود العمل الذي قام به في داخل الجزيرة العربية ، ولاشك أن ظروفاً سياسية وتاريخية واجتماعية هي التي حجبت دور الملك عبد العزيز ، وقد آن الأوان بعد التطورات التي لحقت بالأمة العربية أن يعاد تقويم دور الملك عبد العزيز لا من أجل ما قام به في الجزيرة العربية وحدها ، بل من أجل موقفه الحقيقي في خارطة الإصلاح الإسلامي بصورة شاملة . وعلى الرغم من أن هذه المقدمة المختصرة لاتمكنني من التوسع في هذا الدور العظيم ، فسوف أحاول أن ألمس خطوطاً عريضة يمكن أن يهتدي بها الدارسون في محاولتهم لدراسة الملك عبد العزيز ، لا من حيث هو بطل قام بإنجازات سياسية وعسكرية مهمة ، بل من حيث هو مفكر هدته فطرته إلى كثير من الأمور التي عجز كثير ممن أفنوا حياتهم في الفكر عن الوصول إلى كنهها .

وأقول في البداية : لاينكر أحد أن محمد علي باشا كان من أهم الشخصيات التي عرفها العالم العربي والإسلامي في العصر الحديث . ولقد توافرت لمحمد علي باشا ظروف اجتماعية واقتصادية خاصة جعلته يقوم بدور مهم في تطوير الحياة الاجتماعية في مصر خلال حكمه ، فقد كانت مصر هي أكبر الدول العربية وأكثرها غنى بسبب مشروعاتها الزراعية المتطورة وتوافر المياه فيها من مصدرها الأساسي وهو نهر النيل . ولقد اهتدى محمد علي باشا إلى نظرية شاملة تقول ان سبب التخلف الحقيقي لمصر هو قصورها عن اللحاق بركب العلم والتقنية الذي تمثله الدول الأوروبية وانتهى محمد علي باشا إلى أن المشروع النهضوي العربي يحتم بأن يبدأ العرب وفي مقدمتهم مصر على الفور بنقل العلوم والتقنية الأوروبية . وهكذا بدأ محمد علي في

إرسال الوفود والبعثات إلى أوروبا لتحقيق هذا الغرض . ولم يمض وقت كبير حتى كانت كثير من مظاهر الحياة الأوروبية الحديثة فى التعليم والزراعة والعسكرية وغيرها تجد طريقها إلى مصر . وأخذ جيل جديد يمثله رفاعة رافع الطهطاوى ، والأفغانى والشيخ محمد عبده ، وفى مرحلة لاحقة لطفى السيد وطه حسين يدعو إلى المزاوجة بين الواقع العربى الإسلامى والواقع الأوروبى الحديث . ولم يخل هذا الجيل فى بعض الأحيان من بعض نزعات التطرف كما فعل الدكتور طه حسين فى كتابه مستقبل الثقافة فى مصر . . حيث ذكر على وجه التخصيص أن المجتمع المصرى لاينتمى إلى الحضارة العربية الإسلامية وإنما ينتمى إلى حضارة حوض البحر الأبيض المتوسط،وهو بالتالى جزء من الحضارة الأوروبية الشاملة وعليه أن يأخذ بمبادئها الكاملة . ولم يكن موقف طه حسين مقنعاً للكثيرين ، حتى فى داخل مصر ذاتها ، ذلك أن مصر ظلت على مر التاريخ حاملة لراية الثقافة العربية الإسلامية ، ودورها فى هذا المجال دور قيادى .

وعلى الرغم مما أحدثه المشروع النهضوى لمحمد على باشا فى مصر ، فقد بدأ الفكر المصرى فى بداية الخمسينات يدرك أن هنالك خللا عاماً فى التوجه الثقافى ، وكان ذلك من الأسباب التى أدت إلى قيام الثورة المصرية فى عام ١٩٥٢ ، وهى الثورة التى دفعتها ظروف الحرب الباردة إلى تقديم المشروع السياسى على المشروع الحضارى والثقافى فى العمل النهضوى الحديث . وقد فتحت الثورة المصرية المجال لمشروعات سياسية أخرى تنطلق فى معظمها من فلسفة اليسار ويأتى فى مقدمة هذه المشروعات المشروع القومى ، والمشروع الماركسى ، والمشروع الاشتراكى والمشروع الفلسفى . وتلتقى سائر هذه المشروعات فى هدف واحد هو الرغبة فى تحقيق التقدم عن طريق تغيير البنية السياسية الفوقانية .

وكانت حرب عام ١٩٦٧ ونتائجها المؤلمة نقطه تحول مهمة ، ليس فى الفكر المصري الحديث فحسب ، بل فى الفكر العربى بصفة عامة . ذلك أن المثقفين العرب قد بدأوا يتساءلون عن الأسباب الحقيقية وراء الهزيمة . وظهرت عدة اتجاهات . فقد برز الاتجاه النهضوى القديم الذى يقول بأن السبب الرئيسى وراء الهزيمة هو تخلفنا عن اللحاق بركب التقدم والتقنية الغربى ، وأن الطريق الوحيد لتجاوز الهزيمة هو فتح الأبواب على مصراعيها للفكر الحر والثقافة الغربية . وذهب اتجاه آخر إلى القول بأن السبب الرئيسى للهزيمة هو التنكر للمبادىء والقيم الدينية،وأن الطريق لاستعادة حيوية الأمة يكمن فى العودة إلى الإسلام من جديد . وقد أفرز هذا الاتجاه

نزعات مختلفة ، يميل بعضها إلى الاعتدال ويميل بعضها إلى التطرف .

ودخل العالم العربى من جديد فى مناظرة كلامية غير مجدية ، حتى ـ
حرب رمضان فاستعاد العالم العربى ثقته من جديد ، وبدأت التيارات التى ظلت
الهامش تظهر بوجه آخر تارة تحت اسم الحداثة وأخرى تحت ستار الأيسنية ؛
كثير من المفكرين وخاصة فى المغرب العربى مثل « محمد أركون » و « محمد
الجابرى » و « هاشم جعيط » يطرحون مشروعات جديدة للنهضة كلها تركز
نقد التراث الإسلامى ، واعتباره تراث نص مغلق يجعل الإنسان العربى يتج
الوراء بدل أن يتجه إلى الأمام . وتبشر سائر هذه الاتجاهات بالحضارة الغربية و
الغربى على أنه الأمل الذى ينتظر العالم العربى من أجل الخلاص،وعلى الرغ
قوة هذه التيارات فقد ظلت المبادىء التى نادى بها مالك بن نبى،وأبو ال
المودودى قائمة فى أذهان الكثيرين على أنها الرد الحاسم على أولئك جميعاً ،
أن ما اتجه إليه هؤلاء أن التقدم ليس رهناً بنقل المقتنيات الشيئية من العالم ال
بل بالقضاء على قابلية الاستعمار والتوجه نحو العالم الحديث بشىء من الأ
والفاعلية .

ولاشك أن الصراع القائم بين هذه الاتجاهات جميعها والأحداث والوقائع
أفرزتها حرب الخليج ، قد جعلت الناس يعيدون النظر فى كل الفكر والمو
المطروحة على الساحة العربية . ولم يكن من الممكن فى ظل الظروف الر
تجاوز الدور الذى قام به الملك عبد العزيز من أجل طرح حل عربى إسلامى ،
هو الأساس الذى تبنى عليه الحياة العربية الحديثة . وأعترف أننى حين طرحت
المشروع لأول مرة استقبله الكثيرون بالاستغراب ، ذلك أن الملك عبد العزيز ا
فى أذهان هؤلاء جميعاً بدوره السياسى والعسكرى فى توحيد الجزيرة العربية .
يرتبط فى أذهانهم بكونه مفكرا اجتماعياً ، ومصلحاً إسلامياً وضع أسساً سليمة لة
نهضوية شاملة اهتدى إليها بفطرته وحسه الإسلامى السليم ، ولكن الكثيرين قد
الآن من خلال ماكتبه « أرمسترونج » ـ عن الملك عبد العزيز ـ يدركون أنه
صاحب رؤية متميزة تستطيع أن تطرح نفسها بقوة على الفكر العربى الإسا
المعاصر كبديل لكل الحلول التى أثبتت فشلها فيما قبل ، وكخيار لابد من الا
به من أجل صنع حياة عربية وإسلامية حديثة متطورة . فما هو الطرح الذى
الملك عبد العزيز ؟ وكيف يمكن أن يشكل هذا الطرح فلسفة متكاملة تقوم عليها ا
العربية الإسلامية فى وضعها الراهن ؟

لم يكن الملك عبد العزيز أكاديمياً فى منهجه ،ولكنه درس أصول الفكر الإسلامى من مصادره الأولى وهى القرآن الكريم والسنة المطهرة على النحو الذى يمكنه من بناء رؤية إسلامية صحيحة . وقد تأهل الملك عبد العزيز لهذا الدور بفطرة سليمة ورغبة متكاملة فى أن يكون هو الرجل الذى تتحقق على يديه كثير من الأعمال العظيمة،والتى يكون فيها صلاح مجتمعه والبيئة الدينية من حوله . وإذا نظرنا إلى حياة الملك عبد العزيز كما رواها أرمسترونج نستطيع أن نتبين الخطوط التالية :

أولا : توجه الملك عبد العزيز إلى بناء شخصيته بصورة سليمة ، فتعهد نفسه بنظام صارم فى الرياضة والأكل والنوم التزم به طوال حياته . وهو نظام أقل مايقال فيه أنه يلتزم بالقسوة ولايستطيع أن يتحمله إلا من جردوا أنفسهم للمهمات الكبار .

ثانيا : نظر الملك عبد العزيز فى التاريخ الإسلامى ، فوجد أن اللحظات الباهرة فى ذلك التاريخ هى تلك التى توحدت فيها كلمة الأمة والتزمت فيها بأصول عقيدتها وبالتالى فقد أصبح مفهوم الوحدة الإسلامية هو الهاجس الذى يشغل ذهنه .

ثالثا : كان الملك عبد العزيز يدرك أن الوحدة الاسلامية تتطلب نواة قوية تستند اليها ، وبالتالى فقد وجه كل جهده لتوحيد شعب الجزيرة العربية فى أمة واحدة لأن ذلك هو السبيل الوحيد للانطلاق نحو بناء أمة إسلامية متكاملة .

رابعا : أدرك الملك عبد العزيز أن الطريق الأمثل لتوحيد قبائل الجزيرة يقوم على معرفة أكيدة بطبائع رجالها وعاداتهم وبالتالى فقد أهل نفسه تأهيلاً كاملاً بمعرفة عادات شعوب الجزيرة وطبائعها وأخلاقها .

خامسا : أدرك الملك عبدالعزيز أن القائد كى يقود شعبه فلابد له أن يكون قدوة فى مسلكه وغاياته . وبالتالى فلم يأخذ أى فرد على عبد العزيز شيئاً فى دينه أو أخلاقه أو عدله .

سادساً : تعلم عبد العزيز من التاريخ أن القادة العظام هم الذين يتقدمون الصفوف بأنفسهم ولايظهرون شيئا من الضعف حتى فى أقسى ظروف الشدة .

سابعا : كان العدل هو الديدن الذى أقام عليه عبد العزيز دولته . وعلى الرغم من حزمه فى تطبيق أحكام الشريعة فقد كان متواضعاً فى سلوكه ، وكان أى فرد من أفراد رعيته يستطيع أن يدخل عليه ويخاطبه باسمه الأول،ويوجه له ما شاء من النقد . وكان عبد العزيز يتقبل النقد إذا رآه حقاً .

ثامنا : اتسم عبد العزيز بدرجة عالية من التواضع ، وكان فى كثير من الأحيان يجلس أمام شعبه ويطلب منهم محاسبته، وكان يقول لا أريد أن أقود شعباً لايقر قيادتى . . وكان الشعب يبادل عبد العزيز حباً بحب وفى كثير من المواقف الحرجة بكى الناس حين أدركوا أنهم خالفوا عبد العزيز فيما كان هو فيه على حق .

تاسعا : كان عبد العزيز يحسن التقدير والتفكير فلا يورط نفسه فى قضايا دولية أو خارجية لاتمكنه قوته من مواجهتها، فكان يلتزم الحذر مع بريطانيا وتركيا وغيرها دون أن يتخلى عن مبادئه . وقد شكلت سياسة الحذر والوسطية هذه الأساس الذى قامت عليه الدولة السعودية فى طورها الثالث .

عاشرا : وعلى الرغم من الظروف المحلية التى كان يعيش فيها شعبه فقد أدرك عبد العزيز أنه لايستطيع أن ينعزل عن العالم أو تقنيته الحديثة، غير أنه لم يرد أن يكون التحول مفاجئا، بل أراده أن يكون بصورة تدريجية حتى يستوعبه الناس .

ولاشك أن تلك هى بعض الملامح العامة التى قامت عليها فلسفة الملك عبد العزيز آل سعود ، ويوضح كتاب أرمسترونج كثيرا من الخصائص التى تلقى كثيرا من الضوء على شخصية هذا الملك العظيم وتؤكد أن الدور الذى قام به الملك عبد العزيز لم ينته عند تأسيس المملكة العربية السعودية بل تلك كانت مجرد بداية لفلسفة متكاملة سيكون لها شأن كبير فى مختلف البيئات العربية والإسلامية ، بإذن الله .

المترجم

مانشستر ٢٦ / ٥ / ١٩٩١

عبد العزيز آل سعود

سيّد الجزيرة العربية



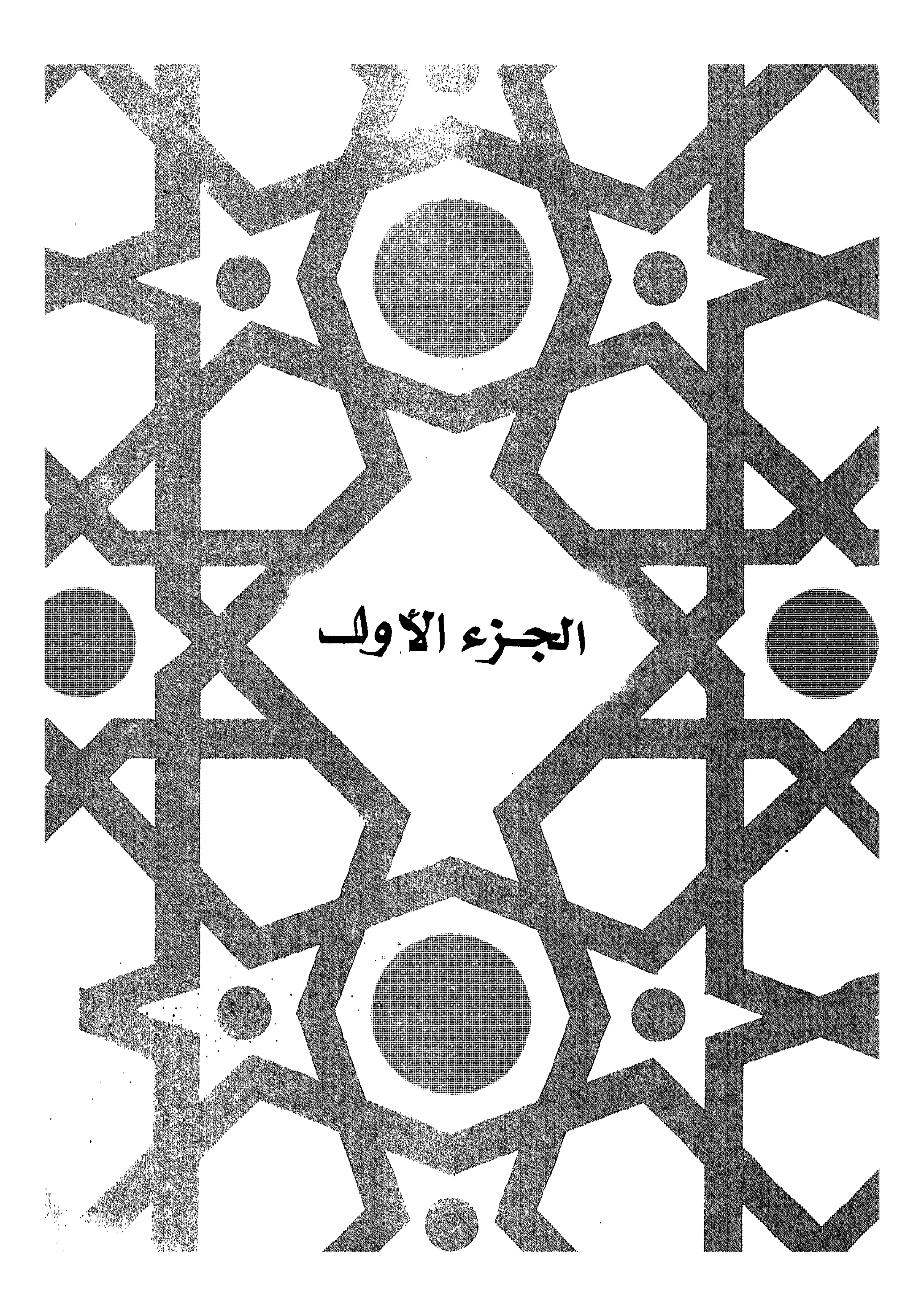

بسم الله الرحمن الرحيم











الجزء الأول



الفصل الأول

نشأ ابن سعود في أحد أجنحة القصر ، حيث أرضعته أمه وهى ابنة أحمد السديرى ، أحد زعماء قبيلة الدواسر التى تنحدر في أصولها من الجنوب ، وكانت والدته ذات بنيان متين وتنتمى إلى أرومة تعودت أن تنجب الرجال العظام . وكغيرها من العربيات اللاتى ينحدرن من أصول طيبة ، فقد تحجبت منذ سن السابعة ولزمت مكانها في داخل البيت . ولم تكن تخرج إلا نادرا وفي حراسة خاصة ، وذلك حين ترغب في زيارة بعض النساء . ولم تكن كغيرها من النساء في بيئتها تعرف القراءة أو الكتابة ، وبالتالى لم تكن تهتم بأخبار العالم الخارجي . وعلى الرغم من ذلك ، فقد كانت ذات حنكة ودراية بالغة بالمسائل التى تتعلق بإصدار الأحكام المناسبة ، خاصة تلك التى تتعلق بالتقاليد .

وكانت والدة ابن سعود تتميز بخبتها الديني وقدرتها على إصدار النصائح الحكيمة ، مما أكسبها مكانة خاصة عند زوجها وأولادها .

وكان القصر عبارة عن مجموعة ضخمة من المبانى والردهات والغرف ، والممرات المتعرجة والمظلمة ، بنى حول فناء كبير وداخل سور عظيم . ولم تكن هنالك خطة واضحة لتوسعته ، فقد كانت التوسعة تتم بطريقة عشوائية . فما كانت تبرز الحاجة إلى مزيد من الغرف حتى تبنى منازل جديدة وتربط إلى بقية الممرات بواسطة الكبارى المعلقة . وكان السور الخارجي يمدد من وقت لآخر ليحتوى المنازل في داخله . وأصبح القصر بذلك يحتل معظم المساحة التى تشغل وسط المدينة .

و بمجرد أن شب ابن سعود عن الطوق ، صدرت الأوامر بنقله من جناح النساء إلى جناح الرجال ،وسلم عندئذ إلى أحد الخدام الذى أصبح مسئولا عنه وعن سلامته . وكان عبد العزيز يزور والدته من وقت لآخر ، وكانت هى تدلله إلى درجة كبيرة . وكان يحب اللعب مع أخته نورة ، ولكن مكانه قد أصبح فيما بعد مع الرجال حيث تربى معه في القصر بعض أبناء الحاشية الذين كانوا في سنه ، وأصبحوا فيما بعد رفقاءه ، ثم أصبحوا في مرحلة تالية أكثر حراسه أمانة وإخلاصا له . ويمكن القول إنه بمجرد أن أصبح ابن سعود قادرا على المشى تعهده والده عبد الرحمن بالرعاية .

ولقد اجتمعت لوالده عبد الرحمن خصلتان رئيسيتان وهما التدين والحزم ، فقد كان عبد الرحمن إماما وزعيماً للذين كانوا يخضعون أنفسهم إلى معايير صارمة يطبقها العلماء ورجال الشرع ، وعلى الرغم من أن مظهر هؤلاء كان رقيقا ، فقد كانوا يرون الحياة بعيون لاتقبل المساومة في الأمور التى تخص العقيدة ، ولم يبح هؤلاء لأنفسهم شيئا من الراحة أو النعماء ، فقد كانت مساكنهم عارية إلا مما يحتاجون إليه من أثاث ، وكانت مساجدهم بغير منارات أو قباب أو زينات ، وكانوا يرفضون شرب الخمر بحسب تعاليم العقيدة ، بالإضافة إلى رفضهم التنعم بالطعام الطيب أو التباكو،أو الملابس الناعمة .

ولم يكونوا يبيحون الموسيقى والغناء ، وباختصار لم يكن لديهم مجال للهو حتى لاتنشغل نفوسهم بغير عبادة الله . كانو رجالا يتسمون بخبتهم الدينى ، ويعرفون أنهم أصحاب رسالة واجب عليهم نشرها ، حتى لو كان ذلك باستخدام السيف .

ولم يكن عبد الرحمن يستثنى أبناءه من الالتزام الدقيق بمبادىء الدين ، فقد أرسل ابن سعود إلى مدرسة بالرياض ، ولكن ابن سعود كان في بدء الأمر عازفا عن الكتب ، إلا أنه ما أن بلغ السابعة حتى أصبح مسلما ملتزما يحضر الصلوات جميعها مع والده في الجامع الكبير خمس مرات في اليوم ، وكان إلى جانب ذلك محافظا على صيامه في شهر رمضان ومداوما على تلاوة القرآن .

ولم يكن لعبد الرحمن سوى هدف واحد في حياته ، وهو أن يقوم هو أو أحد أبنائه بإعادة بناء إمبراطورية سعود الكبير التى استهدفت جمع شمل سائر القبائل والعرب في الجزيرة العربية تحت راية أمة واحدة تدين بعقيدة الإسلام . وقد علم عبد الرحمن أبناءه أن تلك هى مهمتهم في الحياة ، وأن الله قد اختارهم لكى يلعبوا هذا الدور العظيم في حياة المسلمين . وكان عبد الرحمن يقول لأبنائه إن قيامهم بهذا الواجب يعنى أنهم سوف يواجهون ظروفا صعبة وحروبا يجب أن يهيئوا أنفسهم لها . وقد علم عبد الرحمن ابن سعود كيفية استخدام السيف والسلاح ، كما علمه كيفية القفز على صهوة الجياد والركض بها من غير سرج أو لجام . وكان لكى يقوى من شكيمة ولده أن درج على إرساله إلى الرحلات البعيدة والشاقة . وكان يطلب إليه أن يستيقظ من نومه قبل ساعتين من بزوغ الفجر ، وحتى في فصل الشتاء حين كانت تهب الرياح الباردة كان يطلب إليه أن يحافظ على تلك العادة . وكان يطلب إليه أن يسير حافي القدمين في شمس الصحراء المحرقة ، وشجعه على أن يختبر قوته بالمصارعة مع أقرانه ، والاقتصاد في طعامه وشرابه ونومه .

وقد نشأ ابن سعود في سرعة فائقة ، شابا طويلا وقوى البنية ، على عكس

والده الذى كان يميل إلى القصر . كان ابن سعود قوى العضلات يمتلىء بالحيوية ولايهدأ أبدا . وكانت موجات غضبه تلمع كالبرق ، ولكنه كان يعود دائما إلى طبيعته كأن شيئا لم يكن .

ولم يكن ابن سعود في المرحلة الأولى من حياته يعرف كثيرا عما يدور خارج حدود الرياض ، إذ كانت المدينة مغلقة عن العالم الخارجى . وكان أهلها يشعرون بالكبرياء وتغلب عليهم روح المحافظة . وكانوا لايميلون إلى الأجانب ولا يثقون بهم . وكان اتصالهم بالعالم الخارجى يقتصر على القوافل التى كانت تجرؤ من وقت لآخر على عبور طرق الصحراء الملأى بالمخاطر . والبدو المغيرين . وكانت تلك القوافل تأتى إلى الرياض بالملابس ، والنحاس من العقير والكويت التى تقع على الخليج العربى . وقد تأتى القوافل بالبن والعطور وغيرها من أغراض التجارة التى تأتى عبر البحر الأحمر من اليمن وأفريقيا . وكانت الجمال الحاملة لتلك البضائع تتخذ في الغالب مباركها أمام قصر الحاكم وذلك قبل أن تمرر أخبار قدومها .





الفصل الثانى

كانت تلك هى أيام الخطر والحذر المستمر ، إذ كانت الأرض الواقعة خارج الرياض مسرحا لإغارات البدو الذين لم يكن من السهل التحكم فيهم ، وكانت هنالك في الشمال قبائل شمر وقد اتحدت تحت قيادة محمد ابن الرشيد وهو رجل قادر وذو طموحات كبيرة ، وقد اتخذ من مدينة حائل عاصمة له .

وكانت الرياض في تلك الفترة ذات حصون عظيمة ، اذ أقيم حولها سور عظيم ، به منافذ تمكنت بها دوريات الحراسة من مراقبة الموقف خلال الليل والنهار ، ولم يكن أحد يستطيع الدخول إلى الرياض دون أن يفتش أو يستجوب . وكانت أبواب المدينة تقفل عند الغروب وأيضا ثلاث مرات أخرى في اليوم حين يؤدى الرجال الصلاة في المسجد . وكانت المدينة عبارة عن قلعة حربية كبيرة ذلك أنها كانت ممزقة بالحرب الأهلية . فقد كان عبد الرحمن واحدا من أربعة أخوة،وكانت الخصومة قائمة على مدى عشر سنوات بين اثنين من الأخوة الكبار وهما عبد الله وسعود حول من يتولى القيادة . وكان عبد الله قد أخرج سعوداً الذى ذهب وأقام عند قبائل العجمان في منطقة الأحساء إلى الشرق من الرياض . وقد تحالف سعود مع تلك القبائل وأخرج عبدَ الله من الرياض ، إلا أن موته المفاجىء جعل عبد الله يعود من جديد إلى الرياض ليظل الأمر بينه وبين أبناء سعود .

وكانت تلك أياماً انقسم فيها الناس بين الفريقين،وأدت إلى كثير من الخصومات والمشاحنات التى شهدتها الرياض . وكانت تلك أيضا هى اللحظات التى أظهر فيها كل من عبد الرحمن ومحمد حكمتهما بمحاولة رأب الصدع وتقريب الشقة بين الأخوة ، ولكن محاولات عبد الرحمن باءت بالفشل واضطر هو نفسه إلى أن يعكف في القصر إلى جانب أسرته . وكان أكبر قلق عبد الرحمن أن ابن الرشيد سوف ينتهز تلك الفرصة للانقضاض على الرياض . وفي مرحلة لاحقة تمكن أبناء سعود بمساعدة العجمان من الدخول إلى الرياض من جديد حيث أقصى عبد الله وأودع السجن .

وكانت تلك هى اللحظة الحاسمة لابن الرشيد ، الذى وجدها فرصة سانحة للتقدم نحو الرياض حيث أخرج أبناء سعود وأخذ عبد الله معه إلى حائل حيث جعله تحت مراقبة أحد شيوخ شمر ويدعى « سالم » .

ولم يتأثر وضع عبد الرحمن كثيرا بهذا التحول ، ذلك أنه بالنظر إلى سمعته الحميدة ، وتأثيره البالغ على الوهابيين فقد تركه ابن الرشيد يعيش مع أسرته في القصر في سلام . ولقد أصيب عبد الله في تلك الآونة بالمرض ، فأشار طبيب فارسي ـ كان يمر بحائل في ذلك الوقت وفى طريقه إلى مكة ـ إلى ابن الرشيد بأن الرجل ينتظر الموت . ولم يكن ابن الرشيد يريد أن يتحمل مسئولية اتهامه بأنه قتل عبد الله،فاستدعى عبد الرحمن إلى حائل وطلب منه أن يأخذ أخاه عبد الله إلى الرياض . ولم يمر كبير وقت بعد وصول عبد الله إلى الرياض حتى كان قد قضى نحبه .





الفصل الثالث

لقد أصبح عبد الرحمن الآن رأسا للأسرة وبينما كان عبد الله فقيرا ويعانى من المرض ، فإن عبد الرحمن كان على غير ذلك شجاعا وتنظر نفسه إلى آمال كبار . فلم يكن ليبقى ساكنا بينما الرياض فى قبضة الآخرين ، وكان ذلك يعنى أن هدفه هو الحكم وإقصاء ابن الرشيد عن المكانة التى اكتسبها .

ولم يضيع عبد الرحمن وقتا طويلا ، فقد حاول مباشرة أن يصل إلى اتفاق مع أبناء أخيه سعود ويطلب مساعدتهم ، ولكن هؤلاء لم يوافقوا على ذلك لأنهم كانوا يعتقدون أن القيادة لهم . ولم يثن ذلك عزم عبد الرحمن الذى بدأ يفكر فى إثارة المدينة على حكم ابن الرشيد فى نفس الوقت الذى يهاجم فيه هو من الخارج . وقد عقد عبد الرحمن لهذا الغرض اجتماعات سرية مع شيوخ نجد طلب منهم فيها أن يحركوا سكان المدينة ضد ابن الرشيد ، وأرسل كذلك كثيرا من الرسل إلى القرى والقبائل يشرح لهم الأمر ، ولكنه لم يجد صدى واسعا لدعوته لأن الناس كانوا يشعرون بالخوف ، خاصة وأن ابن الرشيد قد أقام قلعة قوية فى مدينة الرياض ، وكان الناس يتذكرون أنهم قد قاموا من قبل وفشلوا في أمرهم وكان ذلك سبب أن شنق سالم عددا من الرجال وأودع كثيرا غيرهم السجن .

وقد استمر عمل عبد الرحمن دون أن يشعر بالامتعاض . ولاشك أنه كان يواجه خطرا عظيما لكثرة الجواسيس حوله ، بالإضافة إلى أنصار ابن اخيه الذين كانوا سيتخلون عنه فى أول فرصة سانحة .

ومهما يكن من أمر فقد عرف ابن الرشيد بما يتجه إليه عبد الرحمن وأرسل بالتالى أوامره إلى سالم يطلب إليه أن يتولى أمره ويلقن المدينة درسا لاتنساه .

وقرر سالم أن يتخذ موقفا حاسما ضد المعارضة السياسية لأنه علم أن آل سعود قوم يعتدون بأنفسهم ولا يتركون أمورهم دون أن يحسموها . وكانت خطته أن يدبر لهم أمرا يكون نهاية لكل طموحاتهم . وكان العيد الكبير على وشك الانتهاء ، وكانت العادة هى أن يتبادل الناس التهانى فى آخر يوم من أيامه . وقرر سالم أن يذهب إلى عبد الرحمن يتظاهر أنه يقدم له التهانى بمناسبة العيد . ثم يطلب إليه أن يحضر الرجال من آل سعود حتى يتحدث إليهم ، وبمجرد أن يجتمعوا إليه يأمر حراسه أن

يوسعوهم قتلا . وكان عبد الرحمن على علم مسبق بخطة سالم ، وسواء كان مستعدا أم لا ، فقد قرر أن يقاتل ، إذ كان يرى أن من الخير له أن يموت مقاتلا من أن يموت بغير مقاومة . وهكذا سلح رجاله وجعلهم ينتظرون .

ووصل سالم فى الساعة المحددة يحيط به حراسه،وقد استقبلهم عبد الرحمن استقبالا رسميا في ديوان القصر . وحتى لايشك سالم فى الأمر ، فقد جعل عبد الرحمن بعض أفراد آل سعود يجلسون إلى جانب سالم وكان من بينهم الطفل ابن سعود وإلى جانبه الخادم المكلف برعايته . وبعد أن تبادل الرجلان التحايا والتهانى وكان كل منهما يجامل الآخر فى مسائل الجلوس وشرب القهوة ويتحدث فى المسائل العابرة في الوقت الذى كان يرصد الآخر . جاءت اللحظة الحاسمة عندما طلب سالم من عبد الرحمن أن يحضر له الرجال من آل سعود للتحدث إليهم . وعندئذ أعطى عبد الرحمن إلى حراسه الإشارة المتفق عليها ، فاندفع الرجال إلى القاعة وسيوفهم مشرعة وأوسعوا رجال سالم تقتيلا بعد أن حملوه بعيدا . وهكذا رأى ابن سعود ولأول مرة كيف يسيل الدم فى ثورة الغضب .

ولم تكد الأخبار تصل إلى الناس حتى هبت المدينة بأسرها وطاردوا رجال ابن الرشيد خارج القلعة وبدأوا يستعدون للمقاومة بعد أن انضمت إليهم القرى والقبائل المجاورة .

ولم يضيع ابن الرشيد وقتا ، فقد تحرك للقضاء على الثورة . وقد خرج عبد الرحمن لمقابلته ، واستمرت الحرب بينهما على مدار أربعة أيام ، وكان أساسها الكر والفر ، وقد تمكن ابن الرشيد من محاصرة عبد الرحمن فى مدينة الرياض ذاتها ، فقد استعاد ابن الرشيد الموقف كله تحت إمرته .

وعندما أخذت الأسابيع تتوالى بدأت المدينة تعانى من شح المياه والطعام ، وقد بدأ المهاجمون يقطعون أشجار النخيل ويدمرون قنوات الرى والآبار والبساتين وعندئذ بدأ أهل المدينة يطالبون عبد الرحمن أن يتفاهم مع ابن الرشيد ولكنه أبى ، وعندما أعلموه بأنهم قد يخرجون على طاعته ،أرسل على غير رغبة منه مجموعة تحمل أعلام الصلح ، وقد أرسل ابن سعود ضمن هذه المجموعة .

وكان ابن الرشيد مستعدا لعقد الصلح لأنه كان يريد الذهاب بعد أن تعب رجاله من الحصار وأخذوا يفكرون فى هجر قائدهم الذى لم يمكنهم من السلب . وهكذا قرر ابن الرشيد بسرعة الموافقة على شروط الصلح . وبمجرد أن سلم سالم إلى ابن الرشيد من غير أذى ، فقد قام بتعيين عبد الرحمن حاكما على الرياض ثم انسحب

منها . ولكن بمجرد أن عاد ابن الرشيد قامت القبائل من جديد ضده ، فما كان من عبد الرحمن إلا أن جمع رجاله وخرج بهم للانضمام إلى القبائل وأخذ معه ابنه ابن سعود .

لقد بلغ ابن سعود العاشرة من عمره ، ويعنى ذلك أنه قد حان الوقت لمشاركته فى الحرب وهكذا وضعه والده على ظهر جمل ، وكان الزنوج يمسك به من خلف السرج بينما كان المحاربون يسيرون خلف رجال ابن الرشيد .

ولكن ابن الرشيد عاد من جديد واستطاع أن يهزم متعقبيه ، وبدأ يبحث عن عبد الرحمن ، وقد صمم فى هذه المرة على أن يتخذ الموقف الحاسم الذى لم يستطعه سالم من قبل .





الفصل الرابع

لم يستطع عبد الرحمن فى تلك المرحلة أن يعد الجيش الذى يقاوم به ابن الرشيد ، لاسيما وأن كثيرا من رجاله قد تفرقوا وآثروا أن يذهبوا للرياض نفسها للاحتماء بأسوارها . ولما رأى عبد الرحمن الموقف كذلك وضع ابن سعود فى أحد الاخراج على أحد الجمال يتبعه عدد من الخدم وأسرع به إلى الرياض ، لكى يعد خطة للدفاع عنها .

ولكن المشكلة التى واجهت عبد الرحمن هى أن أهل المدينة لم يكونوا مستعدين لحصار جديد ، وكانوا يتجهون إلى السلام أكثر منه إلى الحرب . ولم يمض وقت طويل حتى جاء ابن الرشيد فى أعقاب عبد الرحمن وهو يقول كان سالم على حق فى كل ما ذهب إليه فيما مضى ، وكان ابن الرشيد فى هذه المرحلة مصمما على الانتقام .

وفى ذات ليل صحا عبد الرحمن وقد أيقظ عائلته وأمرها بالخروج فورا من المدينة من أجل السلامة ، ولم يكن هنالك وقت لإضاعته ، ذلك أن عيونه رأت بعض رجال ابن الرشيد على بعد أميال قليلة من أسوار المدينة ويعنى ذلك أن العدو سوف يكون بعد ساعات قليلة أمام البوابات . لقد جمعت النساء كل شىء فى سرعة فائقة وقام الخدم بوضعها على ظهور الجمال ، وصعدت النساء فوق حزم المتاع ، بينما ركب ابن سعود وأخوه محمد على أحد الجمال ، وعندما بزغ الفجر كان عبد الرحمن قد خرج بالقافلة من بوابة المدينة الشرقية ، وقد أسرع السير عبر غابة النخيل ومن ثم توجه نحو صحراء الدهناء بينما أرسل العيون أمامه لحمايته من أى هجوم مباغت ، وأخيرا وصل عبد الرحمن إلى الأحساء حيث لجأ عند الشيخ « حيثلين » شيخ قبيلة العجمان .

لقد منحه العجمان الحماية وفق قوانين الصحراء وأعرافها ولكن كان ذلك على مضض ، لأن أبناء سعود الذين كانوا قد تزوجوا من العجمان قد احتجوا على ذلك وطالبوا الشيخ « حيثلين » أن يطرد عبد الرحمن . ومن ناحية أخرى فقد طالب ابن الرشيد بتسليم آل سعود إليه . وهكذا قرر عبد الرحمن أنه لن يكون آمنا بين العجمان فى تلك الظروف ، إذ كان يتوقع أن ينقلبوا عليه ، لذلك فقد قرر أن ينقل نساء أسرته إلى البحرين ، وقد أرسل ابن سعود معهن،وكان يعانى فى ذلك الوقت

من حمى روماتزمية .

ومع إصراره على رفض الهزيمة ، فقد قرر عبد الرحمن أن يتجه إلى آخرين كي يساعدوه ، ولكن لم يكن هنالك أحد من الشيوخ يريد أن يتآلف معه ، وهكذا جمع عددا قليلا من البدو ـ الذين كانوا دائما على استعداد للعمل ، إذا ما وعدوا بإمكانية النهب ـ وهاجم بهم الرياض مرات عديدة ولكن رجال نجد لم يقفوا معه،واستطاعت حامية ابن الرشيد في الرياض أن تدحره بسهولة فائقة .

وبمجرد عودته ، أرسل إليه حاكم الأحساء التركى ، وقد كان الأتراك هم الذين يدعون بسط السيادة على الجزيرة العربية فى ذلك الوقت ، وفي الحقيقة فإن نفوذهم كان مركزا على الأطراف والأماكن الغنية مثل اليمن ، وعسير والحجاز وساحل البحر الأحمر ونحوها بالإضافة إلى مستعمراتهم الأخرى وهى سوريا والعراق حتى بغداد والكويت والاحساء ، إذ كانت حاميتهم في الهفوف وغيرها من المدن ، ولم يكن للأتراك في داخل الصحراء ذاتها قوة تذكر .

وكانت سياسة الأتراك بسيطة للغاية ، إذ كان هدفهم هو منع القبائل الداخلية من مهاجمة مناطق حكمهم ، ولأجل أن يقوموا بهذه المهمة فقد شجعوا الصراعات بين شيوخ القبائل . وكانوا فى آخر الأمر يقفون مع الضعيف حتى لايتم انتصار فريق على آخر ، وهكذا لم يحب الأتراك فى هذه المرحلة هزيمة آل سعود لأن ابن الرشيد قد تجاوز بقوته حساباتهم . وكان حاكم الأحساء التركى يعامل عبد الرحمن بكثير من الاحترام،وقد عرض عليه أن يعطيه جنودا ومدفعية ليعود بها إلى الرياض بشرط أن يقبل حامية تركية على الرياض،ولكن عبد الرحمن رفض ذلك رفضا قاطعا ، فهو فى المقام الأول عربى ووهابى وكان الأتراك بالنسبة له غزاة وخارجين على أصول الدين ، وقد أفهمهم ذلك ، فاعتبروه رجلا خطرا . وعندئذ تذكرالأتراك أنه قاد قبل عشرين عاما تمردا ضدهم في الأحساء ذاتها . وكانت هنالك أضطرابات فى المنطقة في ذلك الوقت،ويقال إن شيخ قطر كان ضالعا فيها .

وهكذا وجد عبد الرحمن الخطر يحيط به من كل جانب ، من أبناء أخيه ، ومن العجمان ، ومن الأتراك وكان ابن سعود قد شفى في ذلك الوقت من حماه فأخذه والده واتجه به جنوبا إلى واحة « يابرين » ومن ثم إلى الربع الخالى الذى يمتد نحوا من خمسمائة ميل من اليباب والرمال نحو المحيط الهندى . وقد وجد بالقرب من آبار « خيران » المالحة قبائل « المرة » التى خرجت لرعاية جمالها فى الحشائش المنخفضة . وهنالك طلب منهم عبد الرحمن الحماية .



الفصل الخامس

عاش ابن سعود لعدة شهور مع والده بين قبائل بنى مرة يصحبه أخوه الأصغر محمد وابن عمه جلوى وهو شاب أسمر يتميز بحدة المزاج وقلة الكلام . ولكنه كان دائما على استعداد للقيام بالمخاطرات ، وكانت أمه وبقية النساء قد وصلن ـ جميعا ـ وبسلام إلى البحرين .

وقد تميزت حياة عبد الرحمن في تلك البقاع بالقسوة إذ كانت قبائل بنى مرة أكثر القبائل بدائية في الجزيرة العربية ، تعود رجالها أن يطيلوا شعورهم ، وهم على وجه العموم يتميزون بالنعومة وشدة الذكاء ، كانوا يعيشون في مستوى متدنٍ وربما قليلا فوق حد الكفاف . كان طعامهم يتكون من التمر الذى يجمعونه خلال الموسم ويقننونه حتى يكفيهم على مدار العام ، وذلك بالإضافة إلى لبن الجمال الذى كانوا يشربونه بدلا من مياه آبار خيران حيث كانت مالحة وطعمها أجاج وغير صالحة لشرب الإنسان . وكان بنو مرة يأكلون اللحم في بعض الأحيان وذلك حين يصطادون غزالا أو جديا من جداء الرمال ، أو أرنبا بريا . وإذا لم يجدوا ذلك فإن اللحم الوحيد الذى كان يتوفر لهم هو لحم الفئران « اليرابيع » التى تسكن الصخور أو لحم الضباب ، وقد يأكلون في بعض الأحيان بيض النعام الذى يجدونه مدفونا في الرمال ـ ولكن هذه الأشياء جميعها لم تكن تروق للمسلمين المتدينين الذين كانوا يعتبرون المتعة الحقيقية عندهم هى أكل كبد الجمل الصغير المضمخ بالدم بعد تمليحه .

ولم تكن لبنى مرة بيوت يسكنونها ، إذ كانوا في حركة مستمرة بحثا عن الكلأ والمرعى الخصيب . وكانت هذه القبيلة تثير الفزع في سائر القبائل الأخرى ، لأنها لم تكن تخرج من الربع الخالى إلا بغرض الإغارة حيث تحدث كثيرا من التقتيل والسلب والنهب للقوافل المارة وذلك قبل عودتها للاحتماء مرة أخرى في سهوب الربع الخالى . وكانت إغاراتهم تصل إلى حضرموت وعلى بعد أربعمئة ميل إلى لجنوب حيث يكون هدفهم هو جمال تريم المشهورة بالإضافة إلى الجمال الحمر في عمان .

لقد أصبح ابن سعود بينهم البدوى الكامل ، يسكن الصحراء الواسعة ، وفي معظم الأحيان لايقيم في خيمة أو غطاء وإنما يقيم تحت السماء الواسعة والنجوم الساطعة . لقد سافر ابن سعود مع بنى مرة كما غزا وصاد ، وقد علموه أساليب

الصحراء كما علموه كيف يقتفى الأثر في الرمال وكيف يتعامل مع الجمال في الرحلات الطويلة بل وكيف يطببها حين يصيبها المرض . لقد علموه كذلك كيف يسافر المسافات الطويلة بحفنة قليلة من التمر وسعن من اللبن الرائب ، وهكذا بعد أن كان صبيا يافعا غدا شابا بدويا أشوس ، يعيش على الإحساس بالخطر الدائم ، والمشقات بل الإنذارات المستمرة وقد قوى ذلك من شكيمته وخشن من معدنه حتى أصبح خفيفا كالجلد ومستعدا في جميع الأحوال للمواجهة .

• • •

وأما بالنسبة لعبد الرحمن فقد كانت الحياة مع بنى مرة نوعا من التطهير ، كان عبد الرحمن لايحب تلك الحياة لأنها تتسم بالقذارة،وهى في نظره حياة رخوة أسوأ من حياة الكفار،وهى تشبه حياة وثنيين بغير ديانة . كان عبد الرحمن يشعر بأن حياته كلاجىء هى في الحقيقة انتقاص لكبريائه ومساس بأحاسيسه الدينية . حقا لقد أقنع بنى مرة مرارا بالإغارة على بلاد ابن الرشيد ولكن ابن الرشيد كان أقوى من أن تؤثر فيه مثل هذه الحملات . وعلى الرغم من أنه لم يصب باليأس وكان دائما يغذى روح أبنائه بذلك ، فقد كان عبد الرحمن ضعيف الأمل في تحقيق هدفه الأسمى وهو إصلاح الإمبراطورية السعودية أو حتى استعادة الرياض . كان عبد الرحمن قد تجاوز الخمسين وبدأ يشعر بالتعب في حياته ، وكان يريد العودة إلى وطنه حيث يجمع شمل أهله وأولاده من حوله ، لقد أرسل رسلا كثيرة إلى الشيوخ يطلب منهم الحماية ولكن محاولاته باءت بالفشل لأنه كان ذا أعداء أشداء يشكلون مصدرا عظيما للخطر . وأخيرا وحين كان على وشك أن يفقد الأمل نهائيا أرسل له شيخ الكويت رسالة يطلب منه فيها أن يقدم إلى زيارته ، وقد وعده بمكافأة شهرية ، يجريها عليه خلال إقامته في الكويت . وكان السبب في ذلك بسيطا جدا ، وهو تعيين حاكم تركى جديد للإحساء هو حافظ باشا الذى أدرك بسهولة حاجته إلى مكانة عبد الرحمن ـ ذلك أن ابن الرشيد قد أصبح قويا بدرجة لايحتملها الأتراك أو حاكم الكويت . لقد كان عبد الرحمن في نظرهم هو الأمل الذى يمكن به مواجهة ابن الرشيد وإسكات خطره . ونظرا لعلم الحاكم التركى بأنفة عبد الرحمن فقد اتفق سرا مع الشيخ محمد لدعوة عبد الرحمن وعائلته إلى الكويت ، وقد وعد الحاكم التركى الشيخ محمد بعلاوة يجريها عليه من الحكومة التركية نظير استضافته لعبد الرحمن .

ولقد قبل عبد الرحمن دعوة حاكم الكويت مسرورا ، وهكذا جمع شمل عائلته التى كانت في البحرين من جديد وأخيرا وبزفرة رضى متعبة طاب له المقام في أرض الكويت .



الجزء الثانى



الفصل السادس

تقع الكويت على رأس الخليج العربى وهى مدينة شيدت مبانيها من الآجر الأخضر المجفف بالشمس وصنع من طينة صفراء ، وتتميز المدينة بأزقتها المتعرجة التى تتجمع كلها على ساحل رملى منخفض وتتجه نحو ميناء ضحل تحميه بعض الصخور . وتبدو المدينة فى ضوء الشمس كأنها رقعة صفراء بين لمعان البحر والصحراء الحمراء التى تمتد بعيدا بحرارتها اللاهبة . ولم يكن فى المدينة بستان ، أو رقعة خضراء أو حتى شجرة تستريح عليها العين باستثناء بعض أشجار الطرفاء التى تتصارع مع الرمال .

لقد سكن آل سعود فى بيت من طابق واحد فيه ثلاث غرف حول فناء الدار . كانت الغرف متدنية وبها شبابيك عليها زجاج عادى ، ولكنه مسيج بطريقة محكمة . لقد بنى السقف المائل من الخشب الخفيف والمغطى بسعف النخيل والمثبت بالطين المضروب . وكان المنزل فى زقاق متعرج ينحدر نحو ذلك الجانب من السيف ، حيث كان صناع السفن يعملون ، وحيث كان صائدو اللؤلؤ يرسون سفنهم .. وكانت قذارة المدينة ونفايات الميناء تشكل بؤرة تحت حرارة الشمس الحافلة بأسراب الذباب .

لقد حشر آل سعود فى غرفهم الثلاثة ، وكانو يشكلون عائلة كبيرة . ولاشك أنه بعد الحياة فى قصورهم الواسعة في الرياض حيث الخدم والحشم ، وبعد الحياة العريضة مع بنى مرة فإن السكنى فى تلك المدينة كانت ذات تأثير كبير عليهم ، لاسيما وأنهم على حالة شديدة من الفقر . ذلك أن الشيخ لم يكن يدفع لهم المكافأة التى وعدهم بها إلا نادرا،ويرجع السبب فى ذلك إلى أن الحكومة التركية كانت نادرا ما تدفع له المبالغ التى وعدته بها ، وعلى الرغم من أن شيخ الكويت كان رجلا ودودا ، فقد كان متمسكا ، ولم تكن عنده دوافع للمساعدة العاجلة . واستمر هذا الأمر حتى جاء وقت توقفت فيه الإعانة بصورة نهائية لأن الأتراك قد عاودوا من جديد رغبتهم فى إرسال عبد الرحمن إلى الرياض مدعما بجنود أتراك ولكنه رفض هذا العرض ، وكان ذلك سببا فى صرف الأنظار عنه . ولما علم عبد الرحمن أخيرا أن مكافأته كانت تأتى من الأتراك غضب غضبا شديدا ، ولو كان لديه المال فى ذلك الوقت لرد جميع المبالغ التى استلمها إلى مصدرها ، ولكن عبد الرحمن لم يكن يملك شيئا وكانت

عائلته فى كثير من الأحيان تشكو من نقص فى الطعام والملابس مما جعله يتنازل عما درج عليه من عدم الاقتراض .

ولما بلغ ابن سعود الخامسة عشرة من عمره وجدت له أمه فتاة بدوية يتزوجها ، ولما حان وقت الزواج لم يستطع عبد الرحمن أن يدفع نفقات الاحتفالات ، لذلك فقد أجل العرس حتى قام أحد التجار الأغنياء بمواجهة النفقات .

هكذا كانت حياة عبد الرحمن شاقة ومليئة بالآلام ، وهى حياة المنفى الفارغة من أى محتوى ، حيث يشعر أنه غير مرغوب فيه،وبه حنين إلى بلده الرياض ذات الهواء النقى القادم مباشرة من الصحراء،كما به كره لرطوبة الخليج وحماه وبغض لطين الميناء ونتانته .

لقد كان فى المدينة كثير من الرجال أتوا من نجد ومن الرياض ، يعملون كتجار أو أصحاب حوانيت وكان الكثيرون يغدون أو يروحون مع القوافل . وكان بعضهم يعمل في أساطيل صيد اللؤلؤ عندما تبدأ موسمها من البحرين . وكان الرجال يحملون معهم أخبار الرياض ، إلا أنه لم يكن هنالك ثمة أمل في أخبارهم ، ذلك أن ابن الرشيد كان يقبض على البلاد بيد من حديد ، ولم يجرؤ أحد على النهوض في مواجهته .

وكان الأمر بالنسبة لابن سعود جد مختلف ، إذ كانت الكويت عنده حقلا جديدا للتجارب الكثيرة ، فقد كان جل ماعرفه في الماضى هو حياة الرياض القاسية أو حياة قبائل بنى مرة الوحشية فى الربع الخالى .

كانت الكويت فى حقيقة أمرها « مارسيليا » الخليج ، وكان سكانها ذوى طبع حسن . ولما كانت هى المنفذ الشمالى إلى الخليج وأيضا إلى الهند فقد كان يؤمها التجار من بومبى وطهران ، هنود وفارسيون وسوريون وحلبيون ودمشقيون وأرمن واتراك ويهود أتوا من كل بلاد الشرق ، وكان يأتيها أوروبيون فى بعض الاحيان ، وكانت القوافل تنطلق من الكويت إلى أواسط الجزيرة العربية وسوريا .

ولقد عاش ابن سعود في تلك المدينة حياته العادية كشاب عربى ، تنقل فى الميناء ، وسمع من البحارة ، وجلس في المقاهى وسمع أحاديث التجار والمسافرين وشيوخ الصحراء . وعلم من هناك أخبار بغداد ودمشق والقسطنطينية . وقد لعب الحجلة مع غيره من الشباب وتشاجر معهم أو سار في الأزقة وبين المحال التجارية ممسكا بأيدى أصحابه على طريقة الألفة المعروفة عند العرب ، وكان يشاغب في بعض الأحيان أصحاب المحال التجارية فيطردونه بعيدا عنهم ، ولكنه فى وقت الصلاة كان ينضم إلى والده في المسجد ، وكذلك شأنه في شهر رمضان حيث كان

يحافظ على صيامه في خبت ديني كبير . لقد كانت الكويت ملأى بالامور التى تمتلىء بها الموانىء ، وكان ابن سعود يمتلىء بالرجولة ، ولكن تنشئته الدينية وزواجه المبكر عصماه من الوقوع فى شراك الرذيلة . كان يبدو متين البنية بالنظر إلى سنه وقد عرف عنه الناس الذكاء والصراحة والتفتح الأخلاقى .





الفصل السابع

كان من بين الذين يزورون عبد الرحمن الشيخ مبارك شقيق الشيخ محمد حاكم الكويت ، وكان مبارك على علاقة تتسم بالتوتر مع شقيقه ، فحين كان الشيخ مبارك يافعا تشاجر الأخوان ودفع ذلك مبارك للسفر إلى بومبى حيث أنفق كل ماله هناك وقد اضطر في النهاية إلى بيع حلى والدته من أجل أن يدفع ديونه . وعاد أخيرا وهو معدم لايملك شيئا . وكان أخوه ما يزال يحمل عليه . ونظرا لان الشيخ محمد كان ممسكا فقد بغض أريحية مبارك وكرمه وكان يخشاه أيضا ، ذلك أن معظم الناس في المدينة كانوا يحبون مبارك . وهكذا جعل محمد أخاه في حاجة مستمرة للمال،ولم يترك فرصة لينال منه إلا واهتبلها .

وعلى الرغم من ظروف مبارك الخاصة ، فقد أحب ابن سعود حبا شديدا وظل يعامله كأنه واحد من ابنائه . وقد دعاه مرات كثيرة إلى منزله وتحدث إليه في أمور الحياة حيث تعلم منه ابن سعود كثيرا من الحكمة في سنين النفى الفارغة تلك .

وفجأة تغير كل شيء وذلك حين بلغ ابن سعود السابعة عشرة من عمره ، ذلك أن مبارك لم يعد يحتمل إذلال أخيه وإساءاته له ، ودفعه ذلك إلى أن يزحف هو وابن عمه وأحد رجال قبيلة عجمان إلى القصر حيث تمكن من قتل أخيه وإعلان نفسه حاكما على الكويت . ولما كان الناس قد ضاقوا بحاكمهم السابق وبضرائبه الباهظة التى لم يكن ينفق منها على المدينة شيئا فقد رحبوا بالحاكم الجديد .

ولم تكد تمضى أسابيع قليلة على وفاة الشيخ محمد حتى توفى أيضا الرشيد الذى بسط يده القوية وحكمه على المنطقة الواقعة من شمال حائل إلى الربع الخالى جنوب الرياض ، ولم يكن خلفه عبد العزيز بن الرشيد سوى مغامر لاهدف له غير السلب والنهب حتى أنه لم يمض كبير وقت إلا وقد ضاقت سائر القبائل به ذرعا .

وفجأة أصبح آل سعود ذوى مكانة خاصة لها أهميتها ، فقد كانوا أصدقاء مبارك وأعداء ابن الرشيد . وكان ذلك في وقت جاءت فيه الأخبار من الرياض بأن المدينة تقف على أهبة الاستعداد للنهوض ضد ابن الرشيد . ولم يقتصر الأمر على الرياض وحدها بل لقد كانت سائر القبائل في نجد على استعداد للقيام بدورها في مثل تلك الثورة .

وكان ابن سعود في ذلك الوقت يتحرق شوقا للسير إلى الرياض ، وقد استعار لذلك الغرض جملا وأقنع عددا من أصدقائه بأن يصطحبوه لغزو الرياض . واتضح أخيرا أن معظم الرسل الذين جاءوا من الرياض يحملون أنباء الثورة كانوا على درجة كبيرة من التفاؤل ، ذلك أن القبائل لم تهب للسير خلف ابن سعود ، كما أن مبارك لم يقدم شيئا في هذا الاتجاه لأنه لم يكن راغبا في إثارة المشاكل مع ابن الرشيد في ذلك الوقت . وقد كان جمل ابن سعود عجوزا ومريضا بالجرب . ولما أصابه العرج وقع في الطريق ، ولم يشأ أن يتحرك بعد ذلك ، ولكنه أجبر للنهوض والعودة في اتجاه الكويت . وقد أكمل ابن سعود عودته إليها حين قدمت له احدى القوافل المارة المساعدة بحمله على أحد الجمال ، وكانت المغامرة كلها مثار ضحك أهل الكويت وسخريتهم .

● ● ●

وبين عشية وضحاها أصبحت الكويت ذات أهمية عالمية ، إذ رأى قيصر ألمانيا أن بلاده قد ضاق بها السكان من الشباب ذوى الحيوية وقد أصبح السبيل أمام ألمانيا هو أحد خيارين ، إما التوسع وإما الانفجار . وكان التوسع في نظره هو الاتجاه شرقا نحو الهند ، ولكن الإنجليز كانوا قد سبقوا الألمان في سائر الطرقات المؤدية إلى الهند ما عدا هذا الطريق الذى يمر عبر تركيا والعالم العربى ، ومن ثم إلى الخليج العربى . وكان هذا هو السبب الذى جعل القيصر يعلن نفسه صديقا لخليفة الإسلام وحاميا للأمة العربية ثم أرسل جنوده نحو الشرق للخروج من الغرب . ولقد خطط القيصر كمرتكز لتوسعه شرقا أن ينشىء خطا حديديا يبدأ من القسطنطينية ، ويمر عبر حلب وبغداد وينتهى في الكويت بوابة الخليج العربى .

وكما هو معروف فقد ظل الإنجليز على مدى قرن من الزمان يضغطون الخليج من الهند من خلال توحيدهم للمشايخ المحليين بغية سيطرتهم الكاملة على الساحل . وهكذا في عام ١٨٩٧ وهو العام الذى تولى فيه الشيخ مبارك الحكم ، فقد جاءت القوتان الكبريان في العالم وجها لوجه على بوابة الكويت ، ذلك أن الإنجليز كانوا مصممين على ألا يكون للألمان موضع قدم في ذلك الطريق .

لقد استمع مبارك لكلا الألمان والإنجليز ، وذلك عن طريق القناصل والممثلين لكل من ألمانيا وإنجلترا ، بالإضافة إلى ممثل روسيا التى كانت أيضا تطمع في موضع قدم لها على الخليج العربى . وكانت أحاديث مبارك تتم في سرية يدرس فيها كل العروض .

كان مبارك ذكيا وقد غيره الموقع والسلطة ، فقد توقف أن يكون ذلك الشاب المتوحش والمغامر والمسرف ، ولكنه ظل كريما كما هو عهده غير أنه بالرغم من ذلك ، فقد أصبح حريصا ، يحسب لكل أمر حسابه ، ويعرف متى يستغل الظروف لصالحه بالإضافة إلى أنه كان دبلوماسيا مراوغا وحاكما قويا يعرف ما يريده على وجه التحديد . وقد كان من الناحية الاسمية من رعايا سلطان تركيا ، ولكنه ظل في نفس الوقت مصمما على أن يحتفظ بالكويت مستقلة عن أى نفوذ أجنبى . كان يرى الإنجليز في موقف الدفاع كحاله ، ولم يخرجوا من بلادهم ليفتحوا بلادا جديدة . ويختلف الوضع مع الألمان لأنهم إذا استطاعوا أن يحققوا مشروع الخط الحديدى ، فمعنى ذلك نهاية الكويت ، ولعب لأجل ذلك كى يكسب الوقت . فلم يكن يعطى أحداً شيئا وكان يؤجل كل شيء من خلال الوعود الفارغة حتى شعر الألمان بالملل منه . ونظرا لأنهم كانوا مهتمين بمشروع الخط الحديدى فقد أوعزوا إلى الاتراك بالتخلص منه،واعتمدوا في ذلك على أنه من رعاياهم وأنه استولى على الحكم بالقوة ، وأنهم لم يعترفوا به أبدا ، وفى كل ذلك تبرير كامل لإحلال شخص آخر مكانه يمكن أن يخدم أغراضهم .

وجاءت مثل هذه الأقاويل إلى مبارك الذى لم يضيع وقتا في الاتفاق مع الإنجليز ، ولما بدأ الأتراك بالتحرش به وجدوا الإنجليز يقفون خلفه . وهكذا باءت خططهم بالفشل . ولما رأى الأتراك أن مبارك قد بزهم بالحنكة جربوا طريقا آخر وهو تحريض ابن الرشيد للهجوم عليه . فقد أدخلوا فى روع ابن الرشيد أن كل من يحكم أواسط الجزيرة فإن عليه أن يحكم الكويت . ووعد الأتراك ابن الرشيد بإمداده بالسلاح والمال فى مقابل أن يوافق على مشروع الخط الحديدى ، وزادوا فى تحريضه بأن أفهموه أن مبارك يحتفظ عنده بكثير من معارضيه وفى مقدمتهم آل سعود ، وأقنعوه كذلك بأن الإنجليز لايمكن لهم أن يتدخلوا فى نزاع بين طرفين من رعايا الأتراك . ولم يكن ابن الرشيد بحاجة إلى مزيد من التحريض إذ كان دائما على استعداد للقتال وهكذا فقد وافق أن يقوم بدوره في هذه المؤامرة وبدأ التحضير لها .





الفصل الثامن

لقد شعر مبارك بالخطر ولم يكن له جيش ، إذ لم يكن أهل الكويت من الذين يميلون إلى الحرب . وحتى أسوار المدينة فقد تركوها تتداعى دون صيانة . وبدأ مبارك التفكير في حلفاء يساعدونه على مواجهة ابن الرشيد ، وذهبت رسله عبر الصحراء حيث وجد كثيرا من القبائل ناقمة على ابن الرشيد . وعلى الفور انضم إليه « بنو مرة » والعجمان والمطير ثم بعد ذلك سعدون شيخ المنتفق الذى كان يسكن على حدود البصرة . وقد رأى مبارك فى ذلك الوقت أن عبد الرحمن وابن سعود يمكن أن يكونا من حلفائه المهمين إذ بإمكانهم إثارة أهل نجد كلها حين يحين الوقت ، ولذلك لم يستبعدهم من خططه ومؤتمراته التى عقدها لهذا الغرض .

ومهما يكن من أمر ، فلم يكن عبد الرحمن متوافقا مع مبارك ، فقد كان عبد الرحمن يعتبره بالمعايير الوهابية متساهلا فى كثير من الأمور لأنه يتبنى كثيرا من العادات والسلوك الأجنبى . فقد كان يلبس الملابس المصنوعة من الحرير ، واحتفظ لنفسه بإقطاعات كبيرة ، وكان يركب فى الأسواق عربة تجرها خيول سوداء متوقعا من كل الناس أن ينحنوا ويسلموا عليه وإلا تعرضوا للضرب من حراسه . وكان قصره يعج بالأثاث الفاخر والمساند المطرزة بالقصب والنوافذ الملونة . وكان حين يستقبل ضيوفه أو يعقد مؤتمراته يجلس على كرسى وثير حتى لكأنه ملك أوروبى .

وكانت جميع هذه الأشياء من الأشياء البغيضة لعبد الرحمن . ولم يكن عبد الرحمن يذهب إلى القصر ، كما لم يقر زيارات ابن سعود إليه ، لذلك فقد كان ابن سعود يذهب اليه في السر ودون إخطار والده . وعلى الرغم من ذلك فقد كان مبارك يحب ابن سعود حبا عظيما،وكان يشجعه على زيارته إذ كان يصطحبه معه فى أعماله وفي مجالسه ومؤتمراته وكان ابن سعود يرى في ذلك فائدة كبيرة له .

ولم يكن ابن سعود قد فعل شيئا إضافيا في مجال تعلم القراءة والكتابة والتتلمذ منذ أن ترك الرياض ، ولكنه من خلال صحبته للشيخ مبارك ، فقد أصبح محاطا بأفكار جديدة وبأناس جدد وعادات جديدة وطرائق للتفكير مختلفة . وكانت معظم هذه الأشياء محرمة أو ممنوعة في الرياض . لقد استطاع ابن سعود فى الكويت أن يقابل

الاجانب من كل نوع ، التجار والمسافرين وممثلى الدول الأجنبية مثل فرنسا وإنجلترا وروسيا وألمانيا ، ورأى كيف كان مبارك يتعامل مع جميع هؤلاء وكيف أن مشاكل العالم الخارجى كانت تؤثر فيه . وأكثر من ذلك فقد علمه مبارك أشياء كثيرة في فن الحكم .

لم يكن حكم الكويت بالشيء السهل ، ذلك أن سكان الكويت قد أتوا إليها من جميع أصقاع الجزيرة العربية . وكما هو معروف فإن الذين يتابعون القوافل لايتقيدون بالقانون . وكان صيادو اللؤلؤ هم أكثر سكان الجزيرة خروجا على القانون . وقد اتسم التجار من كل الجنسيات بالخداع والمشاجرة إذا وجدوا الطريق إلى ذلك ميسرا . ولكن مبارك كان يأخذهم جميعاً بالحزم . إذ كان عنيفا ودكتاتورا ، وكان موكبه موجها لاظهار هيبته بين رعيته ، ولكنه كان في نفس الوقت عادلا ، وكانت عدالته ناجزة ، والجميع في نظرة سواسية . وكانت الكويت تحت حكمه في أمان شامل ، وذلك ماجعل المدينة تزدهر ازدهارا عظيما في عهده .

لقد تعلم ابن سعود من كل ذلك وفى سرعة فائقة ، فقد كان ذكيا وله قدرة على الحكم تفوق سنه ، وكان فى معظم الاحوال ذا مزاج معتدل ، إلا أنه فى بعض الأحيان كان يلتزم الصمت وتبدو عليه الكآبة ، وفى أحيان أخرى ينفجر في ثورات غاضبة . وإذا اختلى إلى رفقائه من سنه تفاخر عليهم بأنه كان الوريث الشرعى للرياض وإقليم نجد . ثم أخطرهم بأنه سوف يقوم في يوم من الأيام بطرد ابن الرشيد وإجبار القبائل وسكان القرى على قبوله حتى يستطيع أن يستعيد ويحكم من جديد أمبراطورية سعود الكبير . وكان رفقاؤه يضحكون ويسخرون منه ، بل ويذكرونه بمحاولته السابقة وجمله الأجرب الذى ظلع قبل أن يتم الرحلة . وكان ابن سعود يغضب لذلك . إلا أنه فى مجالس مبارك كان دائما يتسم بالهدوء والمحافظة ، إذ كان يجلس في المجالس والمؤتمرات في أحد الأركان مخلفا رجليه تحت جسمه وضاما عباءته على جسده ومتشاغلا بمسبحته . ويظل في نفس الوقت مراقبا وحذرا ومستوعبا كل ما يجرى ومستفيدا فى كل الأحوال .





الفصل التاسع

لقد قرر مبارك أن يضرب قبل أن يستعد له ابن الرشيد ، وهكذا دعا حلفاءه كى يقوموا بالتزاماتهم ، وقد جاء كثير من المتطوعين من نجد . وعندما تجمع له حوالى ١٠,٠٠٠ مقاتل بدأ تحركه . وفي الوقت الذى أصطحب فيه عبد الرحمن ، فقد أرسل ابن سعود جنوبا مع قوة صغيرة لكى يستثير القبائل ثم يقوم بانحناءة يضرب بها الرياض . ولقد اصطحب ابن سعود معه ابن عمه جلوى وعددا من النجديين الذين كانوا في المدينة ، وأخيرا وبعد انتظار السنين ، بدأت القبائل تهب ضد حكم ابن الرشيد . وكان هدفهم الأساسى هو تدمير العدو القديم . ولقد وجد ابن سعود في ذلك فرصة كى يثبت للذين كانوا يضحكون منه في الماضى أنه لم يكن مجرد متفاخر بهذا الأمر العظيم إذ ها هو فى آخر الامر قد بدأ التحرك يقود الرجال من أجل مهمات القتال .

لقد توغل ابن سعود عميقا في داخل الصحراء ، وكان يتحرك بسرعة فائقة مستثيرا القرى والقبائل فى نجد ، فهبوا سراعا إلى مساندته ، ذلك أنهم سئموا حكم ابن الرشيد ، وقد غمرهم السرور وهم يرون سعودياً من جديد يقود الرجال ، فتدافعوا من أجل تعضيده حتى إذا وصل الرجال كانت قد تجمعت له قوة كبيرة .

وفجأة جاءت الأخبار من الشمال ، إذ وجد مبارك ابن الرشيد قبالة قرية الصريف فهاجمه ؟ ولكن حلفاءه قد خذلوه إذ هربت قبائل المنتفق ، أما العجمان فقد خذلوه وتركوه يواجه قدره . ويمكن القول بأن مبارك قد هزم ، ولم ينج جيشه من الفناء سوى عاصفة ممطرة . وهكذا انسحب مبارك مرة أخرى إلى الكويت . ولقد كان وقع الأخبار سيئا على ابن سعود حيث تفرقت قوته من حوله وعادت القبائل وأهل القرى أدراجهم وهم فزعون ، إذ كانوا يخشون انتقام ابن الرشيد . وتمكن ابن سعود أخيرا مع حفنة من الرجال من العودة إلى الكويت ليجد والده ومبارك يعدان للمقاومة . وقد سار خلفهم ابن الرشيد الذى أحرق في طريقه قرى نجد تأديبا لأهلها . وقد شنق فى مدينة « بريدة » وحدها ١٨٠ رجلا وفرض عليها غرامات مالية باهظة . ولما أخضع سائر المناطق توجه إلى الكويت حيث هزم فلول جيش مبارك في الجهراء ، وهى قرية خارج المدينة واستعد بعد ذلك لمهاجمة المدينة ذاتها .

وبدا الوضع كأنه نهاية مبارك ، إذ لم تكن لديه قوات يستخدمها فى الدفاع عن المدينة ، فقد تفرق حلفاؤه ولم يعد هنالك أمل عند آل سعود ، ولم يكونوا يتوقعون أن يعاملوا برحمة في وقت أصبحت فيه المدينة قاب قوسين من تسليمها للعدو . ولكن عبد الرحمن مرة أخرى قرر الإفلات قبل أن تلحقه قوات ابن الرشيد . وفي تلك اللحظة تدخل الإنجليز لحماية حليفهم مبارك بأن أنذروا ابن الرشيد وأرسلوا سفينة حربية للتأكيد على جدية مقصدهم . وهكذا توقف ابن الرشيد عن الهجوم وقرر الرجوع ، ومرة أخرى تمكن الإنجليزمن إنقاذ مبارك وقفل هذا الباب أمام الألمان وحلفائهم الأتراك .





الفصل العاشر

لقد تمكن ابن الرشيد من هزيمتهم ولكن ابن سعود رفض أن يقبل الهزيمة ، فقد أصبح رجلا يبلغ من السن العشرين يتميز بخشونته وتتأجج روحه نارا ورغبة فى القتال ، كان رجلا عملاقا ، يزيد طوله بمقدار زراع عن العربى العادى ، عريض البنية ويتميز بقوة عظيمة . كانت عيناه بنيتين تدلان على جديته ، وكان يبتسم فى بعض الأحيان ، ولكن إذا غضب فإن الشرر يتطاير منهما . لقد ثارت ثورته حين علم أن ابن الرشيد قتل رجاله في القرى المحيطة بالرياض ، وقد لام مبارك على عدم قدرته على إدارة شئون الجيش ، وعلى الرغم من ذلك فقد حث مبارك من جديد لمواصلة القتال . ولما فشل ، بدأ يبحث لنفسه عن مناصرين بين شيوخ القبائل المجاورة . إلا أن أحدا لم يكن يريد أن يقف ليواجه ابن الرشيد . وقد حاول عبد الرحمن أن يثنى ابنه عن محاولاته حتى يحين الوقت المناسب ، ولكن ابن سعود رفض الاستماع لذلك إذ كان يتحرق للنهوض وفعل شيء ما . كان يحس أنه قد أخذ كفايته من البقاء دون عمل . لقد انتظر على مدى ست سنوات في الكويت اقتاتت فيها من قلبه ، ولم يكن يسمع فيها سوى الأحاديث اليائسة من المتعصبين ولم تكن تلك فى نظره حياة صالحة لرجل . إذ تلك فى نظره هى الحياة الصالحة لأصحاب الحوانيت والموظفين .ولم تكن صالحة لابن سعود . كان ابن سعود يريد المواجهة فى ساحات الوغى ، وهو على ظهر جمل أو حصان فى قلب الصحراء ، فقد كانت الصحراء فى نظره ذات فرص عظيمة ولاشك أنه سينتصر بعون الله . كان ابن سعود واثقا من نفسه ومن رجال نجد . وكان متأكدا أنه إذا أعطاهم قيادته فإنهم سينهضون معه لاقتلاع ابن الرشيد من سلطته . وكل ما كان يريده هو الجمال والمال والسلاح وهى الأمور التى كان يفتقر إليها .

لقد ظل أسبوعا وراء أسبوع وهو يحث مبارك على مساعدته ، وقد اتصل بالممثل الإنجليزى في المدينة لهذا الغرض ، ولكنه لم يجد استجابة لمطلبه . وأخيرا قرر مبارك أن يستجيب له ، إذ كانت تلك فرصة يغزو فيها ابن الرشيد وتمكنه فى نفس الوقت أن يتنكر من فعلته إذا دعا الأمر . وهكذا قدم مبارك لابن سعود ثلاثين جملا ، كان بعضها مصابا بالجرب بالاضافة إلى ثلاثين بندقية وذخيرة ومئتى ريال من الذهب ثم تركه يسير إلى غايته .

ولم يضع ابن سعود وقتا ، فقد كان يسكن منذ زواجه فى بيت مستقل ، وكانت زوجته البدوية الأولى قد ماتت بعد ستة شهور من زواجه . وقد تزوج امرأتين من بعدها أنجب من الأولى ابنا أسماه « تركيا » ، وعند خروجه رتب مع والده أن تبقى أسرته في حمايته . ولقد وجد ابن سعود فى سرعة فائقة ثلاثين من أصدقائه كانوا يتحرقون مثله للسير ومستعدين لأن يقودهم ابن سعود .. ولقد انضم اليه ابن عمه جلوى وأخوه محمد ، فما كان من ابن سعود إلا أن وزع البنادق والذخيرة على أصحابه ثم ذهب إلى منزله بالقرب من الميناء وودع أهله . وحاولت أمه أن تثنيه عن السير وطلبت منه والدموع في عينيها أن يتريث قليلا إذ كانت على اعتقاد جازم انه كان يسير إلى حتفه أو على الأقل إلى فشل ذريع . إلا أن أخته « نوره » قد حفزته على السير إذ كانت لا تقل طموحا عنه ، ولما رأى عبد الرحمن تصميم ولده بارك سيره وتمنى له النجاح .

لقد بدأ ابن سعود التحرك فى نهاية الصيف ، فقد استيقظ ذات ليل حار،وقبل بزوغ القمر تسلل مع رفقائه دون أن يخبر أحدا عبر شوارع مدينة الكويت المتعرجة وذلك قبل الدخول فى ميدان السوق الذى يقود إلى مضارب البدو ومن ثم في الصحراء إلى حيث تحدد مكان اللقاء ، وهو المكان الذى كانت تنتظرهم فيه الجمال والرجال . وقد أعطى ابن سعود كل مقاتل جملا ، ثم أنهض الجمال وتوجه الجميع فى ظلام الليل نحو الصحراء الواسعة .





الفصل الحادى عشر

لقد حقق ابن سعود فى أول الأمر شيئا من النجاح ، إذ تعلم من بنى مرة كيف يتحرك بسرعة ، ولم يكن رجاله يحملون سوى جراب غائر فيه بطانية تحت السرج بالإضافة إلى البندقية والذخيرة وقليل من التمر واللبن المجفف ، وهو طعام أسبوع كامل .. وقد عرف ابن سعود كيف يغطى على آثار جماله ، وكيف يعسكر بحيث لا يبدو رجاله لمن كان واقفا على الأفق ، فقد اتخذ معسكره فى منخفض حيث كان الرجال يجلسون على شكل دائرة والجمال فى وسط الدائرة ، وخارج الدائرة يجلس الرقباء ، كل مع جمله وسلاحه يتحسبون أى خطر يقترب منهم .

لقد كان سير ابن سعود عبر التلال الرملية التى لا يمكن مطاردته فيها ، فإذا اندفع نحو قافلة أو قرية اندفع رجاله معه وهم يطلقون صرخات المعركة ، فإذا أتى مساء اليوم التالي كانوا على بعد خمسين ميلاً يكررون هجومهم من جديد ، ولم يكن ثمة شيء يتعب ابن سعود ، فبينما كان الآخرون ينامون من شدة التعب كان هو الوحيد الذي يظل مستيقظا يستكشف الصحراء ، حتى يأخذ رفقاؤه قسطهم من الراحة . وكان ينام قليلا ، ونومه مجرد ضجعة تستمر لمدة ساعة أو ساعتين فى الرمال الدافئة يقوم بعدها لمواصلة السير .. كان ابن سعود محباً للقتال ، ولا سيما الاشتباك المباشر مع العدو ، وكان يهجم كالأسد فى الجمع الذين يفوقهم طولاً ويعمل سيفه فيهم فيفرق شملهم بقوته الخارقة . ولم يكن ثمة رجل يجرؤ على مصاولة ابن سعود بقوته الخاصة أو بشجاعته .

وعند نزوله فى الأحساء قام بمهاجمة معسكر للعجمان ثم آخر لابن الرشيد ، وقد بدأت أنباء نجاحاته تتردد فى الصحراء وكان الناس يتحدثون عن ذهبه وسخائه ، فتدافع نحوه البدوان ينضمون إليه فى الوقت الذي كان يغزو فيه حلفاء ابن الرشيد فى أواسط الجزيرة ، ولكن ابن سعود لم يقم بغزواته تلك من أجل السلب أو الرغبة فى القتال المحض ، إذ لم يكن ابن سعود قاطع طريق وإنما كان رجلاً ذا هدف . كان ابن سعود يعرف أن البدو قليلو النفع له ولم يجيء هو ليستثيرهم ، وإنما جاء ليستثير أهل نجد والرياض لكى يقوموا ضد ابن الرشيد ، ولكنهم لم يفعلوا ، لقد نهضوا معه حين جاء إليهم فى السنة الماضية ، وشعروا أن ذلك كان خطأ عانوا منه كثيرا لذلك كان واجبا عليه أن يثبت جدارته قبل أن يقنع الناس بالنهوض معه

مرة أخرى .

جاء بعد ذلك زمن رخو ، فشلت فيه غزوات ابن سعود وضاع ماله ، وأصيبت جماله بالارهاق والهزال وقلت ذخيرته ، ولما شعر البدو أنه لم يعد يمتلك ذهباً ولا يستطيع الغزو هجروه ، وانتهز ابن الرشيد الفرصة فأرسل رجاله لتعقبه ، فارتد ابن سعود إلى الاحساء حيث طارده العجمان والأتراك الذين أوعزوا إلى مبارك بأن يستدعيه مرة أخرى إلى الكويت ، ولما رأى ابن سعود أن جميع الأبواب قد أوصدت أمامه اتجه جنوبا إلى الربع الخالي .. وقد وجده هناك رسول من ابيه ومبارك وقد كتبا إليه : « نحن قلقون عليك وننصحك بالعودة إلى الكويت لأن الزمن لم يحن للعمل » .

وجمع ابن سعود رجاله فى غابة نخيل « يابرين » ووضع الحقائق أمامهم ، وكان هو بصفة شخصية مصمماً على مواصلة مهمته ، ولم يكن ثمة شيء يثنيه عن غايته حتى لو استدعى الأمر أن يحارب بمفرده ، فقد كان يرى أنه بمشيئة الله سوف يجرب حظه فى الصحراء ، وقد ترك الخيار لأولئك الذين يفكرون فى الرجوع ، وبالفعل تركه بعضهم عند ذاك وبقي معه رجل صموت قليل الكلام ، وجلوي كثير التشكي وأخوه محمد بالإضافة إلى الثلاثين الأصليين الذين بدأوا معه من الكويت وعشرة رجال جدد انضموا إليه من الرياض ، وكان عدد الجميع بما فيهم الخدم خمسين رجلا ، وقد ربطهم ابن سعود بالقسم أن يقفوا معه حتى نهاية المشوار..

وكان موقف ابن سعود حذراً ، إذ كان قد بدأ تحدوه كثير من الآمال ، وكان يعتقد أنه بمجرد أن يظهر نفسه للناس سوف ينهض رجال نجد معه ضد ابن الرشيد ، وبالتالي سوف يجد نفسه على رأس جيش عظيم ، ولكنه فى مرحلته هذه لم يصبح أكثر من خارج على القانون يتابعه الجواسيس ويرصدون تحركاته ، وكانت العيون مبثوثة في كل مكان تحدد وجهته ، وقد اعتبر طريدا لسائر القبائل حتى أصبحت كل بد في الصحراء ضده ، ذلك أن الفشل في الصحراء معناه العداء لكل رجل من جالها ، ولكن ابن سعود لم يفقد الأمل ، فقد كان من أقوى الرجال عندما تسير لأمور فى غير صالحه . اما إيمانه في نفسه فقد كان من الأمور التي لا تحدها عدود .

قال ابن سعود لرسول والده ومبارك : « ارجع وقل لأبى ما سمعت ورأيت ، ل له لن يهدأ لي بال أو صبر وأنا أرى بلادى تحت حكم ابن الرشيد ، أو أرى أسرتي سحوقة في التراب ، سوف أغامر بحياتي من أجل احراز النجاح ولن أرجع حتى كتب الله لي النجاح ، وخير لي أن أموت من أن أقر بالفشل وكل شيء في آخر لأمر بمشيئة الله سبحانه وتعالى » .



الفصل الثاني عشر

بدأ ابن سعود يدرس بعناية فائقة خطواته التالية ، فقد رأى أن أسلوبه فى الاغارة عديم الجدوى ، ولا يؤدي الغرض المطلوب ، لاسيما وهو لايقود سوى حفنة من الرجال لا يستطيعون أن يحققوا هدفاً أكيداً ، وقد بزغ الأمل عنده في أن يحقق انقلابا دراميا يذهل الجميع ، إذ قرر أن يتجه إلى الرياض ذاتها ، وقد أرسل لهذا الغرض أحد رجاله للقيام بمهمة التجسس ، وعاد الرجل وأخبره أن هنالك حامية قوية لابن الرشيد في المدينة تسيطر على قلعة « المصمك » والمناطق الحساسة الأخرى ، وأما حاكم الرياض فهو أحد شيوخ شمر ، ويدعى عجلان ، ويسكن في منزل مقابل للقلعة . وأخطر الرجل ابن سعود أن جميع سكان الرياض وأهل نجد يشعرون بعدم الرضا ، وينقمون على ابن الرشيد ويتمنون عودة آل سعود إلى الحكم من جديد ، ولكنهم لن يثوروا بأنفسهم على حكم ابن الرشيد وما يحتاجونه هو القائد الذى يحقق لهم هذا الهدف .

وعلم ابن سعود انه لايستطيع بحفنة من الرجال أن يهاجم بصورة واضحة ، لذلك فقد قرر أن يكون هجومه نوعا من المفاجأة ، وكانت أول خطوة هي أن يحتفظ بنواياه سراً ، ويتبع ذلك بالاختفاء ، وأن يشيع بين الناس أن رجاله هجروه وأنهم جميعاً قد توجهوا إلى الربع الخالي .

وظل ابن سعود على مدى خمسين يوماً لايقوم بأية اغارة ، ولم يظهر للعيان ، وكانت تلك أياماً عصيبة ، فقد كان رجاله كسائر رجال الصحراء يمكن إبعادهم عن أهدافهم ، ذلك أن رجال الصحراء يحفزهم النجاح بينما يقعد بهم الفشل ، فهم لا يستطيعون أن يبقوا طويلا بدون حركة أو عمل .. ولم يكن أمام أولئك الرجال شيء سوى شخصية ابن سعود لتحافظ على تماسكهم ، لقد عاشوا من قبل حياة ضنكة ، ولكن الاثارة والاغارة ، قد دفعت فيهم الحماس ، وهاهم الآن يجدون أنفسهم من جديد يعانون من الضنك ويعتمدون فى طعامهم على تمرات قلائل ، ومن وقت لآخر يأكلون اللحم حين يصيدون غزالاً أو نحو ذلك .. وكانوا يحصلون على مياههم القليلة من آبار الصحراء النادرة ، وكانوا يزحفون حتى لاتقع أعين الناس عليهم ، وذلك من أجل ازاحة أغطية الآبار لملء أجربتهم الجلدية ويتبعون ذلك بتغطية آثار أرجلهم وكانوا يقننون الماء بينهم تقنيناً دقيقا ، بحيث تصبح المياه في النهاية لزجة

ومتعطنة ، وكانوا يقفون في أي مكان يجدون فيه مرعى لابلهم ، وينامون في العراء ، إلا أنهم فى معظم أوقاتهم يسيرون على أطراف أصابعهم يستكشفون ويتأكدون من أنهم لم يرصدوا ، حتى لاتنقل أخبارهم بسرعة بواسطة القبائل وفي كل يوم يمر دون أن يفعل الرجال شيئا يشعرون بالقلق وعدم الراحة ثم يتجادلون مظهرين امتعاضهم ، فقد كان مطلبهم أما العمل وأما العودة إلى نسائهم إذ لم يكن للحياة معنى وهم محرومون من القتال ومن أهلهم ، ولكن ابن سعود لم يدعهم يذهبون إلى أهاليهم حتى ولو إلى يوم أو يومين خشية أن يتكلموا أو يقرروا عدم العودة من جديد .

لقد ناضل ابن سعود معهم واستخدم كل مهاراته فى الاقناع من أجل أن يحافظ على رجاله جنبا إلى جنب .. فقد كان ابن سعود يتميز بصفات نادرة بين العرب وهى قدرته الفائقة واصراره الملح على المناورة ، إذ لم يكن هناك شيئا يثنيه عن غرضه الذى توجه إليه . ولكن الضغط كان قوياً خاصة حين أبتدأ شهر الصيام ، فقد كان ابن سعود وجلوى وكثير من الرجال يحافظون بدقة على القيام بفرض الصيام لايأكلون ولا يشربون قبل غروب الشمس .

وفى اليوم العشرين من شهر رمضان وبعد صلاة المغرب .. تناولوا كسرات خبز يابسة ، وعندها أصدر ابن سعود أوامره بالتحرك . وهكذا بدأ السير بحذر ، يسيرون فى الليل ويخفون آثارهم ، بينما يبقون ساكنين فى النهار .. وكان القمر في الربع الأخير ، والليالي حالكة السواد ، وذلك ما جعلهم يرسلون العيون أمامهم حتى لايجدوا أنفسهم متورطين فى أحد مضارب البدو ، أو بين الرعاة الضالين ، لقد اضطروا للسير ببطء شديد وذلك بسبب ضعف جمالهم وإصابتها بالجرب . ومر عليهم العيد وهم فى آبار « أبي حيقان »ومن ثم وصلوا إلى أول جبال « طويق » التى تجرى عبر مدينة الرياض ، وفى تلك اللحظة أصدر ابن سعود أوامره بأن يكون التحرك سريعاً ، إذ كانت هناك بعض القرى في المنخفض ويمكن أن يتعرضوا فيها للرؤية ، وكان ابن سعود يريد أن يكون وصولهم للرياض قبل أى انذار يمكن أن يسبقهم إلى ذلك ، وهكذا أجبروا جمالهم على الاسراع وفى غابة « ضل الشعيب » . التى تقع على مسيرة ساعة ونصف من الرياض ترك ابن سعود بهائمه مع عشرين رجلاً وقد أمرهم بأن يلحقوا به فقط إذا أرسل اليهم ، وإذا لم يسمعوا منه خلال أربع وعشرين ساعة فإن عليهم أن يسلكوا الطريق عائدين إلى الكويت وأن يخطروا والده بأنه إما قتل وأما وقع سجيناً عند ابن الرشيد وسار ابن سعود بأقدامه عبر غابة النخيل التى تمتد إلى بضعة أميال جنوب المدينة وقد أصطحب معه أربعين رجلاً لم تكن عنده خطة واضحة للعمل ولم يكن له أعوان فى داخل المدينة بل كان اعتماده على

الله أن يدبر أمره ، وكان هدفه أن يقتنص أية فرصة تحين له ويتصرف من خلالها حسبما يقتضيه الموقف ، لقد توقف ابن سعود في « الشمسية » حيث تنتهي أشجار النخيل وتبدأ البساتين ، وقام عند ذلك بقطع أحدى شجرات النخيل التى صنع سلماً من لحائها الخشن ، وأتبع ذلك بأن اختار جلوى وستة من الرجال الآخرين ليصطحبوه بينما ترك بقية الرجال تحت أمرة أخيه محمد ، وأصدر إليهم الأوامر بأن يكونوا على اتصال مع الجماعة التى تنتظر وراءهم على أن ينتظروا أية أوامر تأتيهم منه .

وقال لهم « انظروا إذا لم تأتكم أية أوامر منى مع الغد فأسرعوا عائدين وأعلموا أننا قتلنا ولا حول ولا قوة إلا بالله » .





الفصل الثالث عشر

استطاع ابن سعود بصحبة ستة رجال معه يحملون السلم الذى صنعه من لحاء النخيل بالاضافة إلى ابن عمه جلوي أن يزحف عبر البساتين والطرقات المتعرجة وحيطان الطين وقناة الري متصنتاً الاستماع إلى صوت حارس أو كلب حتى ينذر أصحابه ، واستمر بهم الأمر كذلك حتى اقترب من سور المدينة بالقرب من موضع المقبرة الكبيرة ، حيث يجري الطريق إلى مكة . وعندها جلسوا بالقرب من الخندق الذى خفت مياهه يترصدون السمع ، وقد جاءتهم من بعيد أصوات الحراس في القلعة ، إذ ظل أحد الحراس يصرخ فى دورات متتالية يعود بعدها الصمت ، وقد حمدوا الله على أن أحداً لم يرهم .. وعلى أثر ذلك وضعوا السلم على الحائط ثم صعدوا واحداً أثر الآخر ونزلوا إلى الشارع من الناحية التالية .. وكان التاريخ منتصف شهر يناير ، وهواء الليل فى عنفوانه ، والناس جميعهم فى داخل منازلهم . ونظراً لأن رجال ابن سعود كانوا يضعون أسلحتهم في داخل ملابسهم حتى لاتحدث ضجة ، فقد اتخذوا طريقهم فى الشوارع الفارغة ببندقية واحدة إلى منزل « جويسر » راعي البقر الذى كان يسكن بالقرب من منزل الحاكم .

لقد نقر ابن سعود على الباب فصاحت امرأة من الداخل تسأل من الطارق !!

قال ابن سعود انا رسول الحاكم جئت أرى « جويسر » من أجل شراء بقرتين .

وصاحت المرأة فيه ، إذهب بعيداً ، هل تعتقد أن هذا بيت هوى .. ليس هذا الوقت مناسباً للقرع على الباب في بيت فيه نساء .

عندئذ قال ابن سعود : إذا لم تفتحى الباب فسوف أخبر الحاكم وسوف يعانى « جويسر » فى اليوم التالى .

وقف ابن سعود بعد ذلك جانباً وانتظر ، وكان رجاله على أهبة الاستعداد .. وبعد قليل أطل رجل وهو ينظر إلى الخارج على ضوء الغرفة التى خلفه ، فأمسك به رجلان حتى لايتمكن من الصراخ ، واندفع جميعهم إلى الداخل وأغلقوا الباب .. وكان الرجل خادماً عجوزاً فى القصر .. وصاح الرجل بمجرد أن رأى ابن سعود ، أنه سيدنا ، وعلى الفور اجتمع أفراد العائلة ليقدموا فروض الاحترام لابن سعود الذى استطاع أن يجمع المعلومات التي يريد ، فقد أخبره الرجل أن القلعة ملأى بجنود

ابن الرشيد ، ولم يحترز الجماعة من شيء إذ لم يكونوا يتوقعون هجوماً . وكانت العادة هى أن يذهب الحاكم إلى القلعة للنوم وتحضر خيوله بعد الفجر لتفتيشها ويذهب حينئذ في جولة على صهوة أحد الخيول أو يذهب إلى منزله ، ولم يكن الحاكم يتحرك دون حرس حوله ، وأما منزله فقد كان على بعد منزلين ولا يحرسه أحد .

لقد تسلل ابن سعود وأصحابه إلى سقوف المنازل المسطحة ورأى في المنزل المجاور رجلاً ينام بجانب زوجته ، فما كان منه الا أن ربطهما بملابس النوم . وكان منزل الحاكم يلي منزلهما ويتصل به ، ولكنه كان يرتفع بمقدار طابق فوق المنزل المجاور .. وحتى يتمكنوا من الصعود إليه فقد كان عليهم أن يركبوا على أكتاف بعضهم بعضاً ، وعندما أتموا ذلك استلقوا فوق السطح .. يتصيدون السمع ، ولم يكن هنالك ما يخشونه ، إذ لم يسمعوا صوتاً أو حركة . وهكذا تمكنوا بعد ذلك من السّير حفاة إلى داخل المنزل حيث وجدوا الخدم فى الدهليز فأخذوهم جميعاً ووضعوهم في أحدى الغرف تحت حراسة أحد الرجال . ووجدوا غرفة الحاكم فى الطابق التالي ، ووضع ابن سعود طلقة فى بندقيته وترك الرجال عند الباب ثم انسرب هو وجلوي يحملان شمعة غطاها ابن سعود بيده نحو السرير الذى عند الحائط البعيد وكان فيه اثنان ، هما زوج الحاكم وأختها،وفجأة نهضت الزوجة فى هلع ، فما كان من ابن سعود الا ان كمم فاها بيده بينما عالج بن جلوي أمر أختها .. وكانت زوجة الحاكم امرأة من الرياض تسمى « متطلبة » كان والدها يعمل فى قصر عبد الرحمن ، لذلك قد تعرف ابن سعود عليها .

وقال ابن سعود عندئذ : كوني هادئة يا متطلبة والا قتلتك ، وها أنا أرى أنك ارتكبت فسقاً حين تزوجت هذا الخنزير .

وقالت المرأة حين أطلق سراحها : ياسيدي لست امرأة فاسقة وانما تزوجت بعد أن تركتمونا ، ولماذا أنت هنا الآن قال : جئت لأقتل عجلان .

قالت : عجلان فى القلعة ،ومعه على الأقل ثمانون رجلا ، والأجدى لك أن تهرب قبل أن يجدك ويقتلك .

قال ابن سعود : ومتى يعود عجلان إلى المنزل ؟ .

قالت لن يكون ذلك الا بعد ساعة من بزوغ الشمس .

قال ابن سعود إذن ألزمى الصمت ، لأنه إذا قمت بأية حركة فسوف أحز رقبتك ، وقام بسجن المرأتين مع بقية الخدم .

لقد أوغل الليل ولم يتبق للفجر سوى أربع ساعات ، وبدأ حينئذ ابن سعود يفكر فيما يفعل .

كان في مقدمة المنزل غرفة كبيرة ، وفي الغرفة جدار فيه مشربيات ، وتحت النوافذ كان هناك ميدان ، ويقابله عبر الميدان القلعة ذات البوابة الحديدية الضخمة التي تقف على الحائط العالي ، الذى يسير الحراس فوقه ، لقد كانت خطة ابن سعود أن يهاجم الحاكم حين يخرج من القلعة وعندما يحدث الهرج والمرج يندفع إلى داخل القلعة .

وكان ما فعله فى أول الأمر هو أن ارسل رجلين ليحضرا محمداً وجماعته ، وعندما حضروا أقام حراسة على النوافذ ، ثم جلس هو والآخرون لتمضية الساعات قبل اللحظة الحاسمة عند الفجر ، وكانوا خلال جلوسهم متربعين يستمعون إلى أحد الرجال يقرأ شيئاً من القرآن الكريم .

وبعد أن صلوا ، جلس كل رجل على حدة يفكر فى الموقف ، وصفّوا حينئذ سائر الخلافات التي كانت بينهم ، ثم ناموا قليلاً ، وعندما بدأ الصباح يقترب أحضر لهم أحد الخدم قهوة وخبزاً وبلحاً ، وبعد أن أكلوا وأدوا صلاة الفجر ساروا بهدوء في صفين عبر الغرفة ، وكان ابن سعود في مقدمتهم ، واتجهوا عند ذلك صوب مكة ثم أخرجوا أسلحتهم وبدأوا الاستعداد لما يمكن أن يسفر عنه ذلك اليوم .





الفصل الرابع عشر

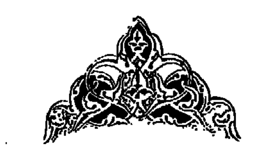
ولم تكد تمضى برهة قليلة بعد شروق الشمس حتى ارتفع صوت أحد الحراس ، وعندئذ زحف ابن سعود إلى النافذة حيث رأى في الميدان بعض الخدم يقودون خيل الحاكم ، وبدأت عندئذ الحركة تدب في القلعة . وفى تلك اللحظة أصدر ابن سعود أوامره الاخيرة وكانت تقضى بأن يبقى رجلان عند النافذة . وبمجرد أن يرياه يجرى فى الميدان فإن عليهما أن يفتحا النار تجاه بوابة القلعة . على أن يقوم الآخرون بمتابعته .

وأخذ ابن سعود يتابع الأمر حتى فتحت البوابتان وخرج منهما الحاكم عجلان يتبعه حراسه ، ومن ثم اتجه إلى خيله . وكانت تلك هى لحظة الصفر ، وبصيحة إلى رجاله اندفع ابن سعود عبر الميدان ، ثم بصيحة أخرى اندفع مباشرة نحو عجلان الذى مال قليلا ، ثم جرد سيفه ، وهوى به على ابن سعود ، وقد حمى ابن سعود نفسه من الضربة بسيفه ، ثم هجم على عجلان ووقع الأثنان على الأرض . وعندئذ تفرق الحراس وجروا نحو القلعة ، ووجه أحد الخدم ضربة إلى ابن سعود ، إلا أن جلوى عاجله بضربة قاطعة . لقد قاتل عجلان بضراوة واستطاع أن يخلص نفسه ويجرى نحو بوابة القلعة وهو يصيح منذرا بالخطر . وعندها جرد ابن سعود سلاحه وأطلقه نحو عجلان فجرحه فى الذراع ، وذلك ما جعله يلقى بسيفه أرضا ، وعندئذ قفز ابن سعود فوقه وأمسك برجليه وهو أمام البوابة يحاول أن يمسك بأحد الأعمدة . وحينئذ اندفع الحراس من الداخل نحو البوابة فتلقاهم رجال ابن سعود من الخارج ، وبدأ الرجال يتقاتلون فوق الدرج ويصيحون ويجرحون بعضهم بعضا . وبدأت الحامية تطلق النار من فوق السور ومن خلال الفتحات كما ألقوا بكميات كبيرة من الحجارة . وقد سقط أحد الرجال بالقرب من ابن سعود ميتا وجرح آخر وسقط ينزف دمه ، واشتبك حرس عجلان مع ابن سعود . واستطاع عجلان أن يخلص احدى رجليه ويرفس بها ابن سعود في ضربة مؤثرة على محسنه ، مما جعله يخلى سبيل عجلان ويتلوى من الألم ، وقام الحراس على الفور بأخذ عجلان إلى داخل القلعة وحاولوا قفل الابواب ، ولكن جلوى وثلاثة رجال صمدوا لهم وفتحوا الباب ، وكان عجلان يجرى نحو المسجد عبر فناء القلعة بينما كانت الحامية تطلق النار فى جميع الجهات . واندفع ابن سعود وجلوى خلف عجلان ، وما كان من جلوى الا أن عاجله

بالضربة القاضية من سيفه ، وهو على سلم المسجد ثم اتجه بعد ذلك إلى الدرج حيث تكاثف عليهما الرجال وكان اثنان من رجال ابن سعود قد قتلا ، بينما جرح أربعة جراحا بليغة ، إذ كان عددهم ثلاثين فى مقابل ثمانين رجلا في القلعة ، ولكنهم كانوا جميعا مصممين على النصر ، وفى تلك اللحظات قادهم ابن سعود وجلوى عبر الجسور العليا حيث قتلوا وجرحوا نصف رجال الحامية ، والقوا بهم إلى فناء القلعة ، ثم ساقوا ماتبقى من الرجال إلى احدى الغرف وقاموا بحراستهم . وقام ابن سعود فى الحال بارسال النداءات في المدينة وفي المساجد وفوق السور بأنه قد قام بالاستيلاء على القلعة . وعندئذ نهض أهل الرياض الذين كانوا قد سئموا حكم الرشيد وظلمه وقاموا بالقضاء على مراكز جنود ابن الرشيد الأخرى فى المدينة ورحبوا بابن سعود بأذرعة مفتوحة واستسلمت بقية الحامية لابن سعود ، والذى أصبح سيداً على الرياض .



الجزء الثالث



الفصل الخامس عشر

لقد أخذ ابن سعود الرياض ولكنه كان يحتفظ لنفسه بقليل من المواقع خارجها إذ لم يكن القرويون وأهل نجد حتى تلك المرحلة على استعداد كامل للوقوف معه ، فقد رأوا من قبل المدينة تؤخذ وتفقد فى نفس الوقت ، ورأوا السعوديين يهزمون على مدى أربع وعشرين عاما بواسطة الرشيد . لذلك فقد آثروا الانتظار والتزام الحذر . ولم ينضم إلى ابن سعود سوى عدة مئات من الرجال الأشداء . ولم يكن بدون مساعدة هؤلاء ورفقائه القدامى وأهل الرياض بمستطيع أن يقف في مواجهة ابن الرشيد الذى يملك الآلاف من المقاتلين . ولكن ابن سعود قرر أن يحتفظ بالرياض ، مهما كانت الظروف ، وهكذا بدأ العمل ليجعلها غير قابلة للسقوط أمام هجوم ابن الرشيد المضاد ، وعندئذ قام جميع السكان بمساعدته فى هذا العمل ، فقد كسر السور في مواقع عدة وأحكم بناءه تحسبا للهجوم فى أى وقت . وقد قام الرياضيون بأعادة حفر الخندق وأقاموا أبراج الاستطلاع والفتحات التى يستخدم منها السلاح ، وبدأ أهل الرياض يخزنون المؤن ويخرجون الذخيرة التى كانوا يخفونها أيام حكم ابن الرشيد وقد وضع ابن سعود خطة الدفاع ونظم الرجال فى داخل الحامية .

ولما وصلت الأخبار إلى ابن الرشيد سخر منها وقال :

لقد وقع الفقير الأحمق كطائر في الشرك .

ولكنه كان فى ذلك الوقت كان مشغولا في أمور أخرى ولم يعتبر ابن سعود ذا أهمية بالنسبة له . وقد عزم أنه بمجرد أن يفرغ فسوف يأتى ليعلمه هو وأهل الرياض درسا لن ينسوه . وسوف يريهم أنهم لايستطيعون قتل حاكمه ، أو يهزئون به على ذلك النحو .

● ● ●

لم يكن ابن سعود يعتزم أن يدخل نفسه فى أى شرك . ولم يكن لديه أى ترتيب عسكرى ، كما لم تكن لديه معايير نابليون . ولكنه كان ذا حس عسكرى متميز كان يخبره دائما ألا يجعل نفسه أسيرا في مدينة محصنة تحاصره قوة أكبر . كان يريد أن تصمد الرياض أمام الحصار ، على أن يكون هو خارج الأسوار فى الصحراء قادرا على الحركة السريعة . لقد أرسل ابن سعود أخبار نجاحه إلى والده

عبد الرحمن ورجاه أن يعود إلى الرياض ، إذ لم يكن يأتمن أحد على دفاع المدينة غيره . وهكذا انسرب عبد الرحمن فى هدء من الكويت مصطحباً ابنه عبد الله ومتخذا طريقه إلى الاحساء ، ومنها إلى الرياض . وكان عليه أن يسافر فى حذر ، لأن الصحارى كانت ملأى بعيون ابن الرشيد . وكان ابن الرشيد نفسه يتقدم نحو الرياض . وقد أرسل ابن سعود جلوى مع مئة وخمسين رجلا لملاقاته .

واستطاع عبد الرحمن باتباع طرق غير مطروقة عبر صحراء الدهناء أن يصل أخيرا وبعد مشقة إلى الرياض .

لقد استقبل أهل الرياض عبد الرحمن كحاكمهم بفرح شديد ، وبعد أيام قليلة جمع عبد الرحمن العلماء والمشايخ والاعيان وتنازل أمامهم عن الحكم وأوكله الى ابن سعود ، وأعطاه كرمز لذلك التنازل ، سيف سعود الكبير الذى ظل عبر مئات السنين يتناقله السعوديون كابرا عن كابر . وكان سيفا جميلا مصنوعا من الفولاذ الدمشقى وله مقبض مغطى بالذهب ، وغمده مطرز بالفضة ..

وعلى الرغم من أن عبد الرحمن كان رجل عمل وقتال منذ صباه ، فقد كان فى نفس الوقت رجل صلاح وتقى . وعندما كبر ازدادت نزعته الدينية ، فقد كان يقضى أوقاتا طويلة يقرأ القرآن والأحاديث النبوية الشريفة ، وكان كثيرا ما يعزل نفسه فى خلوة خاصة . وكان دائما مستعدا لتشجيع ونصح ابنائه . ولكن لم تعد به رغبة لقيادتهم أكثر من ذلك ، فقد كان يرى ان المسئوليات تحتم أن يكون على رأس القيادة شاب يواجه تلك المسئوليات الجسام .

ولقد كان ابن سعود يعامل اباه بكثير من الاحترام . وكان فى الصلوات العامة يقف خلفه تاركا للرجل الكبير أن يقوم بدور الأمامة ، وكان ابن سعود كثير الاستماع لنصح والده . ولكن منذ تلك اللحظات أصبح ابن سعود هو الحاكم الفعلى للرياض والمطالب بحكم نجد ، بل الجزيرة العربية كلها .





الفصل السادس عشر

وبمجرد أن أصبح ابن سعود مقتنعا بأن المدينة تستطيع أن تصمد للحصار ، سلم شئون الدفاع لوالده وأخوانه ، ومن ثم جمع لنفسه قوة من الرجال ومئة جمل ، وأربعين حصانا وخرج مع أخيه سعد إلى الصحراء ، وكان سعد أحب أخوانه إليه وأكثرهم شبها به في بنيته وسلوكه ، كان شابا يافعا ، وكانت له نفس المناكب العريضة والسمات الوراثية وبه رغبة شديدة فى أعمال الشجاعة والقتال ، ونفس ثورات الغضب ولكنه كان دون ابن سعود في قدرته على التحكم فى الأمور . لقد اتجه إبن سعود إلى الجنوب بعد أن جعل الرياض قاعدته وكان مقصده منطقة الافلاج والخرج التى تشكل النصف الجنوبى من نجد ، وشيوخ تلك المنطقة هم الدواسر وهم أهل أمه وقد اتسم الدواسر بالشجاعة واتفقوا معه في الرأى على مناهضة ابن الرشيد . وكانت خطة ابن سعود محددة ، إذ كان يتجه من قرية إلى أخرى يحرض الناس وينظمهم من أجل الدفاع وكان يعطيهم السلاح ويضم بعض المقاتلين إلى رجاله لتشجيعهم .

وتحرك رجال ابن الرشيد خلف ابن سعود ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يحصروه لأنه لم يكن يقف للقتال بل كان يتحرك بسرعة فائقة وكانت دهشتهم أن وجدوا القرى كلها وقد حرضت وتقف على أهبة الاستعداد للقتال فإذا دخلوا قرية وهاجموا أهلها فإن السكان يقاومون . وكان ابن سعود يظهر فى المؤخرة دون أن يعرف أحد من أين أتى ليحيط برجال ابن الرشيد . وكان ابن سعود كثيرا ما يعثر على مضاربهم فى الليل ، فإذا أحاط بمجموعة حاصرها وتعامل معها وكانت لابن الرشيد بعض النجاحات التى أخذ فيها بعض القرى ودفع ابن سعود خارجها ولكن ابن سعود كان لا ينثنى بل يعود مرة أخرى ، وهكذا بث ابن سعود في سكان القرى روحا لم يعرفوها من قبل .

وقد بدأ رجال القبائل يهابون ابن سعود وينظرون إليه على أنه الزعيم المنتظر ، فقد كان يحيط بهم من حيث لا يدرون ، بحيث أصبح ابن سعود أسطورة الصحراء وقد أصبحت قصة أخذ الرياض بستة رجال حديث العربان حول النيران ، وقد بدأ الناس يزيدون عليها من قصص الشجاعة التى هي من صنع الخيال فقالوا أنه هشم رجلا بقبضة يد واحدة . وقد تمت الأسطورة حتى أصبح ابن سعود فى نظر

الناس عملاقا حجمه ضعف حجم الانسان العادى . وكان باستطاعته أن يأخذ ثلاثة رجال فى مرة واحدة ويقطعهم بسيفه واشيع أنه حمل رجلا خلال القتال وهو على صهوة جواده ثم قذف به على حصان آخر وتركه يذهب وكأن قوة خارقة كانت تحركه .

وصمم ابن الرشيد على أن ينهى ذلك كله ، وعلى الرغم من أن ابن الرشيد كان حاكما سيئا ، فقد كان محاربا قديرا ، وقد أدرك أخيرا أنه قد قلل من شأن ابن سعود . لذلك جمع قوة كبيرة وتوجه بها جنوبا من حائل ليواجه خطر ابن سعود . وعندما اقترب من الرياض أخبره جواسيسه أن المدينة محصنة وحاميتها تقف على أهبة الاستعداد للقتال . وكان عليه أن يحاصرها إذا أراد أخذها . وقد نصحه أنصاره بأن يحاصر الآبار حول المدينة ويقطع عنها المياه ولكنه لم يكن يريد حصارا بل كان يريد استيلاء دراميا ، حتى يجعل من الثوار أمثولة للناس ، وكان قد سمع أن ابن سعود قد أتجه جنوبا لخوفه من ملاقاته فصمم على أن يتبعه وتم فى ذلك الوقت إعلان « دلم » عاصمة الخرج تابعة لابن سعود لذلك قرر أن يقوم بهجوم مخادع للرياض بينما تتجه قواته مباشرة إلى « دلم » وقد نجحت مناورة ابن الرشيد فقد وصل إلى قرية نعجان على بعد أربعة أميال من « دلم » دون أن يلحظه أحد حيث أمضى الليلة فيها وكان هدفه أن يسير إلى « دلم » فى ضوء النهار ليجعل منها حديث الناس .





الفصل السابع عشر

كان ابن سعود بعيدا هنالك فى الجنوب ، وبمجرد أن سمع بتقدم ابن الرشيد علم أن اللحظة الحاسمة قد دنت . فقد كان أخذه للرياض مجرد غارة عابرة لا أهمية عسكرية لها من حيث أنها قد أعطته نوعا من السلطة ولكن عليه الآن أن يواجه ابن الرشيد فى العراء وكان ابن سعود قد أرسل أخبار قتاله حتى يستدرج ابن الرشيد إلى الجنوب . وقد بدأ بالفعل فى حشد قواته ، وكان مقاتلوه مجرد مجموعة من الرجال قادرة على الاغارة ، ولكنهم لا يحسنون خوض معارك الالتحام . لقد شرع ابن سعود يسافر البلاد ليلا ونهارا يحرض الرعاة والقرويين وشيوخ القبائل للانضمام إليه ، ولكنهم كانوا جميعا خائفين ، وإذا انضموا إليه فقد كان ذلك على غير هوى منهم . إذ كانوا خائفين من ابن الرشيد ومن مقاتليه الأشاوس . وشيئا فشيئا فقد أزال ابن سعود خوفهم وأثار فيهم الحماس .

ظل ابن سعود يعمل دون انقطاع ، وكان لا ينام إلا قليلا . ولا يأكل إلا قليلا خلال سفره وقد غطى بذلك مسافات كبيرة وحتى ساعات راحته فقد كان يقضيها فى النقاش المرهق الذى بدأ يظهر على جسده ، وأخيرا استطاع أن يجمع ألف رجل أعطاهم موعدا فى قرية الحوطة وذلك هو اليوم الذى سمع فيه بأن ابن الرشيد يعسكر فى « نعجان » ويهتم بالهجوم على « دلم » ولم يكن أمام ابن سعود زمن يضيعه ، فقد كانت المسافة بين الحوطة ودلم سبعين ميلا ، وعندئذ توجه ابن سعود مباشرة بالرجال الذين تجمعوا لديه لملاقاة ابن الرشيد ، وكان أمله أن يكون هنالك قبل الفجر ، وحتى يضلل الجواسيس فقد أعلن أنه يتجه إلى الغرب ، بينما سار شمالا في محاذاة جبال « طويق » وقد حث ابن سعود رجاله كى يسرعوا ، وكانت الناقة التى يمتطيها سريعة ، ولكنها كانت متعبة بحيث تعثرت مرات فى الظلام وفى الأراضى القاسية ، وحين هم بضربها سقطت وألقته أرضا ، وأدى ذلك إلى سقوط أحد البدوان المرافقين له بجمله فوقه . وقد تبع ذلك سقوط عدد من الجمال والرجال مما أحدث ربكة كبيرة وصراخا .. إلا أن الحراس استطاعوا أن يحرروا ابن سعود من تحت الجمال وكان قد جرح وبدا عليه الانزعاج . وبمجرد أن استطاع الجلوس مرة أخرى صعد إلى السرج حتى لا يضيع دقيقة واحدة . وقد سار طول الليل هو ورجاله على ظهور الجمال والخيل ، وكان ابن سعود يشعر ، بألم شديد ، ولكن ذلك

لم يثنه عن غايته ولم يجعله يقرر هو أو رجاله الخلود إلى الراحة ، و
ذلك أن يصل إلى دلم وهى ما تزال ترقد تحت الظلام وأما فى شمال ا
« نعجان » فقد كان هناك حزام من أشجار النخيل التى وزع ابن سعود
ثم دخل المدينة بحراسه وأمر أن تغلق الابواب وأن يقف الحراس على ا
سقط ابن سعود من التعب ، ذلك أنه ظل على مدى سبعة أيام وهو يتحرك
بلا نوم ولا يقتات سوى تمرات قلائل ، وحمله حراسه إلى داخل بيت
ودهنوه بالزيت ولفوه بملاءة ونام فى ذلك اليوم حتى أذن المؤذن له
فاستيقظ وهو يشعر أن جسمه قد تصلب من أثر السقطة . ولكنه على ا
فقد استعاد نشاطه وأصبح جاهزا للعمل .





الفصل الثامن عشر

وبمجرد انبلاج الصبح بدأ ابن الرشيد تحركه يتقدمه سياج من الكشافة الراكبين ، وعند وصولهم إلى أشجار النخيل بدأ ابن سعود فى إطلاق النار عليهم ، فسقط على الفور أربعة خيول وستة رجال مما جعل البقية تهرب راجعة .

وأرسل ابن الرشيد مزيدا من الرجال ، وعندما تم إيقافهم بنفس الطريقة أدرك أن الذين يقفون أمامه ليسوا هم رجال مدينة دلم ، بل هم محاربون نظاميون ، وقد ظل ابن الرشيد يحاول طوال ذلك اليوم واليوم التالى معرفة عدد أولئك الرجال الذين يواجهونه ومواقعهم من خلال الإغارات والهجوم الصغير ، ولكن ابن سعود لم يمكنه من ذلك . وقد حدد ابن سعود مواقع فى القتال المرتقب لكل قبيلة . وأعطاهم أوامر مشددة بالتماسك ، واستخدم هو أقل عدد من الرجال لإيقاف هجمات ابن الرشيد ، وهكذا خدعه بأن جعله يعتقد أنه يواجه مجموعة صغيرة من الرجال أمامه .

لقد رجع ابن سعود إلى دلم لتناول طعام الغذاء حين دوى الانذار ، فقد بدأ ابن الرشيد يتقدم بصورة واضحة على صفين ، وكان قد قرر أن يتقدم عبر المقاومة لسحقها . وأخذت أعلامه ترفرف ، بينما المشاة يسيرون فى الوسط والخيالة إلى جانبهم يشهرون سيوفهم ويطلقون صيحات الحرب .

ولقد ظل ابن سعود ممسكا نيرانه . ولم يكن ذلك سهلا لأن رجاله شعروا بالإثارة تجاه القتال المرتقب ، وكانوا يتحرقون لأن تصدر لهم الأوامر وعندما اقترب ابن الرشيد أعطى ابن سعود أوامره ، فشتت بالنيران شمل الجيش القادم والذى كان يتوقع مجرد طلقات عابرة وليس وابلا من الرصاص ، لقد ارتبك الجيش وفجأة دوت صرخة ابن سعود وتبعه رجاله وهم يطلقون صيحات الحرب ، واتجهوا جميعا نحو جيش ابن الرشيد فما كان من ابن الرشيد إلا أن انكسر وأخذ فى الهروب ، وأصبح الفرار ذعرا ، وكر عليهم ابن سعود يتبعه رجاله وأهالى دلم واستطاع أن يحطم الجيش ويكسر شوكته ويطردهم إلى السهول فى تراجع شامل لابن الرشيد الذى كان فى مقدمة الفارين . واستمر الكر عبر الرياض وما بعدها ، حتى كادت الذخيرة تنفذ وينال الاعياء من الخيل والجمال .

وهكذا طارت الأخبار بسرعة البرق ، لقد انتصر ابن سعود ولم تكد القبائل

تسمع بذلك حتى نهضت خرج والافلاج وطردوا آخر رجال ابن الرشيد وانضموا لابن سعود . وهكذا أصبح جنوب نجد بأسره فى يد ابن سعود . ولكن ابن الرشيد كان رجلا شجاعا ولم يكن من السهل إنهاؤه بتلك الصورة ، فقد أدرك أنه كان لا بد له أن يقاتل من أجل حياته وبأسرع ما يمكن وذلك قبل أن تنمو قوة ابن سعود . وبمجرد وصوله إلى حائل جمع قوة جديدة واتجه بها إلى الكويت وهناك دعا مبارك ابن سعود لنجدته ، فما كان من ابن سعود إلا أن اتجه بجيشه نحو الكويت ، وكان ذلك ما يريده ابن الرشيد ، الذى ما أن رأى ابن سعود يذهب شمالا حتى عرج جنوبا إلى الرياض . ولكن عبد الرحمن كان مستعدا له فأوقفه عند السور . وبمجرد أن وصلت الأخبار لابن سعود لم يفكر في الإسراع إلى الرياض وإنما اتجه غربا عبر خطوط ابن الرشيد غازيا القرى التى على الطريق ونظرا لخوفهم فقد انقسموا وعادوا مسرعين إلى بلادهم ، وهكذا تحطم جيش ابن الرشيد ولم يتوقف ابن سعود وإنما صار يدخل قرية بعد أخرى واستطاع أن يجلى رجال ابن الرشيد من « شقره » و « تميده » و « ثادق » حتى استطاع أن يسيطر على مسافة خمسين ميلا شمالى الرياض .





الفصل التاسع عشر

لقد أكسبت تلك النجاحات ابن سعود وضعا جديدا ، إذ تمكن من بسط نفوذه على نصف نجد كما صنع لنفسه إسما كمقاتل لا يشق له غبار ، فقد تمكن من إخراج ابن الرشيد وحصره في منطقته ، واستطاع أن يكون قوة لها وزنها . وقد أخذ الرجال ينضمون إليه يوما بعد يوم ، وجعله ذلك قادرا على محاربة ابن الرشيد على المكشوف . وقد استمر القتال بينهما سجالا خلال خريف عام ١٩٠٢ كله ، وامتد إلى ربيع عام ١٩٠٣ حين ضربت البلاد مجاعة عظيمة فأمسكتها عن القتال ، واستطاع ابن سعود بعد ذلك شيئا فشيئا أن يؤسس وجوده .

لقد كانت الحروب مبارزة شخصية بين ابن سعود وابن الرشيد ، و اعتمد ابن الرشيد في حربه على القبائل التي حول حائل ، وأما ابن سعود فقد اعتمد على أهل الرياض والمناطق المجاورة لها ، إذ كانت تلك هي مراكز نفوذ كل منهما في ذلك الوقت . ولكن الأمر كان يختلف من وقت لآخر ، فقد انضمت إليهما بعض القبائل الأخرى من المطير وحرب والعتيبة والعجمان وكانت تنتقل بينهما بحسب حساباتها الخاصة ، وكان الحافز دائماً هو وعد بالذهب أو السلب ، فاذا حدثت نكسة صغيرة نكثوا عهودهم او انقلبوا على حلفائهم يسلبونهم خلال مرحلة التراجع ، و يمكن القول أنه لم يكن هنالك جيش منظم عند الطرفين ، وإنما كانت شخصية القائد هي التي تلعب دورهاالحاسم .

كان ابن الرشيد قصيرا وأسمر وفظا وقاسيا على وجة العموم . وهو شخص غيرمحبوب ، وغير كريم ، كان يحكم بالقوة ويحارب من أجل أن يغنم . و كان قاطع طريق ومدمر ، وكان ابن سعود على عكس ذلك كريما وذا قلب مفتوح ، ويعرف كيف يتعامل مع رجال القبائل وكيف يخاطب اعتزازهم بأنفسهم ، بل وكيف يتجاوز عن أخطائهم ، وكان باختصار يمتلك الخصائص التي يعجب بها العرب ، وهي الكرم والحرية وكان محبا عظيما ومقاتلا شجاعا وذكيا . وعلى الرغم من نشأته الوهابية ، فكان يحب الضحك والافتخار ، وفوق كل ذلك فقد كان عنده الشباب والايمان ، بينما كان ابن الرشيد عجوزا متداعيا . كان ابن سعود واثقا من نفسه ويثق في قومه . وكان يريد أن يرفع من شأنهم ، وكان ابن سعود قادرا على أن يحفز قومه بمثل طموحه الشخصي . كان يغزو لا ليدمر بل ليحكم . فإذا تقدم لم يكن ينهب ، بل كان

يدعم ما أخذه بوعود الرخاء ، وفي نهاية عام ١٩٠٣ عندما نزلت الأمطار وانتهت المجاعة وبدأ الناس الرعي وامتلأت الآبار تقدم ابن سعود شمالا ، وكان بينه وأرض شمر منطقة القصيم التى تعتبر أغنى منطقة فى نجد القديمة والتى كانت « بريدة » و« عنيزة » أهم مدنها وعلى الرغم من أن ابن الرشيد كان ما يزال يمسك بتلك البلاد ، فإن قلوب الناس كانت مع ابن سعود .

واستطاع ابن سعود أن يأخذ القصيم بسرعة ودون مقاومة لأن ابن الرشيد كان بعيدا فى الشمال ، يتعامل مع ثورة قام بها رجاله ، وتمكن ابن سعود من هزيمة « حسين جارد » حاكم ابن الرشيد على المنطقة مما جعله يستولى على عنيزة ويحاصر « بريدة »التى كانت محصنة تحصينا قويا ، وقد قفلت أبوابها في وجهه .

واستطاع ابن الرشيد أن يجمع ما قدر عليه من الرجال وارسلهم تحت قيادة أحد أبناء عمومته ، ويدعى عبيد لفك الحصار من بريدة ، ولكن ابن سعود هزم عبيد ورده خائبا بعد قتال عنيف ، وقد انكسر رجال ابن الرشيد وهربوا في وجه ابن سعود وتمكن ابن سعود من إلقاء القبض على عبيد وكان ابن سعود يجلس على مهره حين أحضر إليه عبيد وعندئذ قال : « إذن هذا هو عبيد بن الرشيد ، وهو الذى قتل عمى محمد في الرياض » .

ونزل ابن سعود من حصانه وجرد سيفه الذى أهداه له والده وظل يحمله دائما معه . ثم أخذ يزن السيف فى يده فصاح عبيد : لا تقتلنى يا أبا تركى .

فقال ابن سعود ليس هناك مجال للرحمة ، فسوف أحقق العدالة وهى القصاص من القاتل ، ثم عاجله بثلاث ضربات كانت الأولى متدنية فجاءت فى ركبته فتمايل عبيد فجاءته الثانية عالية فى رقبته ، وكانت الثالثة سريعة وعاجلة خر الرجل بعدها صريعا ونظف ابن سعود بعد ذلك سيفه ثم وضعه فى غمده . ولما وجدت حامية بريدة نفسها دون أمل رضخت بالتسليم ، وكذلك سائر المنطقة التى قبلت حكم ابن سعود . وتمكن ابن سعود أخيرا من إجبار ابن الرشيد على الخروج من نجد لتصبح مرة أخرى تحت حكم آل سعود .

وعندما رجع ابن سعود إلى الرياض خرج أكثر الناس عبوساً للقائه بالفرح وبعد ذلك اجتمع الاعيان ورجال الدين والحكام والشيوخ في المسجد الكبير بعد صلاة الظهر وعندها أعلن عبد الرحمن ولده أميرا على نجد وإماماً للوهابيين .

الجزء الرابع



الفصل العشرون

لم تعجب تلك النجاحات المتلاحقة لابن سعود الاتراك ، وكما ذكرنا سابقاً فقد كان الاتراك هم الحكام الإسميين للجزيزه العربية ، ولكنهم حصروا انفسهم فى الاطراف التى احتفظوا فيها بقوات وحكام ، مثل اليمن وساحل البحر الاحمر الى الحجاز ، وعبر سوريا حتى نهر الفرات الى بغداد ، وكذلك على طول ساحل الخليج إلى الاحساء وهى الأراضى الغنية التى تحيط بمناطق الجزيرة الداخلية ، وكما هى عادتهم فقد ظلوا يحرضون القبائل على بعضها بعضا ، يساندون الضعيف ضد القوى ، لقد عارض الاتراك ابن الرشيد حين كان قوياً ، وهاهم الآن يعارضون ابن سعود ، وأخيراً فقد أصبح السلطان العجوز عبد الحميد طموحاً ،بدأ يفكر فى إعادة إحياء الامبراطورية العثمانية حتى يصبح سلطاناً عظيما،وخليفة ، كما كان شأن اسلافه ، ولذلك فقد صمم أن يحكم أواسط الجزيرة ذاتها . ولقد شجعه الألمان على ذلك ، وكانوا قد بدأوا فى بناء خط بغداد الحديدى .. وإرسال تجار ووكلاء إلى الخليج العربى ، وظل الالمان ينتظرون فرصتهم التى يزون فيها النفوذ الانجليزى حتى يطردوهم من الخليج العربى والكويت . ولقد أصبح ابن سعود خطراً على طموحات الألمان ، لأنه كان حليفا لمبارك الكويت ، ويقال أنه كان صديقا للانجليز وهو بعيد نسبياً ، وتصعب السيطرة عليه ، كما هو الشأن مع مبارك ، لذلك فقد شجع الالمان عبد الحميد لاستخدام ابن الرشيد ضد ابن سعود ، وهكذا أرسل السلطان عبد الحميد مزيداً من القوات من اليمن والحجاز . وزاد من قوة حاميته فى بغداد والاحساء ، وأمر بأن يبنى الخط الحديدى من دمشق إلى الحجاز فالمدينة ، ووقع اتفاقية مع ابن الرشيد على أن يحكم أواسط الجزيرة كممثل له . ولكن ابن سعود كان قد تدخل ضد هذه الخطط مما حدا بابن الرشيد لطلب النجدة ، وعلى الفور فقد أمر السلطان حاكمه فى بغداد أن يرسل قوات لتدمير ابن سعود . وكنتيجة لذلك وفى بداية صيف عام ١٩٠٤ تحركت ثمان فرق ومعها ست مدافع تحملها البغال من سامراء لملاقاة ابن الرشيد الذى أعد رجاله وسار بهم إلى نجد مهدداً « عنيزة » وبريدة وقد جمع ابن سعود كل رجل عنده من أجل ملاقاتهم . وقد وجدهم معسكرين بالقرب من قرية البكيرية فصمد لهم .

كان ابن الرشيد مدعماً تدعيماً قوياً ، فبالاضافة إلى السلاح والرجال ، فقد

أرسل له الاتراك المال ، وكان ابن سعود فى حاجة إلى كل ذلك ، إذ لم تكن لديه مؤن تكفى رجاله ، لذلك فقد أمرهم فى تلك الليلة أن يناموا جوعى ، ولم يكن لديهم في اليوم التالى سوى بضع تمرات يقيمون بها أودهم ، وبدأ جنوده يحتجون ، وأصابهم اليأس ، كان استعداد ابن سعود ضعيفا فى معركة كهذه ، ولكن ابن سعود لم يكن لديه وعد بالطعام إلا حين يأخذون معسكر الأعداء . وفى المساء خرج ابن سعود لمسح الأرض التى أمامه وحين رأى فى اتجاه الشرق سحابة من الرمال تعلو فى وجه الشمس الغاربة انتهى إلى أن مزيدا من الرجال كانوا فى طريقهم إلى ابن الرشيد ، ولكن كشافته قد أكدوا له أن أولئك لم يكونوا مقاتلين وإنما كانوا سالبين أتوا ببعض الماشية إلى معسكر ابن الرشيد وفى الحال طلب ابن سعود من رجاله أن يمتطوا صهوات الجياد . ولم يكن ثمة وقت لوضع السروج عليها وهكذا اندفع ابن سعود فى مقدمة رجاله نحو معسكر ابن الرشيد واتجه مباشرة إلى الماشية وشق صفوفها وحمل كل رجل من رجاله خروفاً فوق حصانه وعاد بها إلى معسكره وتحرك رجال ابن الرشيد وراءه وكانت أعدادهم تفوق رجال إبن سعود ولكن رجال ابن سعود ظلوا يصوبون النيران من فوق خيولهم وهم فى طريقهم إلى معسكرهم . وهكذا امتلأ معسكر ابن سعود بالحيوية فى تلك الليلة فقد بدأ رجال ابن سعود يتفاخرون بدهائه وأقسموا أن يعالجوا أمر ابن الرشيد فى الصباح وكان العشاء فى تلك الليلة لحماً .

وقبل الفجر بقليل ، وكان التاريخ هو الخامس عشر من يوليو هجم ابن سعود فى معركة حامية الوطيس . فقد أرسل رجاله إلى أطراف جيش العدو فدفعوا رجال ابن الرشيد إلى الوراء ولكن القوات التركية كانت صامدة فى الوسط وكان الرجال يدورون حولها وعند الظهر بدأ الاتراك يفتحون النيران من مدفعيتهم ولم يكن رجال ابن سعود متعودين على نيران المدفعية ، وهكذا بدأ تراجعهم ولكن ابن سعود تقدم إلى الأمام وكشف نفسه فبث الحماس فى رجاله . وقد انفجرت قنيفة بالقرب من حصانه وقد أزالت شظية جزءاً من اصبعه الأيسر كما جرحته شظية أخرى فى ركبته اليسرى ولما انبجس الدم منه ، اضطر إلى الرجوع وأصاب رجاله الهلع فى الانسحاب ، ولكنه بصعوبة بالغة تمكن من جمعهم وأدخل التماسك إلى قلوبهم ، ثم عاد بهم من جديد على نحو آخر ، وقد شعر ابن الرشيد برغبة دافقة فى متابعة ابن سعود ، ذلك انه كان قد فقد حوالى ألف مقاتل حتى تلك اللحظة . ولكن الأتراك ما كانوا قادرين على فعل شيء في تلك الشمس اللاهبة فقد أقاموا لأنفسهم معسكراً خارج قرية الشنانة ، وتركوا ابن سعود يذهب ، بينما توجهوا هم فيما بعد لاخضاع بعض قرى القصيم وشمال نجد .



الفصل الحادى والعشرون

لم تكن هناك لحظات يظهر فيها ابن سعود فى افضل حالاته قبل لحظات الهزيمة ، فحين تميل الأمور الى غير صالحه ويشعر كل فرد حوله باليأس تراه منشرحاً ومتفائلا ، ولم تستطع الجروح التى كان من الممكن ان تقعد سواه أن تثبط من عزائمه ، لقد بدأ على الفور العمل من أجل أن يوجد حلفاء جدداً لنفسه ، فقد أرسل رسالة إلى المطير والعتيبة والدواسر وحتى شمالاً إلى قبائل المنتفق وعنزة . وبفارغ صبر تعامل بصورة شخصية مع الشيوخ المشاغبين ، إذ كان الأمر يحتاج إلى مهارة فائقة وحنكة لإقناع هؤلاء الرجال حتى يتناسوا خلافاتهم ويتجاوزوا ضغائنهم من أجل الهدف المشترك ، وكان الامر بالنسبة إليه وكأنه تجميع الآف القطع المكسرة من « فاظة » زجاجية وتأليفها من جديد مع العلم بأن أى خطأ أو ضربة ستهشم « الفاظة » إلى الآف القطع . لقد ناقش الشيوخ بأن عليهم جميعا أن يحاربوا ابن الرشيد لأنه أحضر الاتراك إلى الجزيرة ، وان الاتراك قد أحضروا معهم الالمان وذلك يعنى نهاية حريتهم .

وعلى الرغم من الآلام فى ركبته ، فقد تنقل بين رجاله يلهب فيهم الحماس ويعطى كل رجل بندقية . وذلك قبل أن يعلم الاتراك وابن الرشيد أنه قد انشأ لهم قوة جديدة ، فقد وجدهم سائرين فى المجرى الجاف لنهر « الرمه » ، وكانوا عائدين من معسكرهم فى « الشنانة » بعد أن أخضعوا بعض قرى نجد وقبل أن يتجمعوا لمواجهته هاجمهم ابن سعود ، ومرة أخرى استطاع رجاله دحر رجال ابن الرشيد ، ومرة أخرى وقف الاتراك لكى يقوموا بدورهم ، فما كان من المطير إلا أن تخلوا عن مواقعهم . ولكن ابن سعود علم أن هزيمته للمرة الثانية سوف تعنى نهايته ، لذلك فقد جمع كل الرجال الذين يستطيع جمعهم وقادهم وكان حرسه الخاص من ورائه ، وكر على ابن الرشيد وهو يصيح « أنا أخو نوره » وكانت تلك هى صيحة الحرب عنده وهكذا اقتحم مواقع الاتراك بصورة مباشرة .

وعلى الفور انكسرت شوكة الخط التركى وأخذ ابن سعود يكر المرة تلو الأخرى محطماً تماسكهم ، ولما رأى رجال ابن الرشيد تداعى الاتراك تفرقوا وولوا الأدبار هاربين ، ولقد تجمع الاتراك من جديد فأحاط بهم ابن سعود ، فما كان منهم إلا أن تراجعوا بصورة نظامية ، وفى اليوم التالى أتخذوا طريقهم ببطء عبر الرمال

تحت أشعة الشمس المحرقة ، وقلت كميات المياه لديهم ، وضاع كثير منهم فى الصحراء ، وتدهورت حالتهم بسبب ملابسهم ومعداتهم الثقيلة ، وكان ابن سعود يشن عليهم برجاله الخفاف السراع فالتقطهم كالذباب ، وقد سقط كثير من الجنود الأتراك ، وقامت النساء البدويات بدور مهم فى إكمال المهمة ، وحاول بعضهم المقاومة ولكن فرسان ابن سعود قد دمروهم ولقد استسلم بعضهم إلى ابن سعود بينما استطاعت فئة قليلة أن تجرجر آلامها وتعود مرة أخرى إلى البصرة .





الفصل الثانى والعشرون

ولم يكن الاتراك ليتركوا مثل تلك الهزيمة تقع بهم دون انتقام ، فقد بدأوا يعدون قوة كبيرة لكى تنزل عبر الفرات للقضاء على ابن سعود بصورة نهائية ، وعلى الرغم من ان الوهابيين كانوا نشوانين بالنصر ومتحفزين للقتال فإن ابن سعود كان على علم بحقيقة الامر ، إذ كان يرى أنه على الرغم من هزيمته لممثل الاتراك ابن الرشيد وبعض أعوانه من الترك فإن ذلك لا يعنى أنه قادر على مواجهة الإمبراطورية التركية . وكان عليه أن يتجنب مثل تلك المواجهة ، وفكر عندئذ فى أن يفض الإشكال بينما هو ما يزال على البعد ، ولذلك فقد اتصل مع مخلص باشا حاكم البصرة لكى يتوسط بينه وبين الحكومة التركية ، وقد استطاع مبارك أن ينظم لقاء بين عبد الرحمن ممثلاً لابن سعود ومخلص باشا ، وكانت نتيجة هذا الاجتماع أن اعترف الاتراك بشرعية ابن سعود كحاكم لنجد والقصيم ، على ان يوافق ابن سعود ببقاء قوات تركية رمزية فى المنطقة بالإضافة إلى حاميات في عنيزة وبريدة ، وهكذا زال الخطر لفترة ما . وكانت تلك الموافقة مقدمة لخطة بارعة لعبها ابن سعود .

لقد وصلت الحامية التركية لتجد نفسها معزولة ، إذ أن ابن سعود لم يقدم لهم أية مساعدات ، فلم تكن القوة قادرة على أن تحافظ على النظام أو الأمن . وقد امتلأت الطرقات بالعرب المغيرين على إمدادات الذخيرة ، القادمة إليها من البصرة ، ولم تكن الحامية قادرة على أن تفعل شيئا ، فإذا خرج أفرادها وراء الأسوار إلى المدن فى أعداد قليلة ، قام البدو بالإحاطة بهم وقتلهم ، وإذا ساروا جماعات كبيرة فقد كان عليهم ان يسيروا فى بطء ، وذلك لايمكنهم من اللحاق بالبدو السراع . وفى نهاية العام كان معظم الجنود الاتراك فى ملابس بالية ويعيشون فى حالة فقر مدقع ، وفى بعض الأحيان كانوا يأكلون لب أشجار النخيل كطعامهم الوحيد . وباع معظمهم سلاحهم من أجل طعام قليل ، وقد أطلقوا على القصيم اسم « ابنة الشيطان » ، وخلاصة الأمر أنهم أصبحوا بلا قلب أو روح ، يموتون من المرض وضربات الشمس ، فأخذوا يهجرون بأعداد كبيرة . وقد ضغطت الحكومة التركية على ابن سعود كى يعطيهم بعض المساعدة . وكان ابن سعود يعطيهم الكلمات الطيبة ولكن لا مساعدة ، وقد حاولت الحكومة التركية معه بإعطائه الذهب الذى يريده ، والذى كان يعنى مزيدا من القوة ومزيدا من السلاح والحلفاء ، وعلى الرغم من حاجته إلى

ذلك فقد أعاد هدية الحكومة التركية ، ولقد أدرك ابن سعود فى حقيقة الأمر أن الاحوال قد تغيرت ، وان الاتراك يعانون من صعوبات بالغة ، وان اليمن والحجاز كانتا تعيشان حالة ثورة وان سوريا قد بدأت تنظم اللجان الثورية التى تدعوا الى الاستقلال العربى وطرد الاتراك ، وان الفوضى قد بدأت تضرب بلاد البلقان ومصر وتركيا والقسطنطينية ذاتها ، وان الأمر يؤذن بالانفجار ، وقد علم ابن سعود أن الاتراك لا يمكن لهم أن يركزوا عليه أو حتى يهتموا بإمداد حاميتهم فى القصيم وكان بإمكانه أن يهاجم تلك الحامية ويهزمها ويطردها خارج الجزيرة ليكسب بذلك مكانة وسمعة ، وكان ذلك رأى الذين حوله ، ولكنه آثر التريث على أن يترك الأمر كله للزمن كى يخدمه بالظروف المناسبة ، وكما توقع ابن سعود فقد بدأ الاتراك يقلصون حاميتهم فى القصيم ثم سحبوها فى آخر الأمر بعد أن تركوا بعض الحاميات فى ساحل الأحساء ولم يعودوا مرة أخرى إلى أواسط الجزيرة .





الفصل الثالث والعشرون

بعد أن جعل ابن سعود الاتراك يذهبون من غير الدخول فى حرب معه ، وجد نفسه من جديد وجها لوجه مع خصمه ابن الرشيد وهو الآن على قمة الموجة ، وقد كسب شهرة واسعة . وعلى الرغم من أن مزيداً من القبائل قد بدأت تفد إليه ، فلم يشعر بالرغبة فى الاخلاد إلى الراحة ، وكان ابن الرشيد نفسه رجلاً شجاعاً مثل ابن سعود ، والصحراء عند كليهما ملأى بالفرص ، ذلك أن هزيمة واحدة يمكن أن تقلب الانصار غير الاوفياء وتحيل الحلف إلى هباء .

وهكذا عاش ابن سعود أيامه تلك فى خطر مستمر ، إذ كان عليه أن يكون مستعدا طول الوقت ، ليس فقط لهجمات العدو والهجوم الليلي ، بل أيضا لاحتمالات الخيانة والانقلاب عليه ، ففى أية ليلة كان من الممكن أن يتآمر عليه أقرب أعوانه لقتله ، لذلك كان يضرب خيمته إما بعيدا عن المعسكر بحيث لا تكون هنالك خيمة أمامها أو خلفها ، وكان حراسه دائما بالقرب منه ، وكان نومه قليلا ، ساعتين أو ثلاثاً على الأكثر فى كل ليلة ، وحين يكون فى مهمات القتال لم يكن ينام على سرير ، بل كان يفترش سجادة على الرمال ، بينما يكون سيفه مسلولاً إلى جانبه . وكان فى بعض الاحيان لا ينام ، بل يجلس متربعاً ويضع ذقنه على كفيه ، أو يجعل يديه على مقبض سيفه المغروز فى الرمال .

وكان من الممكن أن يصحو من النوم مثل الثعبان المكور ليكون فى موضع الضرب . وحدث ذات مرة أن دخل خادم إلى خيمته دون إذنه فما كان من ابن سعود إلا أن عاجله بسيفه قبل أن يعلن عن نفسه ، وكان حصانه يقف إلى جانب خيمته ، فإذا سمع إنذارا أفلت بسرعة دون سرج أو رسن .

لقد أصبح ابن سعود خفيفاً ومعضلا كأنه وحش ضار ، فقد جعلت الصحراء جسده متماسكاً كأنه قد من الرخام . ولم يكن ابن سعود يحب حياة الاقامة فى المدن ، وكان أكله وشرابه لماماً ، وكان فى نفس الوقت عظيم النشاط ، يعمل طوال الليل والنهار وكان يجلس فى مقدمة خيمته يستقبل كل من يفد إليه يستمع الشكاوى ويقرر فى أمور الناس ويفند حقيقة الامر . وكان عظيم الالمام بشئون القطر وعلى معرفة واسعة بحياة وتاريخ سائر القبائل : وكان يشرف بنفسه على شئون الطعام

والتحضيرات في المعسكر ، وكان يضع خطط القتال بنفسه ، وحتى حين يكون فى أقصى درجات انفعاله فقد كان يحافظ على واجباته الدينية بدقة فائقة . وكان كثير قراءة القرآن . واذا تحركت قواته إلى القتال كان هو فى مقدمة الصفوف ، وكان ينظر إلى الحرب بعينى طفل خارج للعب مع أقرانه ، وباستثناء الساعات القليلة التى كان ينام فيها ، لم يكن ابن سعود يسلم نفسه للهدوء ، فقد ظل يحارب ابن الرشيد حتى حصره أخيرا وقضى عليه . فقد كان ابن الرشيد عائداً وبعد سير طويل جاء إلى قرية « مهنا » وعسكر فيها . وكان رجاله يشعرون بالتعب والارهاق ، وهو نفسه كان قد شعر بالملل واليأس لا سيما وقد تقدمت به السن . ولاعتقاده بأن ابن سعود ما يزال على بعد عدة أميال فلم يتخذ حذرا فى معسكره . وكان ابن سعود بالفعل على بعد عدة أميال ولكن بمجرد أن أخبرته عيونه بمكان ابن الرشيد توجه بسرعة نحوه فى جنح الظلام . وعند الفجر ثارت عاصفة ترابية شديدة ، وتحت غطائها قام ابن سعود بالهجوم ، فأخذ العدو على غرة ودون أن يكون على استعداد للقتال فشتت شملهم ، وكان من الممكن لابن الرشيد أن يهرب ولكنه وقف يصيح فى رجاله صيحات الحرب فعاجلته رصاصة وهو يقف وحده تقريباً ، وهكذا ضربت الفوضى بين أنصاره . فقد كان خليفة ابن الرشيد ضعيفا ، وقاد ذلك إلى صراع داخلى بين رجال القبيلة من أجل السلطة وأدى هذا الوضع إلى كثير من الاغتيالات والمنازعات ، ولما رأت القبائل أن لا قيادة لها انفضت تتقاتل مع بعضها بعضا . وكان من الممكن أن يجتمعوا لمقاومة الخطر المشترك ولكن لم تكن بهم رغبة إلى ذلك . وهكذا لم يعودوا يشكلون فى تلك المرحلة خطراً على ابن سعود .



الجزء الخامس





الفصل الرابع والعشرون

بلغ ابن سعود السابعة والعشرين ، وكان قويا وخفيفاً وقد أسس زعامته على أساس أنه مقاتل عنيد تقف وراءه انتصاراته على الاتراك وابن الرشيد ، وقدرته على إعادة السيطرة على نجد بقوة ذراعه ، ولكن ذلك لم يكن نهاية المطاف ، ذلك أن المشاكل قد بدأت تترى عليه من الداخل والخارج لكون القبائل العربية لا تقبل الزعامة الجديدة بشيء من البساطة ، فالعرب بحسب طبيعتهم كالرمال . كل قبيلة وفرد يريد أن يشعر أنه وحدة مستقلة بذاتها ، وكالرمال يمكن أن يكونوا جميعاً تحت قبضة يد قوية ، ولكن ذلك لا يعنى انصهارهم فى بوتقة واحدة ، فإذا خففت اليد القوية قبضتها ، فإنهم كالرمال يعودون مرة أخرى ليصبحوا وحدات متصارعة مع بعضها بعضا ، ولم تكن القبائل قد اجتمعت إلى ابن سعود بدافع البحث عن قيادة فحسب ، بل لأنهم كانوا يعتقدون أنهم سيحصلون منه على مزيد من الحرية للسلب والنهب بعد هزيمة ابن الرشيد ، ولكنهم وجدوا أن يد ابن سعود كانت أقوى من يد سلفه إذ حرم عليهم الإغارة . وقد عاقب بغير رحمة كل من سولت له نفسه الخروج على أوامره . وهكذا بدأت بعض القبائل تشعر بالقلق تحت تلك الشروط القاسية . وحتى فى الرياض نفسها فقد أخذ بعض الناس ينظرون إلى ابن سعود على نحو آخر فقد كان متديناً حقاً ، يقيم الفروض ويصوم رمضان ويعطى الزكاة ولا يشرب الخمر ولا يدخن ولا يحنث العهد ، وكان يسير فى حياته على سنة الاسلام ، ولا يتخذ النساء في غير الحلال ، وباختصار لم يكن هنالك أحد يستطيع أن يلقى عليه حجرا فى أى أمر من تلك الأمور . ومع ذلك ، فقد كان بعض الناس لا يستطيعون الوصول إلى الدرجة التى كان عليها تفتح عقله .

وكان ابن سعود لكى يواجه كل تلك الأمور يرجع إلى والده عبد الرحمن المعروف بتقاه وصلاحه ، والذى كان الوهابيون يثقون فيه ويستمعون إليه حين لا يستمعون من أحد غيره . ومهما يكن من أمر فقد سار ابن سعود حذراً ، وكان الأعيان يحصون عليه خطواته إذ كانوا يعتبرون أنهم هم المحافظون على ضمير كل فرد ، ولا سيما حاكم الرياض الذى كان يخضع لنقدهم ونصحهم إذا دعت الضرورة ، وذلك انه كان فى إمكانهم إثارة الناس على الحاكم إذا رأوا فيه اعوجاجاً ، ولا شك أن ابن سعود كان حامى المزاج ويشعر بالضيق فى بعض الأحيان ، ولكنه كان يتمالك

نفسه أمام النقد ويبدى كثيرا من التحمل بسبب فهمه لطبيعة موقفه ، ولأنه كان يعلم أنه هو القائد الذى اتضحت أمامه الرؤية ويتحتم عليه أن يقنع الآخرين بها .

وجاءت أخطار كثيرة من الخارج ، فلم يكن مبارك ينطلق من نفس التصور الذى انطلق منه ابن سعود ، إذ كانت سياسته تتطابق مع سياسة الاتراك ، فقد كان مبارك يطمح دائماً ان يحمى الكويت من خلال لعبة توازن القوى بين قبائل أواسط الجزيرة ، وهى الاستراتيجية التى تغيرت حين أصبح ابن سعود حاكماً قوياً وله نفوذه على المنطقة كلها ، ومن ناحية أخرى فقد نشأ تغير طفيف فى نوع العلاقة بين ابن سعود ومبارك ، ذلك أنه حين كان ابن سعود معدما ومقيماً في الكويت عامله مبارك بطريقة حسنة ، وكان ابن سعود يقدر ذلك كله ، ولكن ابن سعود ما كان يتوقع أن يرسل إليه مبارك النصائح وينتظر منه أن ينفذها دون تردد ، فهو لم يعد صغيرا بل أصبح حاكم نجد وشخصية ذات اهمية ، ولديه استراتيجية تختلف كثيرا أو قليلا عن استراتيجية مبارك .

وعلى الرغم من ذلك فقد ظل مبارك وابن سعود يتقابلان ويتراسلان بكل أصول المجاملة ، ولكن مبارك بدأ يعمل فى طريق آخر ويدخل فى تكتلات لم يوافق عليها ابن سعود . وعلى سبيل المثال فقد أسرع مبارك بالدخول فى اتفاقية مع الاتراك الذين قدموا له المال .

لقد عاشت قبيلة مطير بين الكويت ونجد . وكانت هذه القبائل ما تزال تعيش على بداوتها ، فقد كانت تتمرد على كل أنواع الانضباط ، وكان ابن سعود قد وحدهم إلى نفوذه ، ولكن النفوذ الخارجى قد اقنع شيخهم فيصل الدويش وهو محارب معتق ولا يتهادن أن يتحد مرة أخرى مع ابن الرشيد لمواجهة ابن سعود ، واستطاع هذا النفوذ ان يقنع حاكم بريده أن يرفض الاعتراف بسلطان ابن سعود .

وبمجرد أن سمع ابن سعود ـ الذى كان هدفه توحيد الجزيرة وتحقيق الخير لأهلها ـ أن حاكم بريده قد قفل الأبواب دونه سار إليه حيث وجد مجموعة من المحاربين بينه وبين المدينة فهاجمها على الفور ، وأثناء القتال ألقى به الحصان أرضا فكسر ترقوته وفى المساء انسحب الفريقان دون أن يحقق أى منهما انتصاراً حاسماً . لقد قضى ابن سعود ليلته فى خيمته يعانى من آلام الكسر . وعلى الرغم من أنه كان يتلوى ويتصبب عرقاً فلم يستسلم . ولما رأى رجاله حالته تلك أصابهم القنوط لأنهم لم يتعودوا القيادة دونه . وعند الفجر خرج ابن سعود مرة أخرى وقاد رجاله حتى اذا انتصف النهار كان قد رد ابن الرشيد ثم تعامل بعد ذلك مع مطير ، وكان ابن سعود يشعر بالألم لأنهم تحالفوا معه من قبل وهاهم يتحالفون مع ابن الرشيد . ولقد

أظهر ابن سعود كثيراً من الصبر ولكنه رأى ان كثيراً من الرجال لا يرون رؤيته ، لذلك فقد هاجمهم واستعاد القرى إلى نفوذه حتى حدود الكويت وقد قام بمعاقبة قادة التمرد ، كما قام بتنحية الشيخ الدويش ، وكان من عادة ابن سعود انه اذا رأى الأمر ضروريا فإنه لا يبدى تراجعاً أمام من يعتبره خارجاً على النظام . وكان هدفه دائما أن يجعل من الخارجين على القانون نموذجا يقتدى به الجميع ، وكان يقول أنا أرفع السيف وهو المنطق الوحيد الذى يفهمه الكثيرون .

وأخيرا فقد اتجه ابن سعود إلى بريدة حيث وجدالبوابات ما زالت مغلقة والمدينة مستعدة لظروف الحصار ، ولكن كان هنالك بعض رجاله فى داخل المدينة قاموا فى وقت صلاة العشاء ، وعندما كانت الحامية فى الجامع بفتح البوابات فدخل ابن سعود وأحضر له الحاكم الذى جثا أمامه وكان يتوقع أن ينفذ فيه ابن سعود حكم الاعدام في الحال ، ولكن ابن سعود قال له بشفقة : انهض وخذ عائلتك وانصرف إلى نجد . وعلى الرغم من ذلك فقد كان مصمما ألا يكون هنالك مزيد من الاضطراب فى بريدة التى كانت على درجة عالية من التحصين ، وعرف اهلها بشراستهم وبداوتهم ، وبريدة هى بوابة نجد الشمالية ومركز تجارتها كلها ، ونظراً لتمردها المستمر فقد آثر أن يجعل ابن عمه جلوى حاكما عليها .

وكان جلوى مرهوب الجانب ، فقد نما ذلك الشاب الذى ساعد ابن سعود على استعادة الرياض ليصبح رجلاً غليظاً قصيراً ذا ملامح صارمة وقوة جسدية عظيمة . وكان معروفاً بأنه فارس محترم ، وله معرفة بالخيول والجمال ، صموتاً وسريعاً فى اتخاذ القرار ، ولا تأخذه شفقة فى التنفيذ ، وكان إخلاصة لابن سعود بغير حدود ، اذ لم تكن له مطامح شخصية ولكنه يطبق الأوامر بالحرف ، وكانت أحكامه سريعة وحاسمة ، وبينما كان الناس يهابون ابن سعود فقد استطاع جلوى أن يجعل كلمته قانوناً حتى على البدو النائين فى المكان . ومنذ اليوم الذى أصبح فيه حاكماً على بريدة توقفت المشاكل فى شمال نجد .





الفصل الخامس والعشرون

لم يمض ابن سعود زمنا طويلا اثر عودته إلى الرياض حتى كانت المشاكل قد أحاطت به من كل جانب ، فقد كانت هنالك في أسطنبول ثورة قادتها يسمون أنفسهم لجنة الاتحاد والتقدم ، يقودهم ضابط شاب يسمى « انفر » ، وقد قام هؤلاء بتنحية السلطان العجوز عبد الحميد ، ولكنهم استمروا في إحياء سياسته المتعلقة بإنعاش الامبراطورية التركية ، ونظرا لأنهم كانوا من الشباب المتحمسين فقد وضعوا كثيرا من القوة والنشاط فى خططهم ، وأحكموا قبضتهم على أقاليم الامبراطورية كما شددوا قبضتهم على البلاد العربية ، وبصفة خاصة سوريا والمناطق الواقعة على ساحل البحر الأحمر ، وهى الحجاز والمدينتان المقدستان ، مكة والمدينة ، بالإضافة إلى اليمن ومنطقة عسير في الجنوب ، لما كانتا تتسمان به من ثراء ، وحتى يحققوا أهداف هذه السياسة فقد أسرعوا ببناء الخط الحديدى بين دمشق والمدينة ، والذى يمكن بواسطته نقل الجنود والحجاج ، وقام هؤلاء بتعيين الحسين بن علي ، حاكمهم على منطقة الحجاز .

وكان الحسين نموذجا للمسئول العربى الذى يوازيه كثير من النظراء في القسطنطينية . فقد أمضى سنوات كثيرة في المدينة التى نشأ فيها أبناؤه ، وقد تولى كثيرا من المناصب ، وكان مظهره يدل على أنه باشا فى الديوان السلطانى . إذ كان يبدو مهيبا وقد تجاوز الخمسين من العمر وله لحية صغيرة يكثر من الاعتناء بها . وكان بطيئا ومتقعرا في الكلام ، يستخدم الألفاظ العتيقة إلا أنه كان محافظا ومتدينا ومحنكا بكل أساليب الدهاء التركى . وعلى الرغم من كرمه ، فقد كان عنيدا وأتوقراطيا ، وكثير الشك فى الآخرين ، وكان الأتراك يثقون فيه كممثل مخلص لهم .

ولم يمض وقت كبير حتى ظهر الاختلاف بين سياسة ابن سعود وسياسة الشريف حسين ، فقد كانت بين الحجاز ونجد ، سهول اعتادت قبائل عتيبة أن ترعى فيها غنمها وجمالها ، وكانت القوافل تخترق هذه المنطقة من نجد إلى الحجاز ومكة ، وتعتبر هذه المنطقة هى المدخل إلى الحجاز والبحر الأحمر ، وكان ابن سعود قد أعلن حاكميته على قبائل عتيبة ، وحقه في أن يجند رجالا منهم ، وبصفة عامة فقد كان يعتبرهم من رعاياه . وكان ابن سعود قد سار إلى قبائل عتيبة من الشرق وضمهم

إلى حكمه . وأرسل الحسين ابنه عبد الله للاغارة عليهم من الغرب ، فما كان من ابن سعود الا أن تقدم بعيدا وأرسل أخاه سعدا ليتوغل اكثر منه . وكان الحسين فى ذلك الوقت في الجنوب يساعد الأتراك على قمع ثورة في اليمن ، وبمجرد أن قضى على الثورة اتجه إلى قبائل عتيبة وأجبرهم على الخضوع ، وقام رجاله بالصدفة بمحاصرة سعد وأسره ، وعندئذ بدأ ابن سعود فى التجهيز للمواجهة ، الا أن خطرا جديدا جاءه من الخلف فقد قام الذين كانوا طردوه من الاحساء حينما كان لاجئا بإثارة العجمان واتجهوا بهم إلى جنوب نجد حيث حاصروا الرياض ، وقد انضم إليهم « الحزازنه » فى مدينة ليلى وسائر القبائل الخارجة على سلطة ابن سعود وكان على ابن سعود أن يواجه الحقائق ، فقد كانت الحقائق عنده أهم من التظاهر بعدم وجودها ، فلم يحاول ابن سعود من قبل أن يحطم رأسا على صخرة المستحيل إذ أدرك أنه وبهذه الثورة خلفه لا يستطيع أن يقف في وجه معارضيه ، ولكنه في نفس الوقت كان يريد أن يطلق سراح أخيه ، وهكذا استطاع بأسرع ما يمكن أن يصل إلى تفاهم مع الحسين وأقام سلاما محدودا احتوى به الأزمة .

وقام ابن سعود بعد ذلك بالتصرف في سرعة البرق ، فقد كانت الثورة تقترب من الرياض ، وكانت طعنة في القلب ، إذ كانت تهدد مكانته الشخصية . فقد كان يعلم أن هزيمته أو تردده أو مساومته أو حتى تأخره سيكون سببا في القضاء عليه . لذلك فقد ضرب بشدة إذ وجد أبناء خصومه في قرية « حريك » فهجم عليهم قبل أن يستعدوا ، وقام بدحرهم ، وعندئذ هرب العجمان نحو الأحساء وتمكن البعض الآخر من الالتجاء إلى الحسين ، وأما الحزازنة ومؤيدوهم فقد ذهبوا إلى ليلى حيث أحاط بهم ابن سعود وقرر ان يجعل من الجنوب مثالا كما كان الأمر مع الشمال . لقد كان الحزازنة مثل قبائل مطير من رعاياه وأصبحوا الآن فى عرفه خارجين عليه . وهكذا قام دون تردد بالإغارة على أراضيهم ، فقد أرسل رجاله للاغارة على القرى حول قطين والحوطة . وقد عاد إلى ليلى وأجبرهم على التسليم دون شروط وحكم بالقصاص على تسعة عشر من الخارجين ، وقد أرسل ابن سعود الرسل إلى جميع القرى لجمع الناس لمشاهدة التنفيذ ، وأمر ببناء منصة عند بوابة المدينة ثم اتخذ مجلسه عند الفجر في تلك المنصة وكان بجانبه الشيوخ وحرسه الخاص . وهكذا أقام رجال المدن والقرويون والبدو والذين أتوا من كل صوب وحدب وجلسوا على الأضلاع الثلاثة للمربع الكبير بينما كان رجاله يقومون بحفظ النظام ، وكان ابن سعود في تلك اللحظات يتلمظ من الغضب وقد كان مصير كل رجل في ذلك الجمع فى يده .

لقد حضر التسعة عشر المحكوم عليهم يسيرون في صف ، كل اثنين منهم

بحذاء بعض ، وأقعى الجميع عند المنصة . وقال ابن سعود عندئذ « لا حول ولا قوة إلا بالله » ثم أشار إلى سياف زنجي عار ، فتقدم شاهرا سيفه يتبعه معاونوه . وقام هؤلاء بتنفيذ الحكم بكل هدوء ودون إظهار رغبة في التشفى بل كان الرائد هو تحقيق العدالة بكل ما تتطلبه من حزم ، وكان السياف يوخز الرجل فإذا مد رقبته أخذها بالسيف ، وعندما تم التنفيذ في ثمانية عشر رجلا ، وجثا الأخير لتنفيذ الحكم عليه ، أعلن ابن سعود العفو عنه وأخبره أن يذهب ليخبر الجميع بما قد رأى من حكم ابن سعود العادل .

وبعد ذلك وقف ابن سعود وتحدث إلى الناس وكان يهدر بصوته وهو يخبرهم عن جزاء جريمة العصيان . ثم بعد ذلك طلب إليهم أن يقتربوا منه ، وأخذ يتحدث إليهم برفق على أنهم أفراد رعيته المحبوبون . وطلب إليهم ابن سعود أيضا أن يذهبوا ويختاروا رجلا ليكون حاكما عليهم وأوصاهم بأن يخلصوا له ، ووعدهم إن ظلوا مخلصين له أن يدعهم يحكمون أنفسهم فى سلام .

وقد ظل الناس يتداولون قصة مدينة ليلى من قرية إلى قرية ، ومن جلسة نار إلى أخرى ، وكانوا يضيفون إليها من خيالهم . وكان الذى أثار خيال العرب هو شدة العقوبة وعدالتها ، وتنفيذها من غير حقد ، ثم كرم ابن سعود في آخر الأمر ، وكان العرب يقولون هذا هو الرجل الذى يجب أن يحكمهم فارس مغوار وحاكم عادل يعرف عقله جيدا ويتصرف بدون تردد ، وهو فى آخر الأمر رجل يهاب ويطاع ، ولقد سمعت أقصى القبائل بتلك القصة وهابت ابن سعود ، فقد كانوا يعرفون معنى القوة والعدالة ، وكان ابن سعود يتميز بالاثنين معا إذ كان قادرا على أن يكون سيدا وحاكما .





الفصل السادس والعشرون

وأخيرا وجد ابن سعود فسحة يتنفس فيها الصعداء ويعمل على تأمين موقفه ، فقد تمكن من القضاء على ابن الرشيد وانقسمت العائلة بسبب المنازعات الداخلية ولم تستطع بالتالى أن تفعل شيئا ضده . ولم يكن عند قبائل شمر القائد المناسب ، فقد استطاع ابن سعود أن يقضى على سائر الثورات الداخلية وتمكن من طرد الأتراك خارج بلاده . وفي ربيع عام ١٩١٣ توغل إلى جنوب القطر وقد أصبحت الادارة والعدالة كلها في يده ، وقد كانت هنالك نزاعات وقضايا كثيرة تنتظر علاجها ، وقد صمم ابن سعود أيضا على أن يعلم الخارجين على النظام درسا واحدا وهو أنه القائد ، وبدون إذنه فلن تكون هنالك إغارة ، لقد ظل البدو يعتبرون الإغارة حقا توارثوه من أزمان بعيدة لا يكاد يذكرها أحد . وكانت الإغارة بعد نسائهم هي متعتهم الوحيدة ، ومثل كثير من الألعاب فقد خضعت الإغارة لبعض القوانين والأعراف التاريخية ، ومنها إثارة التراب والصياح واللعب بالسيف والركض بالخيل والنهب للفائزين ، ولكن الفائزين كانوا يحرصون على عدم إيذاء الآخرين إذا تمكنوا من ذلك .

وكان ذلك يعني بصورة عامة ، العيش في حالة تفتقر إلى الأمن وهكذا أصبحت جميع المسالك غير آمنة والتجار يرغمون على دفع الأتاوات إلى شيوخ القبائل ، وحتى بعد ذلك فإنهم يخضعون للنهب . وهكذا عاش سكان القرى في حالة خوف دائم من غزوات البدو .

وقرر ابن سعود أنه سوف يقضي بصورة نهائية على ذلك النمط من الحياة ، ومن أجل تحقيق ذلك فقد جعل الطرق آمنة وأهل القرى يعيشون فى سلام واطمئنان . وقد أمر بمنع سائر أنواع الاغارة ، ولكن أوامره قد انتهكت ، وقد جاءته الأخبار أن إحدى قبائل مرة قد اعترضت قافلة كانت تسير تحت حمايته الخاصة ؛ فقرر على أثر ذلك ان يلقن البدو درسا ، وهكذا هاجم تلك القبيلة دون انذار ولم يخلف سوى بعض الخيام السوداء فوق الرمال لتعلن للناس أن كلمة ابن سعود هى القانون في سائر أنحاء الصحراء ويجب أن تطاع .





الفصل السابع والعشرون

كانت عادة ابن سعود أن يقوم بكل أعماله في العلن ، وحين يكون في الرياض كانت عادته أن يجلس على درج القصر مواجها فناءه . وحين يكون فى حملاته العسكرية فإنه يجلس في مقدمة خيمته . وفي القرى وحين يكون الوضع مناسبا تعود أن يجلس في الميدان الفسيح . وفي الغالب كان يجلس على أعتاب المسجد وكان يجلس حوله الشيوخ المحليون والرؤساء وحرسه ، وهم رجال ضخام اختيروا من بين المقاتلين بالإضافة إلى الزنوج حراسه ، والذين كانوا يلبسون الجلابيب الطويلة ، وكانوا جميعا يحملون السلاح ، إلا قلة منهم تحمل العصى الغليظة ، ويكون السيافون معهم .

وكانت جميع القضايا تعرض عليه ، ومنها المنازعات حول الآبار ، وحق المرعى ، والنزاعات حول الحدود وقنوات المياه وملكية الجمال ، ودعاوى السرقة والنهب والأذى ، وسائر أنواع الشكاوى ، وكان كل رجل يمتلك الحق في أن يمثل أمامه دون واسطة أو اعتراض ، وكان عبد العزيز في بعض الأحيان سهلا ومتسامحا ، وفي أحيان أخرى حازما وسريع الغضب من أثر كلمة أو معارضة ، وكان يمتلك استنادا على شريعة القرآن التى نظمت عقوبات الجرائم ، سلطة الحياة والموت والتغريم . وكان عبد العزيز يتناول كل قضية بنفسه أمام المدعى والمدعى عليه ، ولم يكن هنالك محامون يعقدون المسائل أو يظهرون الأبيض من الأسود . فقد كان ابن سعود يستمع إلى الأدلة ، وبسرعة يصدر الحكم العادل الذى لم يكن له استئناف قط .

لقد اتهم بدوى بالسرقة ، وقد وقف المدعى وأقسم أن الرجل قد وجد خرجا إلى جانب جمل نافق فأخذه ، وكانت الأدلة واضحة ، وهكذا أصدر ابن سعود حكمه . وعندئذ أخذ السياف الرجل إلى منتصف الميدان وقطع يده اليمنى ثم غمسها فى الزيت الحار لإيقاف النزف ، ثم ساقه رافعا يده حتى يراها الجميع .

وقد اتهم رجل وامرأة بالاباحة في حياتهما ، فقد كانت المرأة بغيا وكان الرجل قد أحضر شرابا مسكراً من الكويت ، فأصدر ابن سعود أوامره بنفيها من المدينة وأن يجلد الرجل في الحال أمامه ، وإذا عاش بعد ذلك ينفى إلى الأحساء .

وكانت هنالك مشاجرة قتل فيها رجل ، ووقف القاتل وقد حكم عليه بالقصاص إلا ان أهل المقتول قبلوا أخذ الدية وهكذا أخلى ابن سعود سبيله .

وقد جاءت امرأة وهى تصيح أن بقرة جارها قد دخلت إلى مزرعتها وأكلت سائر زرعها ، وقد أنكر الجار ذلك بعد حلف اليمين فما كان من ابن سعود إلا أن أتى بجزار ذبح البقرة وشق بطنها فوجدها ملأى بالحشيش ، فما كان منه إلا أن أمر الرجل بأن يأخذ اللحم وأن يدفع خسائر المرأة وغرامة كبيرة على حلفه اليمين كذبا .

وقد طالبت امرأة بتطبيق القصاص على قاتل زوجها فسألها ابن سعود : وما الدليل على أنه قتله ؟

فقالت المرأة : كان هذا الرجل يقطع البلح من إحدى النخلات وكان زوجي يجلس تحته ، فوقع الرجل على زوجى وكسر عنقه ، وهكذا جعلنى أرملة ويتم أبنائى .

فقال ابن سعود : وهل وقع الرجل فوق زوجك عامداً ؟

قالت المرأة : لا يهمنى ذلك ، كل ما أعرفه أن زوجى قد قتل وأصبحت وحيدة .

قال ابن سعود : وهل تأخذين التعويض الذى آمر به ؟ أم ما تزالين تطالبين بدم هذا الرجل ؟

قالت المرأة : إن دمه حلال على .

قال ابن سعود: بعد صمت قليل ، إذن ليكن هذا هو الحل ، أن دمه من حقك ولكن كيفية قتله هى من شأنى .

قال ابن سعود : إن طول النخلة هو أربعون قدما وإنى آمر أن يقيد الرجل تحتها وأن تصعدى انت فوق الشجرة ثم تسقطى فوق المتهم وتقتليه . اذهبى وخذى حقك ، وإذا لم تشئى ذلك فسوف أحكم لك بالتعويض .

ولم تكد المرأة تسمع ذلك حتى قبلت أخذ الدية وانصرفت .

وفي كل الأحوال كان ابن سعود صوت نفسه فى المحاكمة . كان يجلس حوله سواء كان ذلك في المدينة أم فى الصحراء ، رجال كثيرون يستمعون إليه ويراقبونه ويثمنونه ويقدرون قيمته ، ولم يكن ابن سعود من الرجال الذين يخبئون أنفسهم وراء عجلة حكومية ، أو وضع متميز يمنحه حكمة زائفة . كان ابن سعود هو نفسه الحكومة والقاضى فإذا تردد أو أظهر عدم معرفة بالقانون والأعراف ، أو ضعفا أو عدم قدرة على الحكم فإن الجمهور الذى يراقبه تحت ضوء الشمس سوف يلحظ على

الفور ، ولو حدث ذلك لسارت الكلمة أن الحاكم لم يعد حاكما ، وعندئذ سوف تبدأ المشاكل في القرى وسوف يتوقف الناس عن دفع الضرائب ويرفضون إرسال المقاتلين إليه ، وإذا تردد ابن سعود فربما تطور الشغب إلى مستوى الثورة .

حقا لقد كان ابن سعود مطلقا في حكمه ، ولكنه كان يستند في ذلك إلى حكم الشريعة ، وكان عليه أن يحكم بذكاء وشجاعة وحكمة ، وفي العلن أمام الناس لأنه لو لم يفعل ذلك لرفضه الناس .





الفصل الثامن والعشرون

عندما بدأ ابن سعود السفر إلى الجنوب ، أتت إليه عيونه بأخبار تؤكد بأن أعداءه قد بدأوا يتجمعون ضده ، وكما هو معلوم فإن الصحراء مجال كبير للإشاعات ، إذ لا يوجد في الصحراء شيء يعتبر سرا . لقد عاد الدويش مرة أخرى إلى مطير . وكان العجمان ينتظرون فرصتهم للاغارة على بعض قرى نجد ، وكان الحسين في الجنوب قد بدأت تحدوه كثير من الآمال ، ذلك أن الأتراك ظلوا يرسلون الأموال والوعود ، وكانوا يجمعون الجنود في بغداد ويرسلونها إلى حاكم الهفوف عاصمة الأحساء ، وذلك من أجل مساعدة العجمان في مواقفهم المتقلبة مع ابن سعود ، وفجأة جاءت الأخبار أن حكومة أسطنبول قررت استدعاء سائر القوات من بغداد والبصرة والهفوف ، وذلك بسبب الهزيمة التي منى بها الأتراك على يد الإيطاليين في طرابلس ، وقد أعلن البلغار كذلك الحرب ، وبدأت قواتهم تتقدم نحو أسطنبول وهكذا غدت الامبراطورية التركية في خطر أكيد على وشك أن يصيب مركزها .

ولقد رأى ابن سعود أن فرصته قد حانت ، ذلك أن الأتراك قد كانوا على الدوام هم الخطر الذي يهدد طموحاته ، كان ابن سعود يرى أنه قادر على التعامل مع المطير والعجمان وشمر وابن الرشيد وحتى الحسين ، لأنهم جزء من مشاكل الجزيرة العربية العادية ، إلا أن الأتراك في نظره يشكلون قوة كبرى تقف خلفها ألمانيا وهو غير قادر على مواجهتهما معا . لقد حانت الآن الفرصة كي يطاردهما خارج الأحساء . وعلى الرغم من ذلك فقد ظل ابن سعود يتحرك بحذر شديد ويخطط لنفسه بدقة ، فقد أرسل العيون إلى الأحساء والهفوف وقد أكدت له هذه العيون ما كان قد سمعه من قبل وهو أن حاميات الهفوف والساحل قد خفضت وأن معظم القوات التركية قد اتخذت طريقها نحو الشمال في سرعة بالغة ، وقد أكدت له العيون أيضا أن أهالي الأحساء وبصفة خاصة سكان الهفوف قد سئموا الاتراك ، لأنه لم يكن هنالك أمن تحت حكمهم سواء بالنسبة للممتلكات أو الارواح ، وسواء كان الإنسان ساكنا في قرية أم في مدينة محصنة . كان القطر في عهدهم مليئا باللصوص وكانت القبائل تعيش حالة من الفوضى وليس هنالك من يسيطر عليها ، كان البدو يغيرون دون أن تكون ثمة سلطة تقتص منهم ، وكانوا يسيرون في القرى دون خوف ويأخذون كل شيء

تقع عليه أعينهم . كانوا يسرقون الأبقار تحت سور مدينة الهفوف وكانوا في بعض الأحيان يهزأون بالأتراك ، ويقطعون الطرق ليأخذوا من الناس والقوافل الأتاوات ولم يكن أحد يجرؤ على السير فى الظلام أو يسافر دون حراسة ، والحراس يطلبون كثيرا من المال والرشاوى ، وحتى الطريق القصير بين الهفوف والبحر لم يكن آمنا ، وقد حدث قبل أسابيع قليلة أن قام اللصوص بمهاجمة فرقة تركية ، وقتلوا قائدها وسرقوا خمسمائة جمل بحمولتها ومن ناحية أخرى فقد تحول المناصير وهم من صيادى اللؤلؤ إلى قراصنة ، ولم تعد السفن تجرؤ على الاقتراب من ميناء العقير . وكان الاتراك عاجزين عن فعل شىء ، فإذا أرسلوا جنودا تعرض لهم البدو وقتلوهم أو جردوهم حتى من ملابسهم وأرسلوهم بعد ذلك في سخرية بالغة .

وقالت العيون إن الناس سوف يرحبون بابن سعود لأن هنالك الكثيرين الذين يؤيدونه بالإضافة إلى أن الحامية فى الهفوف لم تكن قوية ، ويمكن بسهولة السيطرة عليها إذ لم يكن هنالك حراس نظاميون ، وكان معظم الجنود يقيمون في القلعة الكبيرة وكثيرون آخرون موزعون في داخل المدينة .

وعلى الفور أرسل ابن سعود نداء إلى سائر القبائل يطلب منها إمداده بالرجال وقد ذكر في دعوته أنه يريد أن يسير إلى بنى مرة ، وعندما وصل الجنود وضح لكل جماعة موقعهم فى المعسكر ، وخصص لهم طعامهم وشرابهم وأعطاهم حصتهم من الجمال ، ولما تجمع لديه سبعة آلاف من الرجال ، بدأ التحرك ، وقد تخير ابن سعود ليلة لا يظهر فيها القمر واتجه شمالا ثم سار بعد ذلك شرقا وذلك حتى يسبق أى شخص يحاول أن ينذر بتحركه . وسار ابن سعود عبر صحراء الدهناء إلى الأحساء ثم اتخذ طريقه بصورة مباشرة إلى الهفوف .

واختار ابن سعود سبعمائة رجل وتوجه بهم بصورة مباشرة إلى الواحة التى حول المدينة وعسكر في الظلام عند أشجار النخيل التى بالقرب من بوابة إبراهيم باشا . وكانت القناة قد حفرت حديثا ، وأما سور المدينة فقد بنى من قطع كبيرة من الأحجار الرملية ولكنه كان ضعيفا في كثير من المواقع ، وكانت هنالك مسافات في السور تقف عليها أبراج الحراسة وقد اختار ابن سعود مكانا كان السور فيه قصيرا وعسكر فى القناة الجافة ثم أخذ يتصنت السمع وينتظر الفرصة المناسبة وكان أحد الحراس قد سمع بعض الأصوات ، فحاول أن يتبينها ولكنه استمر في تأدية عمله دون اهتمام وفي الحال قام جنود ابن سعود وتسلقوا السور ، وفي هدوء تام وهم حفاة الأقدام قاموا بطعن الحراس وقد توجه بعضهم إلى البوابات حيث قتلوا الحراس وفتحوها ليدخل سائر الرجال وحتى تلك اللحظة لم يتنبه أحد ، إذ كانت المدينة تغط في نوم عميق .

وسار الجنود إلى سوق الخميس ، ثم إلى القلعة وهى مبنى مربع كبير يسيطر على المدينة بأسرها ، وقام الجنود بفتح البوابة وكان الحراس يغطون في النوم ، واستخدم رجال ابن سعود في هجومهم المُدى ، وأصاب الجنود الأتراك الذعر في ظلام الليل الدامس . ولم يكد يمضى وقت قليل حتى كانت غالبية الحامية قد أفنيت واستطاع رجال ابن سعود أن يسيطروا عليها سيطرة كاملة . وبمجرد أن انبلج الصبح ، ركب ابن سعود عبر البوابة يسير أمامه حامل علمه ، وخلفه الجزء الأساسى من جيشه . وبمجرد أن رآه أهل المدينة اندفعوا نحوه يرحبون به . وعندئذ جرى الحاكم وما تبقى من الحامية إلى مسجد إبراهيم واحتموا فيه وأرسل إليهم ابن سعود ينذرهم بأنهم إذا استمروا في المقاومة فسوف يكون مصيرهم الفناء ، وأخبرهم أنه ليس أمامهم أية فرصة للمقاومة أو الهرب ، وأخطرهم أنهم لو استسلموا فسوف يجعلهم يمضون في سلام ، وسوف يؤمن رحيلهم ، وقبل الحاكم إنذار ابن سعود وأوفى ابن سعود بوعده ، وترك الحاكم يخرج بسلام وقدم له ابن سعود كل احترام ، وأوصله إلى الشاطىء هو وجنوده حيث ركبوا سفينة سارت بهم إلى البصرة ، وبعد ذلك سار ابن سعود في الأحساء ، وقد تدافعت القبائل تعلن ولاءها له واستطاع ابن سعود ان يستولى على ميناء العقير والقطيف وسائر الساحل حتى حدود الكويت وعين جلوى حاكما على الإقليم وقد استقبله الناس بحفاوة بالغة ، وقالوا إن يد ابن سعود سوف تطال من لم يذعن بالطاعة ، وكان الناس في عمومهم يريدون السلام والأمن وقد قبلت الحكومة التركية الوضع إذ لم يكن أمامها خيار غير ذلك ، وقامت هذه الحكومة بتوقيع اتفاقية مع ابن سعود وقد اعترف الأتراك بالأحساء كجزء من نجد كما اعترفوا بابن سعود حاكما على الاقليم كله ، ومنحوه وساما ووعدوه بكثير من المساعدات ، وأخبروه أنهم لن يتدخلوا في شئونه في المستقبل .





الفصل التاسع والعشرون

لقد زاد فتح الأحساء من أهمية ابن سعود لأنه استطاع بذلك أن يسيطر على الساحل ومينائين مهمين ، ولم يعد أمام الإنجليز خيار فى وضع ابن سعود في الحسبان في أى خطط مستقبلية في الخليج العربى ، لا سيما وأنه بدأ يتكلم بكلمات كبيرة ويزعم أن الأراضى الجنوبية وأراضى العتيبة حتى البحر الأحمر ، والأراضى حتى المحيط الهندى هى من سلطانه ، وكما يبدو واضحاً فإن كل جهود ابن سعود قد تركزت على القتال ولكنه مع تحقيق النجاح المادى بدأ يقنع أن كل ما علمه إياه والده في الماضى كان حقا . إذ أنه يقوم بعمل يرضى عنه الله ، فقد تعلم ابن سعود أن العرب كانوا أمة قوية يحكمون امبراطورية عظمى دعائمها تقوم على الإسلام ، ولكنه رأى العرب من حوله يتناحرون بسبب العداوات والحسد والمذاهب والعنصر ، بحيث ذهبت ريحهم وأصبح بعضهم يحكمون بواسطة الأجانب والمسيحيين . لقد كان هدف ابن سعود أن يوحد كلمة العرب تحت راية الإسلام ، وأن يقود الأمة من جديد لاستعادة عظمتها السابقة .

وعلى الرغم من أن ابن سعود كان يتقيد تقيدا صارما بتعاليم الدين والتقاليد السائدة فى بيئته فهو لم يحاول أن يبتعد عن العصر الذى يعيش فيه ، لأنه كان يعلم أن الإسلام هو دين تقدم وعمران . فقد اشترى ابن سعود « جرامفونا » ، وكان مسرورا جدا به . ولكن جاءت مرحلة كسر فيها الجرامفون ، ورفض سماع الموسيقى ووقف صارما ضد أى اتجاه ينذر بالارتخاء .

وعلى الرغم من أن شمر كانت فى تلك المرحلة بلا قيادة ، ولم يكن للحسين جيش يعتمد عليه ، فقد رأى ابن سعود أن من الأفضل له أن يدعم المناطق التى فتحها وذلك قبل أن يفكر في التوسع ، وهكذا كبت رغبته في القتال ، وبدأ يتحدث مع الحسين بكلمات طيبة ، ولا يعنى ذلك أنه كان يؤيد سياسته في التحالف مع الأتراك أو الإنجليز .

وظل ابن سعود على علاقة طيبة مع مبارك ، وكان يناديه بعبارة والدى ، ويطلب مشورته من وقت لآخر ويستمع إليه . وجاءته رسائل من سوريا تطلب مساعدته ، ذلك أن الحكومة التركية الجديدة بدأت تركز على الداخل وتتبع سياسة

المركزية ، ويعنى ذلك أنها بدأت تفرض على السكان المحليين أن يصبحوا أتراكا . وبدأت الحكومة تطبيق قانون التجنيد الإجبارى على السوريين وفرضت ضرائب جديدة على الناس ، وكان السوريون يشعرون بالغضب ، وعلى استعداد للثورة . لقد كان السوريون تحت حكم السلطان عبد الحميد يدبرون شئونهم بأنفسهم وهم الآن يرفضون أن يصبحوا اتراكا لأنهم عرب ، ويعتزون بأنفسهم ويرفضون التجنيد في الجيش التركى أو دفع الضرائب الباهظة .

وبدأت اللجان في سورية تستعد للمقاومة والثورة ، وكانت دمشق هى مركز حركة المقاومة . وكانت اللجان تعمل على اقتلاع الأتراك وتوحيد العرب بأسرهم في دولة اتحادية واحدة . وقد ناقشوا الفكرة من قبل مع الحسين ومبارك ، وحصلوا على موافقتهما ، ولقد استمع ابن سعود إليهم . وكان معتزا مثلهم بكونه عربيا ولا يسمح للأتراك بأن يحكموا بلاده ، ولكنه رأى أن ما سمعه من اللجان كان مجرد أمان وأحلام لا يدعمها الواقع إذ لم تكن هنالك خطة عملية لتحقيق تلك الوحدة ، ولذلك فقد انصرف ابن سعود إلى عمله الجاد .

كانت المشكلة الأساسية التى تواجه ابن سعود هى الاستقرار ، لقد استطاع السيطرة على نجد والأحساء بقوة كفاحه ، ولكنه كان يعرف أن القبائل متقلبة المزاج فإذا ضعف أو تراخى فإنهم سينقلبون عليه ، كانت الأقلية من السكان هى سكان القرى والمدن ، ويمكن الاعتماد عليهم ، ولكن الغالبية كانت من البدو وهؤلاء لا يقيمون على حالة واحدة وإنما يتحولون بحسب مصالحهم في الإغارة ، ونظرا لأنهم يتحركون بصورة مستمرة فليس هنالك ما يقيدهم على حال واحدة . إذ يمكن أن يتغيروا من حال البكاء إلى حال الضحك ومن القتل إلى منتهى الكرم بمجرد سماع كلمات معسولة . لم يكن هؤلاء يركزون على شىء ، إذ أن الذى يحكمهم هو القلق المستمر وكان ابن سعود يعرف بخبرته أنه لا يمكن أن يعتمد على أناس يتقلبون في مزاجهم لأنهم في الوقت الذى ينتجون فيه قليلا ، فإن أضرارهم في وقت الشدة جسيمة كانوا يغيرون مواقفهم من الضد إلى الضد فى أوقات القتال . وعلم ابن سعود من تجاربه أن العقوبات توقفهم لفترة قليلة ، لكنهم يعودون من جديد إلى ما اعتادوا عليه لأن ذلك جزء من تقاليدهم وأساليب حياتهم لذلك بدأ يفكر جيدا في تغيير نمط الحياة الذى يعيش عليه هؤلاء ، وذلك بوقف النزاعات الدموية وجعل البدو يؤمنون بأن الولاء لله فوق الولاء للقبيلة ، وأن ذلك هو السبيل الوحيد لتوحيدهم تحت لواء أمة واحدة ، وقائد يدينون له بالطاعة ، وكان من خططه أن يوسع الرقعة الزراعية فى نجد ويدخل إليها كثيرا من البدو وذلك فى رأيه هو سبيل الاستقرار الذى يؤدى في النهاية إلى القوة .

ولقد بدأ ابن سعود يعمل في حذر لعلمه بكثير من المشاكل التى تنتظره ولكن ابن سعود كان خبيرا في معرفة نفوس شعبه . كان الدين هو أساس مشروعه الكبير وكان يعلم أن الدين هو الشيء الوحيد الذى يمكن أن يلهب حماس الناس للسير تحت قيادته ، ولكنه كان يعلم في نفس الوقت أن كثيرا من الفوائد المادية .. يجب أن تتحقق للناس حتى يستمروا في حماسهم ، ولذلك فقد بدأ يفكر في كسب تأييد القادة الدينيين في المقام الأول ..

كان من بين العوائل الكبيرة في الرياض أحفاد الشيخ محمد عبد الوهاب الذى عمل جنبا إلى جنب مع سعود الكبير ، وقد قام ابن سعود بالزواج من هذه العائلة الكبيرة ، وأثمر زواجه ابنا أسماه فيصلا . (الملك فيصل رحمه الله) وكانت هذه العائلة تنجب العلماء الذين يرجع إليهم الناس في كثير من الشئون الدينية ، وكان حول كل عالم عدد من التلاميذ يقومون بالإمامة والأذان بالإضافة إلى المطوعين الوعاظ .

ولقد استشار ابن سعود والده في ذلك وبارك عبد الرحمن طريق ابنه ، وكان عبد الرحمن يشعر بالسعادة حين يستقبل ضيوفه ، ولكنه في غير مواعيد الصلاة لم يعد يراه أحد . وكان نادرا ما يخرج من القصر ، إذ أنه أخلد إلى الراحة وكان يقضى معظم وقته في قراءة الكتب الدينية واكتسب بذلك سمعة كبيرة . وكان عبد الرحمن رجلا محترما بمعنى الكلمة .

واجتمع ابن سعود مع العلماء بحضور والده وتناقشوا في مسألة السلطة ، واستطاع ابن سعود بقدراته الفائقة أن يكسب ثقة العلماء ، وبذلك بدأ في وضع مشروعه الكبير موضع التنفيذ ، إذ كان هدفه أن ينشيء قوة إسلامية مقاتلة بدلا من القوة القبلية المتقلبة وقد أسمى هذه القوة (الإخوان) ، وصدرت الأوامر في الحال للوعاظ أن يسيروا في القبائل ليعظوا بمبادىء الإسلام ، ويخبروا الناس أن على المسلم ألا يبيح دم أخيه المسلم ، وأن يكون الولاء لله سبحانه وتعالى ، ويدعوهم إلى التوجه للزراعة لأن ذلك هو السبيل كى يكسبوا رضى الله سبحانه وتعالى .

لقد كانت « عرطوية » مكانا مهجورا ، غير أنه كانت فيها بعض الآبار ماؤها قريب من السطح ، تستخدمها القبائل والمسافرون ، وحين لم تكن تستخدم كانت تغطى بالأشجار لتمنع عنها تدفق الرمال وكان إلى جانب الآبار بعض الأرض المهجورة وأشجار النخيل ، وقد ساعد ابن سعود « متعبا » وبعض المتطوعين بأن اعطاهم بعض المال وأحضر لهم بعض سكان القرى ليعلموهم كيف يفلحون الأرض ، وقسم ابن سعود الأرض وخصص لكل فرد نصيبه من الماء ، وساعد الناس على بناء مسجد وبعض الأكواخ من الطين ، وجلس أخيرا يراقبهم وهم يهجرون خيام

الشعر إلى الأكواخ في القرى الجديدة .

لقد بدأت التجربة بصورة حسنة وقبل أن يفتر حماس البدو أرسل إليهم ابن سعود شيخا يعظهم وينشيء أول مدرسة فى مقر إقامتهم الجديدة . وأرسل لهم مزيدا من المال والتقاوى لمساعدتهم في الزراعة ، كما أعطى كل رجل بندقية وبعض الذخيرة ، بشرط أن يسجل كل مستلم اسمه في قائمة المصلين بالمسجد .

وبدأت المستعمرة تزدهر وكانت هنالك رقابة في أول الأمر ، ذلك أن بعض السكان كانوا قد تعودوا على حياة الكسل ، والرعى ، ولم يكن التحول إلى الزراعة بالنسبة إليهم شيئا طبيعيا . كانوا يتوقعون أن تنتج الأرض دون أن يقوموا فيها بأى جهد متكلين في ذلك على الله إلى أن أوضح لهم الوعاظ ضرورة العمل أولا ، ثم الاتكال بعد ذلك على الله ، وعندما بدأ المال يجرى فى أياديهم أخذوا يشعرون بأن ذلك حرام عليهم ، حتى جاء الوعاظ وشرحوا لهم أن النبى ﷺ قد حث المسلمين على أن يعملوا ويكونوا الثروات .

لقد ازدهرت « عرطويـة » وأصبحت مدينة ، وأصبح سكانها من أكثر الناس تدينا . ولقد تركوا عاداتهم القديمة وأصبحوا من الملتزمين بالقرآن الكريم التزاما قويا ، وأصبح هؤلاء ينظرون إلى غيرهم من البدو على أنهم يعيشون فى الظلام ، وغيروا غطاء رأسهم إلى العمامة ، وكانوا مستعدين دائما للقتال في سبيل الإسلام وكانت صيحتهم في الحرب « حنا فرسان الوحدة ، وأخوان من طاع الله » .

وجاء مزيد من المتطوعين وبدأ الحماس يدب في قبائل المطير ، وأصبح فيصل الدويش واحدا من الاخوان وأعلن ولاءه لابن سعود ، فعينه ابن سعود حاكما على « عرطوية » وبدأ ابن سعود يوسع مشروعه حول عرطويه ثم اتجه ليبنى مناطق وقرى جديدة ، وكان ابن سعود حريصا على أن يمازج بين القبائل ويشيع فيهم الحماس . وربط بين القرى بوشائج قوية ، بحيث غدت كل قرية تنظر إلى الأخرى على أنها جزء منها وامتداد لها . ولا صلة لها بالواقع القبلى في الصحراء الواسعة ، وبعد أن اتسعت القرى شرع ابن سعود يختار مقاتليه من بين سكانها بدلا من القرى والمدن القديمة كما كان شأنه في الماضى .

الجزء السادس



الفصل الثلاثون

لقد بدأ الانجليز والالمان يقفون في مواجهة بعضهم بعضا في تلك المرحلة وذلك في جميع القارات والبحار ، حاشدين قوى عظيمة لهذا الغرض . كان الالمان يمتلئون حيوية وشبابا ويشعرون بالتضخم السكانى في داخل بلادهم ، وكانوا لأجل ذلك يوظفون تجارتهم وسفنهم ودبلوماسيتهم من أجل التوسع . وفي كل مكان ذهبوا إليه وجدوا الإنجليز أمامهم وقد حازوا على كل شيء يطمحون إليه ، ولا سيما الأراضى العربية والممرات المائية حولها ، وتلك هى الطرق نحو الهند والشرق ، فمن ناحية سيطر الإنجليز على مصر وقنال السويس والبحر الأحمر ، ومن ناحية أخرى سيطروا على العراق والخليج العربى ، وبين الخليج العربى والبحر الأحمر هناك الجزيرة العربية التى تهدد كلا الطريقين . وعلى الرغم من أن الألمان وجدوا حلفاءهم الاتراك هم السادة الاسميون على الجزيرة العربية ، فإن الإنجليز هم الذين يسيطرون بصورة فعلية ، ويقفون حجر عثرة أمام طموحاتهم ، وذلك ما جعل الألمان يتصرفون بغضب في مواجهتهم .

لقد وصلت الوفود والرسائل السرية من كلا الجانبين إلى كل حاكم فى الجزيرة العربية وإلى إمام اليمن ، وإلى الحسين في مكة ، وإلى أبناء الرشيد وإلى العجيمى شيخ المنتفق ، وإلى الشيخ مبارك ، وإلى ابن سعود ، وكلها تعد بالذهب والبضائع والمصالح المشتركة .

وجاء إلى ابن سعود من الكويت المستر شكسبير القنصل البريطانى ، كما أتى اليه من المدينة والبصرة مندوبون أتراك وألمان ، وكان ابن سعود يستمع إليهم جميعا وكان الموقف صعبا جدا ، إذ كان ابن سعود يرى أن الحرب بين الإنجليز من جهة والاتراك من جهة أخرى هو أمر وشيك جدا . وكان لا يدرى مع من يتحالف ؟ كان ابن سعود نصف مقتنع بأن الحياد هو أفضل سياسة بالنسبة له ، ولكنه لم يكن قادرا على أن يظل معزولا لأن الحكام بأسرهم من حوله كانوا يتخذون حلفاء من بين الطرفين المتصارعين . لقد تحدث ابن سعود مع كل من أتى إلى الرياض وكانت تأتيه الصحف من القاهرة وبغداد ودمشق ، ولكن هذه الصحف لم تسعفه بأية مساعدة لتحديد رأيه .

كان الاتراك هم القوة القريبة منه ، وكان خلفهم الألمان وهم أغنياء وأقوياء وكانوا أعداءه وهم متحالفون مع ابن الرشيد وكان هدفهم هو أن يسيطروا على نجد بدلا من ابن سعود ، وكان الإنجليز في الظاهر على علاقة حسنة ، ولم يكونوا فى حاجة إلى نجد ، وانما كانوا في حاجة للطرق المفتوحة من أجل المحافظة على إمدادات البترول من إيران ، وكانوا على استعداد للاعتراف به حاكما مستقلا . وكان الانجليز أيضا أقوياء وأغنياء ، وقد راقبهم ابن سعود يأتون إلى الخليج العربى من الشرق ، وكان يعلم عن حكمهم في مصر والهند وعن حلفائهم في مسقط وحضر موت وعمان وعدن ، وعن سفنهم وثرائهم وقوتهم . وقد رآهم وهم ينذرون الأتراك وابن الرشيد في الكويت . ورأى كيف أن الاتراك لم يكونوا يجرؤون على مواجهتهم حتى والالمان خلفهم ، وكان ابن سعود ذا علاقة حسنة مع ممثلين للانجليز في منطقة الخليج ، وهما المستر كوكس والمستر شكسبير وكان ابن سعود يسمع من والده أن الإنجليز هم الذين يديرون سياسة العالم . ولكن بينما كان الالمان والاتراك بالقرب من البصرة وبغداد والبحر الأحمر ، كان الإنجليز بعيدين عنه وكانت أقرب قواتهم إليه هى تلك التى في الهند .

لقد تردد ابن سعود ماذا يفعل ؟

وقرر أن يذهب ليستشير مبارك ، لأن لكليهما مصالح مشتركة في هذا الأمر ، واذا استطاع الالمان أن يمدوا الخط الحديدى إلى الكويت فإن ذلك يعني انتهاء استقلال الكويت ونجد على السواء ، وعلى الرغم من بعض الخلافات التي نشأت في السنوات الماضية بين ابن سعود ومبارك فقد كان ابن سعود دائما يقول : مبارك في مقام والدى وأنى لن أتردد في أن أناقش معه مشاكلى . والتقى الإثنان في قرية على الحدود بين الكويت ونجد ، وجاء مبارك بكل موكبه الكامل يتقدمه حملة البنادق ، وكان هو على عربته التى تجرها الخيول ، بينما كان خلفه حراسه يلبسون بزات زرقاء مذهبة لقد استقبل مبارك ابن سعود بحفاوة بالغة وجلسا معا يتناقشان . وقد جلس على جانب مبارك وهو رجل حكيم أخذ يصبغ لحيته وحواجبه ليغطى آثار السنين عليهما ، وعلى الجانب الآخر جلس الشاب الفتى ابن سعود يمتلىء قوة وحيوية ، ولكنه يظهر الاحترام ويريد من مبارك أن يتخذ المبادرة . لقد تحدث الإثنان بدبلوماسية ، وكان يحاولان اخفاء أوجه الخلاف بينهما ، إذ لم يتعرضا لشىء سوى المسائل الكبيرة وقد كانت نصيحة مبارك لابن سعود هى أن يتجنب التحالفات ، وقد أوضح مبارك من خلال مناقشة ذكية أهمية الوقوف على الحياد بين الإنجليز والاتراك وكان مبارك في نفس الوقت يتحرك من خلال دبلوماسيته القديمة ، وانتهى الاجتماع بينهما بمنتهى الاحترام ولكن كلا منهما كان يفكر في الأمر بطريقة مختلفة . لقد أدرك مبارك أن

ابن سعود لم يعد ذلك الصبى الذى كان في الكويت وأنه أصبح قادرا على أن يحدد السياسات التى تخدم مصالحه ، كما أدرك ابن سعود أنه لا بد وأن يصل إلى الرأى بنفسه لأنه لا يريد أن يجعله الحلفاء محصورا في الصحراء الداخلية للجزيرة العربية . وهكذا لم يستطع ابن سعود أن يصل إلى قرار ، وأخذ ينتظر تطور الأحداث ، وكان يتحدث مع جميع الأطراف ، يبيع للأتراك الجمال بأغلى الاسعار ، بينما يتحدث إلى شكسبير ويأخذ منه السلاح والمال .





الفصل الحادى والثلاثون

لقد ظل ابن سعود في صحرائه يراقب الموقف ويقيم حساباته ، وفجأة اندلعت الحرب العالمية ، لقد تجمعت في تلك الحرب كراهيات الشعوب ومناوراتها من أجل مصالحها الدولية . وجاءت الحرب مفاجئة كأنها لص في آخر الليل . وتقدمت كل من فرنسا وروسيا لسحق المانيا ، وتبعتها انجلترا وعدد آخر من الدول ، وبعد ثلاثة شهور أعلنت تركيا الحرب إلى جانب المانيا ، وكان ذلك تحصيل حاصل لأن المنافسة بين الاتراك والالمان من جهة والانجليز من جهة أخرى كانت على أشدها منذ زمن طويل ، ولم يكن ابن سعود قد حدد موقفه من الحرب بينما كان الشيوخ جميعا قد حددوا مواقفهم وبدأوا ينادون رجالهم ، وأرسل ابن سعود رسله إلى سائر الشيوخ يقترح عليهم مؤتمرا لحكام الجزيرة العربية ، وكان رأيه أن الحكام سوف يستفيدون فائدة عظمى اذا وحدوا موقفهم خلال الحرب ، ولكن دعوة ابن سعود لم تجد استجابة من أحد . وكان ابن الرشيد الجديد في حائل قد هزم خصومه واستولى على الموقف . واتحد هو والعجيمى شيخ المنتفق في الوقوف مع الاتراك وكان الحسين يعمل من جهة مع الاتراك ومن خلال ابنه عبد الله كان يعمل مع الانجليز في مصر ، وكان الانجليز قد وعدوه بالمال والسلاح وقيادة مشروع الاتحاد العربى وكان الانجليز في كل ذلك يريدون تأييد سائر الأطراف خلال الحرب . ووقف مبارك إلى جانب الانجليز ، ولكن موقفه كان خطرا ، اذ وعده الانجليز بأن يسعفوه سريعا ولكنهم تأخروا ، بينما كان الاتراك في البصرة ، وارسل مبارك إلى ابن سعود لتدعيمه ولكن موقف ابن سعود كان هو الحياد في هذه المسألة .

ونزل الانجليز في أول شتاء عام ١٩١٤ فى مدينة الفاو على رأس الخليج العربى ، ودخلوا البصرة وبدأوا يجمعون قواتهم للتقدم عبر دجلة والفرات إلى بغداد ، وارسل الانجليز شكسبير إلى ابن سعود ، الذى كان بإمكانه التقدم إلى الحجاز والبحر الأحمر وخطوط الاتراك في مصر .. وكان ابن الرشيد وشيخ المنتفق يهددان الجيش الانجليزى في تحركه نحو بغداد .. وكان رأى الانجليز أنه لوقام ابن سعود بمهاجمة ابن الرشيد ؛ فإن ذلك سوف يمكن قواتهم من الوصول بسلام إلى بغداد ، واذا انضم ابن سعود إلى الاتراك ؛ فإن ذلك سوف يشكل خطرا عظيما عليهم ، وكان أقل ما يتوقعونه من مساعدة هو أن يظل ابن سعود على الحياد ، ولم يكن ابن سعود يريد

أن يغير موقفه الحيادى ، أو يريد أحدا يدفعه إلى توقيع اتفاقية بهذا المعنى ، كان ابن سعود يعرف ما يريد ، وكان على غير استعداد لأن يقدم له الإنجليز الكلمات المعسولة ، كان ابن سعود يريد شيئا ملموسا يبين النقاط البيضاء من السوداء ، وبينما كان ابن سعود يتباحث مع شكسبير جاءت الأخبار أن ابن الرشيد بدأ يتقدم نحو نجد ، وكان الأتراك مصممين على أن يحولوا دون توقيع أية اتفاقية بين ابن سعود والإنجليز ، لذلك فقد أعطوا ابن الرشيد مالا وسلاحا وطلبوا منه أن يتقدم في الحال لمهاجمة ابن سعود .





الفصل الثانى والثلاثون

أرسل ابن سعود بريده السريع لتجميع المقاتلين . وقد قدر أن أى اتفاق مع الانجليز يمكن أن ينتظر حتى يزول عنه الخطر . وبدأت القرى والمدن في نجد ترسل إلى ابن سعود الجنود الراجلين . وجاءته معلومات من جماعات أنشأها ابن سعود في القرى لتختبر قوتها للمرة الأولى ، وأرسل إليه العجمان والمطير والدواسر رجالا راكبين على الخيول . وبمجرد أن جمع ثلاثة آلاف رجل سار ابن سعود إلى الشمال ووجد الجيش ابن الرشيد فى « جراب » والتى تقع فى الشمال من (عرطويه) ولم يتردد ابن سعود في الهجوم المباشر ، وقد كانت المعركة على طريقة الصحراء المعروفة ، فقد تقدم الفريقان نحو بعضهما البعض في خطوط طويلة ، كان المشاة فى الوسط يطلقون صيحات الحرب ، وكان الشمريون يقولون : « أهل العوجه » ويرد عليهم ابن سعود « حنا فرسان الوحدة .. أخوان من طاع الله » وكان الخيالة على أجناب الجيش يثيرون النقع وينتظرون فرصتهم للهجوم ، وقاد ابن سعود فرسان المطير بنفسه واخترق بهم خيالة العدو فدحرهم ، ولكنه لم يستطع أن يمسك رجاله الذين اندفعوا خلف الجيش المنكسر ، وبدأ المشاة يطلقون النيران حتى اقتربوا من الجيش المقاتل وبدأ الاشتباك بالسلاح الأبيض ، واستمر القتال من منتصف الليل وحتى بعد الظهر في مواجهة مباشرة بين الكر والفر . وكان فريق ينتصر ثم يعود الآخر يتغلب عليه إلى أن استطاع ابن الرشيد أن يدفع جيش ابن سعود أمامه . ولما رأى العجمان ذلك أغاروا على الجيش وتركوه مكشوفاً . وعلى الرغم من أن ابن سعود كان يحمس المقاتلين ، فقد بدأ واضحا انكسار جيشه . وقد وقف بعض جيشه وقفة قوية بينما فقد الآخرون الأمل . ولما رأى ابن سعود ذلك انسحب من المعركة وتفرق جيشه المقاتل ولم يعد إلى الرياض سوى حفنة من الرجال .

وكان شكسبير قد أصر على حضور تلك المعركة ضد رغبة ابن سعود . ونظرا لأنه لم يكن يعرف فنون القتال فى الصحراء والتى تعتمد على الكر والفر . فقد عرض نفسه للقتل . وكان الرجال الذين يحيطون به قد أخطروه بأن ينسحب معهم ، فأبى وعرض بذلك نفسه لقطعه بالسيف . وعلى الرغم من نجاح ابن الرشيد فلم يستطع أن يدعم موقفه بسبب ما لحقه من خسائر ، إذ أن المطير شتتوا فرسانه ونهبوا معسكره . لذلك فقد رجع ليستعيد قواه وقد كانت المعركة فى مجملها لصالحه .



الفصل الثالث والثلاثون

سار الخبر في الصحراء سريان النار في الهشيم بأن ابن سعود قد هزم وأن الاتراك وابن الرشيد قد تعاونا على هزيمته . وقد أخذ البدو ينقلون الخبر من مخيم إلى آخر حتى بلغوا به جنوب البلاد ، وقد نشرته القوافل في الاحساء والحجاز وحتى بغداد وسوريا ، وقد فرح بعض البدو بذلك لأنهم أدركوا أن ذلك سوف يتيح لهم العودة إلى حياتهم القديمة القائمة على السلب والنهب من جديد ، وكان البدو في كل مكان يتحرقون شوقا لتلك الحياة لأنهم ضاقوا بحياة الضبط والربط التى فرضها عليهم ابن سعود ، وحنوا إلى حياة السلب والنهب التى عهدوها ، ولقد كان البدو على درجة كبيرة من الشك حول المحاولات التى كان يقوم بها الوعاظ والاخوان لإحداث خلخلة في نظامهم القبلى وفي العادات التى جبلوا عليها .

وقد أدرك ابن سعود الخطر الذى يحدق به ، فقد كان لديه مال قليل ورجال أقل ، ولكنه أدرك أن اظهار أى علامة من علامات الضعف سوف تعنى شيئا واحدا هو نهايته ، لأن القبائل ما كانت تقبل في قيادتها سوى الرجل القوى وكانت أية بادرة ضعف تعنى أن تثور القبائل ضده ثم تزحف نحو نجد .

لقد كانت الحرب في كل مكان من العالم ، وكانت حمى الحرب قد تملكت سائر القبائل ، وكان عملاء الاتراك يعملون بين القبائل جاهدين لإذكاء تلك الروح ، وكانوا ينفقون الذهب ويحرضون الناس لمهاجمة ابن سعود . وكان العجمان تحت قيادة زعيمهم « حيثلين » على استعداد لأن يثوروا في كل المواقع في الاحساء . ولكن عبد العزيز لم يظهر أية بادرة من بوادر الضعف . وحين كان الذين حوله يشعرون بالخوف كان هو يضحك عليهم ، أو يزأر فيهم بغضب بحسب حالته النفسية . وكان في بعض الاحيان يضرب الرجال الذين يأتون بالأخبار السيئة ، وكان يرفض أن يستمع إلى مثل تلك الأخبار ، إذ كانت المصاعب لا تزيده الا إصرارا للقيام بمجهود أعظم . وهكذا بدأ ابن سعود الاستعداد على الفور . فقد جمع بعض رجال القرى والاخوان وأظهر وكأنه كان يريد أن يهاجم قبائل شمر ، وكانت تلك خدعة منه ولكنها أتت أكلها لأن ابن الرشيد لم يكن على استعداد للحرب وقد وافق على سلام مؤقت .

لقد كان عبد الله ابن الملك حسين إلى جانب « عتيبة » وهى تتقدم نحو نجد ، ولكن ابن سعود بالكلمات الطرية والوعود ، استطاع أن يبعده عنها واتجه بعد ذلك يبحث لنفسه عن حلفاء ، وكان الانجليز يتقدمون اذ ذاك على نهر الفرات من نصر إلى نصر ، وقد استولوا على مدينة الكوت وطردوا الاتراك أمامهم ، وكانوا على مسافة قليلة من بغداد نفسها .

ولم يتردد ابن سعود ، فقد كان يدرك بوضوح أن الانجليز هم المنتصرون ، وكان هو يريد مساعدتهم ، وهكذا توصل عبد العزيز إلى اتفاق مع الانجليز ووقع معهم اتفاقية في ميناء العقير في الاحساء ، تعهد فيها ان يقف إلى جانبهم والا يهاجم حلفاءهم او يساعد أعداءهم . وفي مقابل ذلك فقد اعترف به الانجليز حاكما على نجد ، مستقلا عن السلطة التركية وأعطوه مساعدة شهرية بالاضافة إلى بعض السلاح والاوسمة .

وقد توصل عبد العزيز إلى اتفاق مع مبارك ، وكانت العجمان قد هاجمت الكويت واشترط مبارك أن ترجع العجمان كل ما غنمته من الكويت ، ووافق ابن سعود على أن يساعد مبارك بالرجال والسلاح ، وانطلاقا من هذه المساعدة الاخلاقية والمادية فقد أخذ معه أخاه سعداً وجلوياً وعددا من الرجال الذين استطاع جمعهم ، وتوجه بهم إلى العجمان ، ولكن مصاعبه كانت كبيرة ، اذا كان اعداؤه في كل مكان ينتظرون اللحظة الحاسمة لمهاجمته . وكان ابن الرشيد وعبد الله ينتظران الفرصةالمناسبة لذلك إذ كانت اتفاقيات السلام معهما ذات أهمية صغرى ولم يكن عبد العزيز يعول كثيرا على ما سيأتيه من مبارك وكانت لديه قوة صغيرة ومجموعة من رجال القرى وبعض الخيالة من البدو إلى جانب حرسه الخاص وجماعة من الاخوان ، وكان عدد العجمان يفوق عدد رجاله بكثير ، فقد كانت لديه جمال وخيول أقل ، وكان الصيف فى منتصفه وحرارة الشمس محرقة ويعنى ذلك أن الوقت لم يكن وقت سير أو حرب ولكن كان عليه أن يضرب قبل أن يتسع نطاق الثورة وكان العجمان محاربين شجعان ، وعلى الرغم من مظاهر خروجهم عليه ، فقد كانوا ذوى ولاء لبعضهم بعضا ، وقد استطاعوا أن يجندوا خمسة الآف جندى للمعركة وكانوا ينتظرون لحظتهم الحاسمة للمواجهة .





الفصل الرابع والثلاثون

وبمجرد أن سمع « حيثلين » أن ابن سعود قد بدأ السير نحوه أخذ يتقهقر جنوبا نحو الربع الخالى في المنطقة الفاصلة والواقعة جنوب قطر . وكان يستهدف بذلك أن يستدرج ابن سعود للتوغل جنوبا في تلك المنطقة القليلة الماء والكلأ ، فيضطر لترك بهائمه ويواجه مشقة سفر جنوده على أرجلهم ، وكان السير في الليل وذلك لصعوبته تحت أشعة الشمس اللافحة . وكان جنود ابن سعود يرقدون طوال النهار دون غطاء من تلك الشمس ولكن ذلك لم يثن عزم ابن سعود . فقد سار إلى الأمام لأن العودة عند تلك المرحلة كان سيعد هزيمة خطيرة .

وأخيرا فقد وجد ابن سعود العجمان عند أشجار النخيل التى أمام كنزان فهاجمهم ليلا . ولم يكن ابن سعود يعرف عدد العجمان ، إذ لم يكن أمامه سوى بضعة رجال . ولكن حيثلين كان قد أعد في دهاء كمينا لابن سعود ، وبمجرد أن وصل ابن سعود إلى أشجار النخيل انقض جيش حيثلين من المؤخرة وأحاط به . ونظرا لشدة الظلام وشدة الفوضى وعدم القدرة على تبين المحاربين فقد اشتبك الرجال مع بعضهم بعضا ، وكان كل رجل يحارب من أجل نفسه دون أن يعرف ان كان من يحاربه عدوا أم صديقا . ولقد أصيب « سعد » شقيق ابن سعود بطلق نارى أرداه قتيلا ، وجرح ابن سعود نفسه إذ أصابت إحدى الطلقات حزاما مليئا بالرصاص كان يتمنطق به ، وعلى الرغم من أن الحزام قد حماه من الطلق ، فقد جرح جرحا عميقا بجانب إحدى ضلوعه . وهكذا وجد رجاله أنفسهم وقد فاقهم العدو عددا ، فأصابهم الفزع فتقهقروا وقد تبعهم ابن سعود وكان ابن سعود قد واجه خطرا حقيقيا في هذه المرة ، إذ حصر ظهره إلى الحائط وكاد نفوذه أن يضيع ، وقد تجرأ البدو من جديد على الإغارة وكان الإخوان وأهالى القرى يتسمون بالشجاعة ولكن عددهم كان قليلا في مواجهة ثورة عارمة . فقد كانت القبائل ما زالت قوية ، وكان الأمر يحتاج إلى قليل من الجهد لتتحول نجد إلى مئات القبائل المتصارعة والمتناحرة كما كان شأنها قبل ابن سعود . كما أن ابن الرشيد قد تجاهل اتفاقيته وتقدم نحو بريده ولكن عبقرية ابن سعود تعاملت مع هذا الوضع بأسره ، إذ أنه بعدد من الرجال تبقوا له استطاع أن يبقى في العراء محتفظا بحريته في الحركة ولكنه أرسل في نفس الوقت نداء إلى والده في الرياض يطلب منه فيه أن يمده بعون سريع ، ووجه نفس الرسالة إلى كل

من مبارك في الكويت والانجليز . وكان ابن سعود يحارب في تلك المرحلة من أجل حياته ولكن القدر كان إلى جانبه ، اذ تحرك حاكم بريده الجديد ويدعى فهد ـ وكان قد عينه بعد جلوى بشجاعة فائقة ـ واستطاع أن يطرد ابن الرشيد من المنطقة . وكان حسين مكة في ذلك الوقت مشغولا بثورته ضد الاتراك وبذلك فقد استدعى ابنه عبد الله .

وأما حثلين فهو بدون شك مقاتل عنيد ، ولكنه لم يكن في ذلك الوقت أكثر من شيخ بدوى ، لا هم له غير الاغارة والسلب والنهب . ولم يحاول حثلين أن يتبع ابن سعود وإنما انصرف إلى عمله المعتاد بالاغارة على القري في جنوب الاحساء ، ثم توجه بعد ذلك لمحاصرة الهفوف ، وقد كانت مدينة محصنة .

ولقد خرج عبد الرحمن من عزلته ، واستطاع أن يجمع قوة من القرى التى حول الرياض ثم أرسلها تحت قيادة محمد الأخ الأصغر لابن سعود . وكان مبارك قد تردد ثم أرسل في آخر الأمر قوة صغيرة بقيادة ابنه سالم . وكما هو شأنه دائما فقد أظهر ابن سعود أحسن صفاته التى عرف بها حين تواجهه الأزمات ، ذلك أن ابن سعود يكون فى أحسن حالاته حين تقترب المصائب منه ، وعلى الرغم من أنه كان يعانى من آلام في الأضلاع فهو لم يشك أبدا لأحد من الذين حوله .

ولا شك أن موت سعد قد أصابه بحزن عميق ، ولكنه خرج من ذلك الحزن وأقسم أن يقتص من حثلين لموت أخيه ، ولكن لم يكن معه عدد كبير من الرجال ليهاجم بهم حثلين ، الا أنه تمكن من توجيه إغارات سريعة عليه خلال محاصرته للهفوف . ولم يكن ابن سعود يستقر في مكان واحد ، إنما كان يتحرك دائما . وأصبح نومه أقل مما كان في السابق ، وكان يغامر مغامرة كبيرة وهو يجمع الرجال من القرى .

وكانت شخصية ابن سعود طاغية ، وكانت له قدرة عجيبة في الاقناع والإيحاء . ولا شك أن قدرته على التركيز والمكافحة هى التى مكنت رجاله من أن يحققوا ما يريدون ، وحين وصل إليه سالم ومحمد كان ابن سعود قد أعاد بناء الجيش .





الفصل الخامس والثلاثون

أحس حثلين وجنوده بالتعب نتيجة بقائهم حول الهفوف تحت شمس الصيف المحرقة ، فقد كانوا يريدون أن ينصرفوا إلى إغاراتهم ، ولكن انتظارهم في عملية الحصار جعلهم يشعرون بالامتعاض . ولم يكن بمقدور حثلين أن يمنع رجاله من الانصراف ، وهكذا تفرق الكثيرون وذهبوا إلى منازلهم بينما توجهت فئة أخرى لمواصلة أعمال السلب كما هو شأنها دائما ، وبمجرد أن أصبح ابن سعود مستعدا ، سار خلف فلول جيش حثلين ، بينما ترك محمداً وسالماً مع الخيالة في المخيم وكان سيره ليلا ، وعلى ألأقدام،واستطاع ابن سعود أن يجد فلول الجيش قبل الفجر ، وفاجأهم بالاشتباك معهم ، وكان ابن سعود يحمل رشاشا في يده وتبدو هامته عالية فوق جنوده . وقام العجمان بفتح النيران على الفور ، وأصابت طلقة ابن سعود في فخذه فأسقطته ، فحمله حرسه الخاص إلى المؤخرة وكانت الدماء تنزف منه بغزارة وكان يشعر بألم شديد . ولما رآه جنوده يسقط ترددوا في مواصلة الهجوم ولكن العجمان انتهزوا تلك الفرصة وركبوا خيولهم وخرجوا من ميدان المعركة وأمر ابن سعود على الفور محمد وسالم أن يتبعوهم . واستطاع هذان أن يجدا الجيش بكامله في حالة التقهقر ولكن وبدون انذار اتخذ سالم موقفا مغايرا لما طلبه منه ابن سعود . وعندئذ وجد ابن سعود نفسه أمام خطر عظيم ، اذ كان يرقد مجروحا في خيمته وكان المعسكر كخلية النحل من الاشاعات ، وكان رجاله قد اصيبوا بالاحباط ، اذ كان الجميع يقولون أن جيش حثلين يتقدم بقوة ، وقد أتته مساعدات من خارج الحدود وقال بعضهم أن ابن سعود قد انتهى،وأن الطلق النارى قد أعاقه إلى الأبد وكان الجنود يشعرون انهم بدون قيادة ابن سعود وصيحاته في ساحات الوغى يشبهون أطفالا خائفين وحتى أخلص خلصائه الذين وقفوا معه في الشدائد قد داخلهم الخوف ، وبدأوا يهجرونه ويقولون من الأفضل أن يعودوا إلى بيوتهم قبل فوات الأوان وقد أدرك ابن سعود أنه لا بد أن يتصرف بسرعة فائقة فقد كان جرحه عميقا في اللحم ويؤلمه ولكنه لم يكن خطيرا . وهكذا قرر ابن سعود أن يرى الرجال أنه لم يعد عاجزا إلى الأبد كما يقولون . وعندئذ أستدعى أحد شيوخ القرى المجاورة ، وطلب إليه أن يصاهره في أحد بناته ، وقد تم الزواج في تلك الليلة ، وطلب ابن سعود من رجاله أن يحتفلوا بتلك المناسبة .

وكانت تلك هى أحدى الخطوات الدرامية التى تعود ابن سعود إجادتها فقد تحول جميع العرب ورجاله من حالة اليأس والقنوط إلى حالة الإعجاب بقائدهم الذين ينظرون إليه على أنه عملاق استطاع أن ينسى جروحه ويجعلهم يحتفلون بتلك المناسبة العظيمة . وهكذا قرر الرجال أن يقفوا وراء قائدهم مهما كانت الظروف ، وبتلك الحنكة والبراعة العالية استطاع ابن سعود أن ينقذ موقفه .

وكان بإمكان ابن سعود أن يهاجم العجمان إذ كان محمد بالقرب منهم ، وكان محمد يتحرق إلى أن يتسلم الاوامر من ابن سعود.ولكن ابن سعود تردد بسبب موقف سالم ، الذى كان قد انضم إلى العجمان.وكانت تلك لحظة حاسمة أظهر فيها ابن سعود عمق العلاقة التى كانت تربطه بمبارك ، فقد أرسل رسالة خاصة إلى مبارك قال له فيها « من أجلك وحدك ومن أجل احترامى لك - والدى - لم أصدر أوامرى لمحمد ، حتى لا يصاب سالم بأذى » .

ولقد أزعج الموقف مبارك الذى أرسل إلى سالم يقول له لقد أرسلتك مراقبا وليس محاربا . فاذا هزم ابن سعود العجمان فإن عليك أن تساعدهم واذا حدث العكس فإن عليك ألا تساعد أيا من الفريقين وانما تقف على الحياد .

ولقد وقعت هذه الرسالة في يد ابن سعود الذى عرضها على المجلس ، فقرر بالاجماع محاربة حثلين بصرف النظر على النتائج .

وعندئذ قرأ ابن سعود آيات من القرآن الكريم وأمر جنوده بالتحرك ، وعندما سمع سالم بذلك تحرك مباشرة إلى الكويت وجاءت الأخبار في تلك اللحظة تنعى الشيخ مبارك فقال ابن سعود « إنا لله وإنا اليه راجعون » ثم أمر قواته بمواصلة السير .





الفصل السادس والثلاثون

قرر ابن سعود ان تكون المعركة حاسمة ولا يكون بعدها تراجع .وان تكون نتيجتها نموذجا ينظر اليه كل من تحدثه نفسه بالعودة الى حياة السلب والنهب ، وكان ابن سعود ينظر دائما للأخذ بثار سعد أخيه . ولقد ظلت نتيجة الحرب سجالا خلال عام ١٩١٦ ، ينتصر فريق هنا وينتصر فريق هناك حتى تمكن أخيرا ابن سعود من دحر حيثلين ، والسبب فى هزيمة حيثلين هو ان جنوده ما كانوا يحبون البقاء فى مكان واحد . كانوا يريدون اغارات خاطفة والعودة الى منازلهم ، ولكن ابن سعود كانت لديه خلفية قوية من القرى والاخوان . لقد كان القتال قويا .وقد تناسى المحاربون فيه اعراف الصحراء القديمة ، اذ كانت تحطم الآبار بالحجارة وكان الامر فى مجمله سباقا من أجل الماء . وكانت قوافل الجمال تتدفق عبر التلال الرملية كالانهر ، وكانت اعناق المطى تتسابق وفوقها الرجال ساكنون ، ومصممون وهم يعلمون ان وصول الخصم الى الماء اولا يعنى موتهم وموت ابلهم تحت اشعة الشمس المحرقة ، وكان السبق دائما لابن سعود ورجاله .

ولقد شاركت النساء فى كلا الجانبين فى الاجهاز على الجرحى وقد حدث ان رجلا مجروحا من جنود ابن سعود طلب ماء من امرأة فى معسكر حيثلين ، فما كان منها الا ان ضربته حتى الموت وحدث العكس حين كان رجل من العجمان فى نفس الموقف فاجهزت عليه امرأة بمدفعه وعادت الى معسكرها وهى تشعر بالانتصار .

ولم يتوقف ابن سعود فى ضراوة هجومه حتى هربت البقية من فلول جيش حيثلين من الاحساء الى الكويت طلبا للنجاة . وقد طالب ابن سعود بتسليمهم حتى يخلص القطر من افعالهم . ولقد تولى الأمر بعد مبارك فى الكويت ابنة جابر وكان فقيرا وضعيفا ، وكانت السلطة الحقيقية عند سالم ، وهو قد رفض ان يسلم أولئك الذين لجأوا الى الكويت ، وغضب ابن سعود لذلك الموقف ، وعاد ابن سعود الى الرياض ليجد الفوضى ضاربة فيها ، وكان ابن سعود يعلم انه بمجرد ان يقلل قبضته ، فإن القبائل تخرج مرة اخرى للاغارة والقتال فيما بينها وجعل القطر بأسره منطقة غير آمنة ، وبمجرد عودته يرجعون الى ديارهم ، وقد سار ابن سعود فى كل بلاد نجد التى اعترفت به سيدا عليها من أجل تأكيد سلطته ومكانته بين القبائل .وعلى

الرغم من مواقفه الحاسمة مع العجمان فقد اظهر نحوهم مزيدا من الكرم وأبدى الكثير من روح التسامح والصلح ، ذلك ان ابن سعود لم يكن له هدف سوى مصلحة الجميع ولم تكن العداوة هى احدى وسائله . لقد سمح ابن سعود للعجمان ان يختاروا شيوخهم بمحض حريتهم وكل ما طلبه منهم هو ان يعترفوا به حاكما وأن يرسلوا له الرجال حين تستدعى ذلك مهمات القتال .

ومرة أخرى اصبح ابن سعود هو السيد فى بلاد نجد .



الجزء السابع



الفصل السابع والثلاثون

ظل ابن سعود يناضل على مدى عامين فى الاحساء ونجد من اجل حياة افضل . ولقد شغل خلال هذه الفترة بمشاكله الخاصة التى كسحت ماعداها من مشاكل . ولا شك انه بجهود خارقة استطاع ان يقف على رجليه . وقد استطاع بحلول عام ١٩١٧ أن يؤسس موقفه بصورة فعلية ، مما منحه مزيدا من الوقت للتأمل .

لقد كانت الحياة خلال هاتين السنتين فى أطراف الجزيرة العربية حربا متصلة . وخلال تلك الفترة فان جيشا انجليزيا صغيرا قد تقدم فى وادى دجله دافعا الاتراك أمامه ، ولكنه هزم قبل دخوله بغداد وحوصر عند قرية الكوت حيث قبض على سائر رجاله . وجاء جيش انجليزى آخر بطريق البحر وقد اعد اعدادا محكما .تمكن هذا الجيش من أخذ بغداد . وكان مقدرا له أن يتقدم نحو الموصل ،وخرج جيش انجليزى آخر من مصر وطرد الاتراك من شبه جزيرة سيناء وهى الطريق الى مصر . وقد تمكن الجنرال « اللنبى » من مطاردتهم عبر فلسطين والقدس . وقد أعد اللنبى هجوما كاسحا على دمشق ، ومن ثم على مدينة حلب .

واعلن الحسين فى مكة مساندته للانجليز كما اعلن الحرب على الاتراك . ولقد بدأ الانجليز فى أول أمرهم يفكرون فى ابن سعود . ولكن حين رأوا هزيمته فى« جراب » وانه كاد يفقد جيشه امام « حيثلين » صرفوا النظر عنه مؤقتا وقدروا انه لن يكون ذا فائدة عسكرية بالنسبة لهم ، ولكنهم كانوا مهتمين بأن يظل ابن سعود على الحياد حتى يكون تعاملهم مع الحسين . وكانوا يريدون تأييد الحسين لسياستهم ، إذ قدر الانجليز انه بحسب موقعه المتميز فى عاصمة الاسلام مكة المكرمة يمكنه ان يكون ندا للسلطان التركى خليفة أسطانبول . ذلك ان الانجليز لم يكونوا يريدون لأعدائهم الالمان ان يسيطروا على الحجاز .

كان الالمان يمتلكون غواصات ، وهم على استعداد لانزالها الى البحر الاحمر .ويمكنهم بمساعدة الاتراك أن يهددوا مصر وقنال السويس والممر المائى الى شبه القارة الهندية .

لقد صمم الانجليز على التعاون مع الحسين بأى ثمن ، ولذلك زادوا وعودهم

له ومنحوه عشرين ألف جنيه من الذهب بالإضافة الى أسلحة وذخائر . وقدم الانجليز وعودا أخرى بأن يساعدوا الحسين على أن يصبح رئيسا لاتحاد الدول العربية ، ولم يكن الانجليز يعنون شيئا مما يقولون ، ولكنهم كانوا يعرفون ان فكرة الوحدة هى التى تأسر خيال العرب ، وتجعلهم يقفون ضد الاتراك . وكانت فلسفة الانجليز تقوم على ضرورة كسب الحرب بأى ثمن ، ولذلك رأوا أن إعطاء وعود الامداد بالذخائر كانت مطلوبة فى ذلك الوقت .

كان الحسين راغبا فى مثل تلك العلاقة بسبب موقفه من الاتراك وأصبح الاتراك فى شك من أمره . وقد تعرف الاتراك على نواياه من خلال قبضهم لبعض اعضاء اللجان الثورية التى كانت تعمل فى سوريا بالتنسيق معه . وحين احتج على الاعدامات قال له جمال باشا حاكم سوريا والذى يعرف بجمال الجزار ، عليك أن تحافظ على رأسك ، وزاد من الوجود العسكرى التركى فى منطقة المدينة المنورة .

وبمجرد ان وجد الحسين نفسه مستعدا ، اعلن الثورة والخروج على معاهدته مع الاتراك ، ونصب نفسه قائدا للثورة العربية الشاملة . وقام ابناؤه على ، وعبد الله وفيصل بمساعدة الحجازيين والبدو بدحر الاتراك والاستيلاء على مكة المكرمة ، وقام الأتراك بهجوم مضاد وحصروا الحجازيين فى منطقة البحر الاحمر وكادوا أن يجهضوا الثورة . ولما رأى الحسين الموقف هكذا طلب تدخل الانجليز ، فقام الإنجليز على الفور بارسال بعض سفنهم الى مينائى جدة وينبع . كما قاموا بارسال بعض الذخائر وقطع السلاح والجنيهات الذهبية وعدد من الرجال ، كان من بينهم الكابتن لورنس . وكانت مهمة هؤلاء التحريض على الثورة .

لقد استطاع الحسين وابناؤه بهذه المساعدة أن يستعيدوا روحهم المعنوية ، إذ أعطتهم السفن والمدافع بعض الثقة ، واستطاع الحسين بالذهب الذى حصل عليه أن يؤجر مقاتلين من سائر القبائل وحتى أحسن المقاتلين من نجد نفسها . وكان هؤلاء يقومون بالاغارة على الساحل ، ويضربون الاتراك حتى مواقع الخط الحديدى ، وتمكنوا من قطع الخط الحديدى بين المدينة ودمشق ، واستطاع هؤلاء بقيادة لورنس وفيصل ان يسيطروا على العقبة وجعلوها قاعدة لهم ومركز اتصال مع الجنرال اللنبى الذى كان يعد لهجومه الكبير على دمشق . وبدا واضحا أن الانجليز أخذوا يدحرون الاتراك في جميع المواقع وأصبحوا مستعدين لإخراجهم من جميع البلاد العربية . ونظرا لنقص المؤن والذخائر وعدم النظام ، فقد بدا الاتراك يموتون بالآلاف من المرض والإهمال . ولكن هنالك فى أوروبا حيث كانت تدور رحى الحرب الحقيقية ، فإن الحرب لم توضح أية علامة لإنهاء القتال أو انتصار الحلفاء . وبدا لكثير من

المحايدين أن الألمان سوف يكسبون الحرب .

وكان الانجليز يريدون كل حليف يجدونه ، ولقد أصبح ابن سعود مرة أخرى يقبض على أزمة الأمور فى أواسط الجزيرة وقد يكون ذا فائدة عظيمة ، وهكذا وفى سرعة فائقة أرسل الحلفاء إلى ابن سعود فى أواسط الجزيرة لكى يصبح حليفا ووقع الاختيار على السير جون فيلبى وهو ضابط سياسى من مكتب الكومسيور الادارى ، ومقره بغداد ليحمل رسالة الحلفاء إلى ابن سعود وكان فى صحبته اللورد بلهافن .





الفصل الثامن والثلاثون

استقبل ابن سعود البعثة بكل الحفاوة واسكنهم فى قصره بالرياض ، وكانت هناك بعض الاصوات تنادى بعدم التحدث اليهم لأسباب مختلفة ، ولكن ابن سعود كان يعلم انه يعيش فى عالم لا مكان فيه للعزلة ، وهكذا تحدث إلى بلهافن وفيلبى ، ولكنه لم يقدم اى وعود لهما .

وكان قد قرر مسبقاً أن الحياد مع الانجليز هو أفضل سياسة ينتهجها فى تلك المرحلة . وقرر ابن سعود أنه لن يسمح لاحد بأن يستميله أو يدفعه لاتخاذ عمل لا يقره ، كما قرر ألا يسمح للانجليز أو أية قوة أجنبية ان تستخدمه لأغراضها الخاصة .

كان الحياد فى نظره هو الشيء المجدي ، وهو السياسة الحكيمة لبلاده ، وعلى الرغم من ذلك فقد قام الانجليز بدفع مساعدة له مقدارها خمسة آلاف جنيه في الشهر ، وذلك فقط حتى يكسبوا صداقته . وكان الذهب في تلك الحقبة يتدفق على الجزيرة العربية من سائر الاطراف ، فقد كان ابن سعود يبيع الجمال والخيل بأسعار عالية ، وكان لديه اتفاق أدبي مع ابن الرشيد بأن يحافظ الإثنان على السلام حتى يكسبا من الوضع المتدهور في أوروبا ، ولقد اصبح الأتراك الآن على نحو من البعد لا يشكل خطراً بالنسبة اليه ، وعلى افتراض انهم لن يعودوا مرة أخرى إلى الاحساء أو نجد ، فقد قرر أن لا شأن له بهم بعد الآن .

وقدر ابن سعود ان معانة الانجليز تعنى بالضرورة معاونة الحسين ، وذلك أمر لم يكن يدخل في سياسته ، اذ لم يكن ابن سعود يصدق الانجليز وهم يتحدثون عن الوحدة العربية ، وحتى لو صدقوا فى ذلك ، فهو لا يقر المخطط الانجليزى لقيادتها . وحينما تذكر ابن سعود الاموال الطائلة التى كان يدفعها الانجليز لرجالهم فى الحجاز وانهم اخذوا يستميلون بها رجال القبائل ، ولا سيما من نجد ، فقد اخذ يغلى من الغضب .

واخطر ابن سعود البعثة الانجليزية بانهم يرتكبون خطأ فى تلك السياسة ، ذلك انه بمجرد أن ينتهى الذهب الذى يرسلونه إلى الحجاز ، فسيرون كيف ان القبائل سوف تلتف حوله من جديد ، وعندئذ سوف يكون قادراً على التعامل مع من يشاء .

ولم يكن الانجليز يريدون سماع ذلك الكلام ، لذلك ركزوا على مسألة واحدة وهى ان يهاجم ابن سعود ابن الرشيد في حائل ، وعندئذ قال ابن سعود ذلك لن يتم الا اذا اعطيتموني ذهباً يعادل ما تعطونه للحجاز وضمنتم لي ان انصاركم لن يهاجموني .





الفصل التاسع والثلاثون

كان ابن سعود يريد مزيداً من الوقت والفراغ ، وذلك من أجل أن يسوى أموره الخاصة ، ذلك أنه ظل وعلى مدى ما يقارب العشرين عاماً وبصورة مستمرة تحت السلاح ، يخرج من قتال الى قتال .

قال ابن سعود لاحد زواره : لم أجد وقتا خلال تلك السنين أرتب فيه قصرى حتى يمكننى أن استقبل فيه الضيوف بصورة تليق بهم .

وقد علمته ثورة العجمان أن الاستقرار الداخلى يأتى فى مقدمة الامور التى يهتم بها . وكان ابن سعود يحكم بمفرده ، ذلك أن كل شئون الحكم والإدارة كانت ملقاة على عاتقه. وكان هو يسافر من مكان لآخر يزور اجزاء القطر ويتأكد بنفسه من الامور ، ويقوم بعمله كما كان شأنه فى السابق فى العلن ، وامام الناس ، طلباً لمزيد من الالتحام بينه وبين رعاياه .

وقبلت القبائل ابن سعود لانه كان رجلاً قوياً . وكانت قبضته هى التى توحد الناس جميعاً الى حكمه . وكان واضحاً أن الامر كله فى ذلك الوقت يعتمد على شخصية ابن سعود ولا شىء غيرها .

ونظراً لفتوحاته الكثيرة ، فقد أصبح الامر صعباً كلما اتسعت دائرة حكمه ، لذلك قرر ابن سعود أن ينشىء نظاما للحكومة ، وأولى ذلك كل اهتمامه ، خاصة فى الاوقات التى لم يكن مشغولاً فيها بالحرب أو القتل .

لكل ذلك بدأ ابن سعود فى تعيين الامراء والشيوخ على القبائل من اجل حفظ النظام ، وجمع الضرائب وارسل المحاربين فى اوقات الحرب . وكانت عادته أن يعين الحكام والامراء من العائلات المحلية التى لها تقاليد وراثية . واذا لم يتفق الناس على أحد فقد كان يرسل اليهم اميراً من الرياض . واستناداً على خبرته كان ابن سعود يختار ممثليه بعناية فائقة ، وكان يختبرهم بدقة ويعرف كيف يتعامل معهم ، هل يطبق معهم سياسة اليد المبسوطة أم سياسة القبضة الحديدية . وكان يحسن كليهما ، وكان ابن سعود فى حد ذاته عالماً بأحوال الرجال وشخصياتهم ، وعنده معرفة فطرية بالدوافع التى تحرك الرجال وتصدر عنها أعمالهم . وحين كان يأتى الى المدن لم يكن يقتصر على زيارة امرائه ، وانما كان يزور سائر الشخصيات المعروفة والاعيان

ويجلس فى مجالسهم ، ويشرب قهوتهم ، ويتحدث اليهم فى امورهم الخاصة ، حتى يعلم الاحوال المحلية والرجال الذين يحيطون بالحكام .

ولم تكن تأخذه شفقة بمن يظهر عدم أمانته . أو عدم كفاءته أو عدم ولائه . وكان يتخذ قراراته حينئذ بدون تردد .

ولقد اشتكى اليه ذات مرة « فلبى » أن عثمان حاكم الزلفى كان يعمل لحساب الاتراك ، فما كان من ابن سعود الا أن ارسل اليه رسالة سريعة يقول له فيها :

(ألم أمنعك ياعدو الله وقد اقسمت على ذلك من أن تتعامل مع الاتراك ، وعلى الرغم من ذلك فقد قمت انت وابنك بشراء البضائع والطعام منهم لتبيعاها من أجل الربح ، ستظل خيانتك هذه أبداً في ذاكرتي ، وقد قررت فصلك ، اذهب الى أي قطر تختاره ولكن لا تبق في بلادى ، وإلا فأظهر الندم وعليك البقاء تحت ناظري فى الرياض ، واقسم بالله اذا تاخرت في تنفيذ أمري لن اكون الحاكم اذا بقى لك اثر في عالم الاحياء) .

ولم يتردد عثمان أو ينتظر ، أو يجادل ، لانه كان يعرف ويخشى غضب ابن سعود ، ولم تمض ساعة حتى كان قد ذهب وهو وعائلته وكان يسير بسرعة حتى لاتلحقه كارثة من الكوارث .

كان ابن سعود حريصاً على أن يعمل سائر الامراء والشيوخ فى نظام دقيق تحت امرته وكان يكلف كل امير بأن يكون مسئولاً عن جيرانه ، فاذا وقعت جريمة فى مكان ما فان على الامير أن يتصرف ويبلغ الامر لابن سعود ، واذا لم يقم بذلك فان شيوخ أو امراء المنطقة المجاورة يجب أن يجبروه على تبليغ الامر لابن سعود . واذا فشل هؤلاء فان ابن سعود يتصرف بنفسه مستنداً على قواته النجدية ويعاقب حينئذ اميره على التقصير والمجرمين على ما ارتكبوه من جرائم .

وكان النظام الذى ابتدعه ابن سعود يعمل بحنكة بالغة . ونظراً لان الشيوخ والحكام كانت بينهم كثير من العداوات وكانوا على استعداد لان يعملوا كحكام أو مصححين لاعمال بعضهم بعضاً ، فان ابن سعود قد عرف كيف يستغل هذه الروح فيهم ويوجهها لمصلحة الحكم .

وكان ابن سعود يمتلك جهازاً كاملاً للمعلومات تحت تصرفه . وكان فى سائر القرى والمدن جماعة الاعيان ، والوعاظ ورجال الدين . وقد اعتبر كل من هؤلاء نفسه حافظاً على ضمير جاره وقاضياً فى تصرفاته ، وكان الجميع على استعداد أن يواصلوا آراءهم لابن سعود .

وهكذا استطاع ابن سعود أن يحكم قبضته على سائر البلاد الواقعة تحت حكمه .

الجزء الثامن



الفصل الأربعون

بلغ ابن سعود فى عام ١٩١٧ سن السابعة والثلاثين ، وكان عملاقاً يتميز بوجه جميل يعلو مناكبه العريضة . وكانت اخلاقه عالية . وقد تعود ان يأمر ويطاع . ويمكن ان يقال انه الرجل الذي كانت له الكلمة الاخيرة في مصائر الناس . كانت عيناه زرقاوين ، وتشعان بالضياء ، وعلى الرغم من انهما كانتا تخفيان افكاره ، فقد كانتا تدلان على حالاته النفسانية ومزاجه ، كان ذكياً ولماحاً حين يلخص المواقف أو حين ينظر فى مسألة من المسائل ، وكان ودوداً ومبتسماً فى لحظات سروره ، وحازماً وعنيفاً فى لحظات غضبه ، كانت جبهته عالية وعريضة وتقاطيعه واضحة ، وأنفه حاد ، ويعطي من يواجهه احساساً بالراحة ، وكانت نظرته الجانبية اشبه بنظرة الصقر ، وتوحى أن الرجل مليء بالعنفوان ، ويتحفز للانقضاض . وكان يهذب شاربه ، بينما يحتفظ بلحيته قصيرة ومربعة .

تتميز حركة العربى العادى بانها سريعة ومتأرجحة . وكان ابن سعود ، حتى حين يكون جالساً لا يهدأ فى موقف واحد ، ولكن حركاته كلها كانت مرسومة وتعطى احساساً بالقوة والمكانة . وكان حين يتحدث يحرك اصابعه بالمسبحة التى فى يده ويستخدم فى ذلك سبابة يده اليسرى . وكانت خطواته واسعة وسريعة وعلى الرغم من انه كان ضخماً ، فقد كان يحسن الجلوس فوق صهوات الجياد ، وكان ماهراً فى استخدام السيف .

وسواء كان فى المنزل أو فى قصره فى الرياض أو مسافراً بين القبائل ، فقد كان يعيش حياة الحذر حتى لكأنه يسير فى احدى حملاته . ولم يكن يميل إلى حياة الدعة والراحة .

وكان سريره في القصر حديدياً ومن نوع رخيص ، وكانت ملابسه بسيطة ، ولا يلبس الحرير . وكان الشيء الطيب الوحيد الذي يحرص عليه هو قليل من الوشى والتطريز عند ياقة جلبابه . وكان مثل الكثيرين الذين لا يدخنون التباكو ويحبون الحياة النظيفة ، ويشعر بحساسية تجاه الروائح غير الطيبة . وكانت رائحة العرق والقذارة الجسدية تستفزه كثيراً ، وحتى يتغلب على هذا الامر ، فقد كان يكثر من استخدام البخور ، ولا سيما المستخرج من الزهور ، وقد حدث أن جاء لزيارته أحد

الباشوات للتباحث فى أمر مهم ، وكان اليوم حاراً ، ورائحة الثوم والبصل تنبعث منه . وقد تحمله ابن سعود بعضاً من الوقت ، ولكنه بعد قليل بدأ يتململ ويشعر بالانقباض ، ثم طلب من الخدم أن يحضروا البخور ليعطروا الغرفة .

وعندما خرج الرجل انفجر ابن سعود غاضباً وهو يقول :
(باشا .. لم يكن هذا باشا ، وانما كان صقراً من الصقور ، ثم غطى نفسه بالبخور .
وكان طعامه فى الصباح قطعاً من الكيك مع بعض اللبن الرائب ، ويتناول فى المساء طبقاً من الارز وقليلاً من اللحم وبضع ثمرات ، وباستثناء الشاى والقهوة اللذين يشربهما طوال اليوم ، فلم يكن يشرب شيئاً آخر غير الماء .

وحتى فى ليالى الشتاء القارسة البرودة ، فلم يكن يستدفىء بالنار فى غرفته أو خيمته . وكان ابن سعود طوال الوقت حذراً ومستعداً ولم يكن ينام اكثر من ثلاث أو اربع ساعات فى اليوم ، وليس ذلك لانه لم يكن يقدر على النوم بل لانه قد عود نفسه على نظام دقيق حتى يعطى نفسه مزيداً من الوقت للعمل ، إذ كان يعتبر أن أية ساعة يقضيها فى النوم هو نوع من الهدر فى عالم اللا وعى ؟ ذلك أنه كان يمتلك الكثير من الأشياء التى يريد فعلها ، والقليل من الوقت لاتمام ذلك وكان يتفق مع شكسبير فى قوله « النوم هو شقيق الموت » .

وكان ابن سعود يعمل بسرعة فائقة ، وبتركيز شديد . وكانت لديه ذاكرة عجيبة ، إذ كان بإمكانه أن يملى على سكرتيرين فى موضوعين مختلفين فى نفس الوقت ، وكان فى بعض الاحيان يترك جملة ناقصة عند احدهما ثم يعود للتحدث مع الآخر ، وبعد قليل يعود فيكمل الجملة الناقصة دون عناء . وقد يواصل الحديث بعد أن يعالج احدى المسائل القضائية أو يتحدث فى موضوع عملى مع احد المسئولين . ولم تكن المقاطعة تؤثر فيه كثيرا ، إذ كثيراً ما كان يعود إلى موضوعاته من جديد وبنفس القوة .

ولم يكن عقله يركن إلى الهدوء . ولا شك أن حياته فى الرياض كانت تتميز بشىء من الاختلاف فقد عمل على إعادة بناء القصر وتمديده حتى ملأ ثلث المدينة تقريباً ، وقد بنى حواليه سوراً أقام عليه بعض الأبراج فى الأركان وفوق البوابات . وكان ديوان القصر حيث يستقبل الزوار صالة ضخمة تتسع لاكثر من ثلاثة آلاف شخص ، وقد فرشت بالمساند التى اسندت على الجدران ، بينما غطيت الأرض بالسجاد ، وأمسك السقف بصفوف من العواميد البيضاء . وقد سكن فى القصر عدد كبير من الخدم والحراس الشخصيين . وكان بعض هؤلاء من الزنوج ، بينما كان البعض الآخر من رجال نجد المختارين . وكانوا جميعاً يلبسون الجلابيب البيضاء

المحلاة بالقصب ، بالاضافة إلى ياقاتها المطرزة وكانوا يحملون السلاح والسيوف ، ويعج القصر بحركتهم ذهاباً وايابا بحسب ما يتطلبه ابن سعود .

وكان الفناء على الدوام مليئاً بالجمهور ، الذين كانوا يجلسون على المقاعد بالقرب من السور ، إذ كانت تحت القصر مطابخ عظيمة يطعم ابن سعود منها آلاف الناس بالمجان كل يوم ، حيث يقدم لهم اطباقاً عظيمة من الأرز واللحم والخبز واللبن الرائب . وكانت تحت القصر ايضاً مخازن عظيمة للملابس يعطى منها الفقراء وضيوفه . وعلى الرغم من أن احتياجاته الشخصية كانت قليلة جداً ، فقد كان يوسع على الآخرين ، وكان كرمه يصل إلى درجة التبذير . وحين كان يحتج أحد وزرائه على هذا الاسراف ، كان يقول له « لا أنا ولا اسلافي قد احتفظوا لانفسهم بشيء من المال : إن حفظ المال لا يغنى عن الإنسان شيئاً ، فهل فعلت ملايين السلطان عبد الحميد شيئاً من أجله ؟ »

ويقول لآخر « نحن نجني ما نحصد ، فإذا زرعت جيداً فى وقت الرخاء والانتعاش فإننى احصد جيداً فى أوقات الحروب والشدائد ، اننى أعطى كل ما أملك فى وقت السلم ، حتى هذا الجلباب الذى ألبسه ، اذا اراده شخص منى فانى أعطيه إياه » .

وكان الملك عبد العزيز معتزا باسرته ، وعلى درجة كبيرة من الاحساس بمسئولية هذه العائلة ، ولقد تزوج أرملة اخيه سعد ، وتبنى اطفاله ، واعتبر ذلك واجباً من واجباته العائلية . وكان فى كل يوم يزور جميع افراد عائلته واطفاله واخته نوره ، وكانت أمه قد ماتت قبل سنوات قلائل .

ولم ينقطع ابن سعود عن الجلوس إلى والده عبد الرحمن والسماع إلى نصحه وارشاده . وكان فى بعض الاحيان ينهى عمله مبكراً ويركب حصانه فى الليل البارد . مصطحباً بعض حراسه واطفاله فى رحلة إلى المزارع واشجار النخيل الواقعة خارج السور . وإذا خرج من المدينة وجوها المحافظ ، فإنه يتصرف مع ابنائه فى منتهى الحرية وكأنه زميل دراسة لهم ، ويطلق عليهم النكات ، واذا نجح احدهم فى اطلاق نكتة عليه فانه يزأر بالضحك ولم يكن يعترض على مرحهم ، وقد يبدأ فى بعض الاحيان بالإنشاد أو ينظم حرباً وهمية ، يجرى فيها بالحصان وهو يصيح ويتحدى الحراس وأخوته بأن يسابقوه ويفعلوا مثله ، او ان يطلقوا النار على الاهداف بمثل دقته . وكان يشعر بالكآبة إذا هزم فى تلك الألعاب ، وبالسعادة إذا فاز على منافسيه ، حتى لكانه ما زال ذلك الصبى اليافع .

ونظرا لان عبد العزيز كان يعيش دائماً تحت الضغوط ، فقد كان شديد الحساسية وتقلب المزاج ، إذ كان فى بعض الاحيان شديد المزاح كثير الضحك ، ويتبع ذلك برواية كثير من القصص ، ولا يمانع فى الاستماع إلى القصص الماكرة ، وخاصة حين لا يكون فى الجلسة غير الرجال . ولكنه فى احيان أخرى يصبح صعب المراس ، ويضفى هذا الجو على من حوله دون سبب معقول ، ويصبح فى مثل تلك الاحوال صعباً . وقد يكون خطراً . وكان إذا غضب تبدل تبدلاً عظيماً ، وبدرجة يختبىء عنه كثير من الناس الذين حوله ، ولكن غضبه لا يدوم طويلاً .

واذا ارتكب خطأ فإنه يعترف بخطئه ، وإذا اتخذ قراراً غير عادل فانه سرعان ما يعوض المظلوم . وكان مبارك دائماً يقول : ابن سعود سريع الغضب ولكنه سريع التصالح .

وفى ذات يوم ارتكب خادمه شعلوب Shalub خطأ فانفجر ابن سعود غاضباً وطلب إليه ان يمشى حافيا تحت اشعة الشمس الحارقة وعبر صحراء الدهناء إلى الهفوف ، وصاح فيه أن يختفى من وجهه .. وترك شعلوب حذاءه امام غرفة سيده وبدأ رحلته . ولكنه قبل حلول المساء ارسل ابن سعود جملاً فى اثره لاحضاره مرة أخرى . وعندما حضر أجلسه إلى جانبه وتحدث اليه قليلاً ثم تركه يذهب إلى منزله . وحين وصل شعلوب إلى منزله وجد جائزة ابن سعود له حيث خرج من حياة العزلة إلى حياة الاسرة السعيدة .

ولا شك فان ثورات ابن سعود الغاضبة كانت كثيراً ما تحسب لتؤدى اغراضها بدقة ، وقد حدث ان فهد بن جلوى كان شابا مشاكساً وكثير المشاكل ، وقد قام فى أحد الأيام بضرب أحد الحراس ، ولما علم ابن سعود بذلك أرسل من أجل فهد . وكان يجلس فى خيمته يحيط به السكرتيرون وبعض الحراس والسيد فيلبى المندوب الانجليزى . وعندما دخل فهد إلى الخيمة قام عليه ابن سعود وضربه بالخرزة على رأسه وأخذ يتابعه داخل الخيمة بالضرب ثم ألقى به خارج الخيمة . وبعد دقائق قليلة جلس إلى جانب فيلبى وهو يتميز بالهدوء وبرود الاعصاب . وقد اشار إلى فيلبى بكتفيه مستعجباً مما حدث . وكان ابن سيعود يهدف من ذلك أن يوضح له انه لن يترك اى فرد من الشباب يعتدى على افراد الحرس الخاص به .

وذات يوم ارسل ابن سعود إلى أحد العلماء الذى كان يثير شغباً بين الاخوان ، وحضر الرجل وأخذ يتحدث إلى ابن سعود فى غير أدب ، فما كان من ابن سعود الا ان طرده وطلب من الحراس ان يدخلوه السجن حيث تركه فى الحبس الانفرادى لمدة اسبوع .

وكان ذلك درسا حاسماً من دروسه .

ولم يكن ابن سعود يشعر بالكآبة لاشياء خارجة عن نفسه ولا شك ان الاخبار الحسنة كانت ترفع من روحه ، ولكن الاخبار السيئة لم تكنْ تقلل من روحه المعنوية ، بل كانت تدفعه إلى مزيد من العمل وتغرز فيه غريزة القتال . كان احساسه بالكآبة يأتي من داخله ، فقد كان ابن سعود قوياً ومتحفزاً ولم يمرض فى حياته إلا مرة واحدة حين كان طفلاً فى أعقاب القتال من أجل الرياض ، اذ اصابته حمى رومانزمية ولكنه كان بصورة طبيعية عرضة لخمول الكبد ، ذلك أنه لم يكن يأكل طعامه بانتظام .

واذا أكل فانما يكون ذلك بسرعة فائقة ويتبع أكله بشراب سريع ، ثم يتجه إلى عمله وممارساته الحازمة . كان ابن سعود يسوق نفسه بعنف شديد وكان لا ينام إلا قليلا بينما يعمل كثيراً ويترك نفسه تحت ضغوط مستمرة . ولم يكن يعطى نفسه راحة لالتقاط انفاسه . كما لم يكن حريصاً على مأكله ومشربه وحين كان يتوقف خلال المعارك كان يشرب من أقرب بئر . وكان يأكل كثيراً من الفاكهة فى شهر رمضان . وحين يكون فى غير احواله الطبيعية فانه يضاعف من تناول الدواء ولكن جسمه كان يثور ضد سائر أنواع العلاج وكان العلاج يؤثر دائماً على مزاجه وروحه .

وسواء كان ابن سعود فى روح عالية ، أم فى حالة من حالات الكآبة ، ضاحكاً أم غاضباً . فان شيئاً منه كان دائماً يعيش فى غرف تفكيره الخلفية وهو شيء هادىء ويقوم على حسابات دقيقة ، كان دائماً هنالك صوت يوجه تفكيره إلى القرارات المهمة ، ويجعله يكبح نفسه حتى يصل إلى الموقف الحكيم والحكم الصائب .





الفصل الحادى والأربعون

كان ابن سعود مثل معظم المحاربين العظام ، يحب الكلام والمناقشة ، فالكلام هو الذى كان يساعده على تحديد أفكاره ويخرجه من العموم إلى القرارات المحددة ، وكان ابن سعود يرى أن المناقشة هي التى تقربه من عقول الآخرين ، وهو بطبعه يحب مقارعة الرجال الحجج كما يحب مقارعتُهم بالسلاح . وكانت الكلمة المسموعة اكثر أهمية عنده من الكلمة المكتوبة ، ذلك أنه كان يحب إنجاز الامور بصورة مباشرة مع الرجال الذين يقدمون له مشاكلهم ، ولا يحب أن يتعامل مع الأوراق والوثائق . وكان ابن سعود يصدر أحكامه في العادة من خلال المواجهة المباشرة بين المدعى والمدعى عليه دون الرجوع إلى المذكرات او الأوراق ، او الفقرات القانونية . وكانت تصله الاخبار والتقارير والعرائض عن طريق المشافهة والكلمة المنطوقة . وكان صوت المتحدث وطريقته وشخصيته ، من العوامل الحاسمة في اتخاذ قراراته ، وقد كانت المناقشات هى سبيل متعته الوحيدة بعد يوم طويل من العناء والعمل المستمر . وقد كان من عادته بعد صلاة العشاء أن يعقد مجلسا عاما ، وبعد ذلك يذهب لزيارة أفراد أسرته ثم يبدأ في استقبال اصدقائه وزواره في مقر اقامته الخاص حيث يتكلم في كل الاشياء التى تهمه مثل الخيل ، والجمال ، والصقور والصيد والحرب ، ومعاركه القديمة ، والقضايا الدينية ، وفي مقدمة ذلك فهو يستمتع بالاجانب الذين يزورون الرياض حيث يحدثونه عن أخبار العالم الخارجى والسياسة الدولية .

وكان ابن سعود في مثل تلك الاحوال يتخذ مجلسا عالياً ، ويعكف رجليه تحت جسده ويلف عباءته حول جسمه بينما يضع عقاله جانبا . وحين يتكلم فهو يصمت لمدة دقيقة واضعاً يديه على ركبتيه ، ثم ينظر بعيدا فتظهر وجنتاه ولحيته على نحو واضح وتكون تلك مناسبة يتخير فيها الكلمات بدقة . ويتحدث ابن سعود في العادة بصوت واضح ، ويكون حديثه رقيقا حين يتحدث في الامور العادية ، ولكن حين يستبد به الغضب فان صوته يهدر كالطبل ، وتخرج جمله كالشخير ، مصحوبة بعلامات من وجهه غاية (في التعبير) وأما كفاه فقد كانتا عظيمتين ، وتبدو كل كف منهما وكأنها بحجم كفين لرجل عادى . وله أصابع طويلة ذات علامات (معبرة) ويمكنه برعشة كف أن يوضح كيف ان رجلا قاوم لحظة الموت من أجل نفسه الاخير ، ويمكنه أن يوضح بقبضة كفه كيف ان قافلة من الجمال تحركت و انسربت

نحو التلال الرملية . ويمكنه ان يتحدث في بعض الاحيان لمدة نصف ساعة دون أن يتوقف ، ويحلى كلامه ساعة بالعاطفة ، وأخرى بالتقليل من نبرات صوته ، ويستخدم في كل ذلك يديه وكتفيه وجميع أجزاء جسمه في علامات بلاغية مؤثرة .

وعلى الرغم من أنه كان يحتاج إلى قليل من النوم أو لا يحتاج إليه على الاطلاق ، فانه ومع مرور الساعات يبدأ ضيوفه الشعور بالنعاس وثقل الاجفان من شدة التعب . ويظل ابن سعود وحده يراقب الموقف حتى يبدأ واحد بتمديد رجليه وتخبئة وجهه بكفه من أجل أن يغطى علامات النعاس فيقول له ابن سعود مداعبا :

والآن يا أحمد أليس الأمر كذلك ؟ أخبرنا حول حقيقة الموقف . وهنا يشعر النائم بالارتباك ، ويطير النوم من جفنيه ويحاول اجلاس نفسه بصعوبة ، ويتظاهر بانه لم يكن نائما ، وعندئذ يضحك ابن سعود من ذلك الموقف .

وكان ابن سعود يتسلى بمثل هذه النكات . وقد حدث ذات يوم أن جاء لزيارته أحد البدو وهو الشيخ نافع بن الفضيلة وكان معروفا بطمعه وعدم حيائه . وكان نافع يتشكى بانه يعيش الفقر ، بينما يستمتع ابن سعود بالثراء والراحة ، واقترح على ابن سعود أن يسوى بعض الفروق بينهما واقترح عليه أن يزوجه احدى جواريه .

فقال ابن سعود قم واختر الجارية التى تتزوجها . ولكن ابن سعود شغله بالكلام بينما ارسل إلى النساء يوضح لهن كيف يستقبلنه . وعندما صعد الشيخ السلم ، وهو يلهث من أجل أن يختار عروسه استقبلته النساء عند أعلى الدرج ، وأخذن يركلنه ويصفعنه وطاردنه حتى المكان الذى كان يجلس فيه ابن سعود ، ولما دخل وجد الجميع ينتظرون وقد كاد الضحك يشق كل واحد منهم نصفين ، وهم يرون شيخ قبيلة ومقاتلاً يجرى طالبا النجاة أمام حفنة من النساء .

وفي بعض الاحيان وعند المساء كان ابن سعود يستدعى اصدقاءه ووزراءه والضيوف إلى القصر ويتحدث اليهم طوال الليل وتحت قبة السماء ، سماء الجزيرة العربية القرمزية ذات العمق اللامتناهى حيث النجوم ينعقد نظامها في الافق ، والقطبان الشمالى والجنوبى يواجهان بعضهما بعضا . بينما درب التبانة (المجرة) يعرش فوقهما ، واورايون « الجوزاء » يجرد سيفه من غرابه . عندئذ ينحى ابن سعود عمله جانبا ويبدأ في الاستمتاع بالحديث إلى الناس حوله . ويكون حديثه عادة حول الحرب والمغامرات والقفشات . ويثير في بعض الاحيان موضوعات دينية أو يتكلم في أمور الحياة الاساسية وخاصة تلك التى تتعلق بالعقيدة والموت . وإذا كان هنالك ضيف من الخارج فانه يظل يسأله عن أخبار العالم الخارجى دون هوادة .

ويمكن لابن سعود أن يتحدث دون تعب طوال الليل وقد يصاب كثير من الذين يجالسونه بالارهاق ، ويستمر هذا الأمر حتى يظهر الفجر الكاذب ذو اللون البرتقالى الشاحب الذى سرعان ما يتلاشى في الأفق ، ويصبح الليل بعده أكثر سوادا حيث تهب بعض الرياح ويبدو الامر كأن الأرض قد مالت خلال نومها وأخذت تتمطى لتستيقظ ، والرياح تأتى في العادة من صحراء الجزيرة الداخلية وهى الصحراء التى يحكمها ابن سعود ، انها رياح مضمخة برائحة ندى الليل فوق الرمال ، وفوق الحشائش وأشجار النخيل . وتلك هى العلامة بأن الليل قد انتهى ، وعندئذ يصفق ابن سعود إلى خدامه الزنوج لاحضار القهوة والشاى ومزيد من الشاى وأوانى اللبن ، لبن الجمال الرائب . وبعد أن يترك ضيوفه يأكلون يقودهم ابن سعود في موكب مهيب إلى الدرج ويطلب من الحراس أن يوصلوهم بامان إلى بيوتهم ، اذ يوجد في القصر وفي الشوارع كثير من الناس الذين يكرهون الأجانب .

وبينما يزحف الضيوف المتعبون إلى النوم ، يبدو ابن سعود نشطاً وكانه قد صحا من نومه . وحين يختلط الفجر بنسمات باردة ، يصعد ابن سعود مرة أخرى إلى سطح القصر وعند ذاك تبدأ المدينة ، في الاستيقاظ ، فتسمع أصوات افتتاح الدكاكين وأصوات الجمال . ويظهر التراب الذى تثيره القوافل عند البوابات ، وعندئذ يتجه ابن سعود إلى المسجد ليؤدى الصلاة ثم يوقظ افراد اسرته وسكرتيريه ويذهب إلى غرفته ليعمل حتى منتصف النهار .





الفصل الثانى والأربعون

لقد استطاع ابن سعود بمجيء ربيع عام ١٩١٨ أن يبسط سلطته على نجد بأكملها ، ولكن علاقاته بجيرانه قد أصبحت أكثر تعقيدا بحيث اصبحت تحتاج إلى كل مهاراته وقدراته التحكمية كى يجعل الامور تسلك مسارها الصحيح . وقد التزم ابن الرشيد الهدوء في ذلك الوقت واتجه إلى التجارة مع الاتراك ، وكانت لديه بعض الاتفاقات التنظيمية الخاصة مع سالم الذى أصبح شيخا للكويت . وكان سالم كعادته ذا سياسات معقدة ولا تبدو واضحة للعيان ، كان تحت غطاء معاهدته مع الانجليز وحمايتهم ينزل البضائع من كل الالوان في الكويت ، ثم يحملها بواسطة القوافل عبر ابن الرشيد إلى الاتراك في دمشق . ولم يكن ابن سعود قد نسى موقفه حين كان يحارب العجمان . واستطاع ابن سعود ان يوقف بعض القوافل المتجهه للأتراك .

ولقد اصبح الموقف مع الحسين من جهة أخرى اكثر تعقيدا ، ذلك أنه بعد أن ساعده الانجليز على دحر الأتراك فقد تدعم موقفه تدعيما كبيرا ، ودفعه ذلك إلى أن يعلن نفسه ملكا على سائر البلاد العربية ، وقد أرسل الحسين إلى ابن سعود يطلب منه الاعتراف بهذا الوضع ويتوقف عن المطالبة بسلطته على قبائل عتيبه . وكانت لهجة الخطاب شديدة اشتاط منها ابن سعود غضبا ، ولكنه لم يتحرك بأى عمل يؤخذ عليه . وعلم ابن سعود ان الموقف مع الحسين لن يحسم بالتفاهم ، ولذلك فقد ارسل الوعاظ والخطباء كى يستميلوا قبائل العتيبة إلى دعوته التى تستهدف توحيد الجزيرة العربية . وقد حقق الوعاظ كثيرا من النجاح ، وتحول كثير من العتيبة إلى ابن سعود وقبلوا المبادىء التى انطلق منها . وهكذا تحول أهل مدينة « الخرمه » والذين كانوا تحت قيادة شيخهم لؤى - إلى معسكر ابن سعود . وقام هؤلاء بتنحية ممثل الحسين ورفضوا دفع الضرائب له واعلنوا انهم تحت حماية ابن سعود .

لقد كانت الخرمه مدينة مهمة ، وهى تقع في واحة غنية تحيط بها أشجار النخيل وغابات الطرفاء وحقول القمح ، والبرسيم ، كما كانت مركزا تجاريا يتبادل فيه بدو نجد الماشية والصوف مع تجار الحجاز . وقبل ذلك كله فقد كانت المدينة هى مفتاح الحجاز لانها تتحكم في سائر الطرق اليه وخاصة إلى ميناء جده والطائف ومكة المكرمة .

ولم يكن الحسين ليدع مدينة الخرمة تخرج من يده ، وقرر لذلك ان يرسل ثمانمئة رجل لاستعادتها ، ولكن رجال المدينة وقفوا بشجاعة ضده ورفضوا عودتها اليه . وقد استنجد أهل المدينة بالبدو حولهم ، وهكذا استطاعوا ان يدحروا جيش الحسين وطاردوه عبر اشجار النخيل ومجرى النهر الجاف الذى يقع غرب المدينة إلى السهول الواقعة ما وراء النهر .

ولقد وصلت الاخبار إلى نجد فامتلأ الاخوان وانصار ابن سعود بالحماس ، وطالبوا قائدهم بالسير إلى الخرمة ، واعتبر هؤلاء الوقوف مع أهل الخرمة ضربا من الجهاد ، وحثوا ابن سعود للتحرك وقيادتهم إليها . وعندئذ قال ابن سعود « نعم اننى اتفق معكم ، يجب أن نتحرك لنجدة الخرمه لأن محنتها تزكم أنفى ، ولكن يجب أن نتعقل ، ذلك ان وقتها لم يحن بعد .





الفصل الثالث والأربعون

وفي الحقيقة فقد كان ابن سعود في موقف حرج ، ذلك ان كل غرائزه ورغباته واعتزازه بنفسه ، وبشعبه كان يدفعه إلى الهجوم ، ولكن الانجليز وبعثتهم كانوا كالشجى في حلقه ، اذ ظل « فيلبى » يلح عليه ان يحافظ على شروط الاتفاقية بينه وبين انجلترا ، وقد أخطره الانجليز بأن الحسين هو حليفهم في المنطقة وان الهجوم عليه يعنى الاخلال بالاتفاق مع الانجليز ، وطلب الانجليز إلى ابن سعود ان يتوجه إلى ابن الرشيد الذى كان يتحالف مع الاتراك العدو المشترك لابن سعود والانجليز . وكان هذا هو راى بلهافن الذى تحدث بنفس الراى في دمشق ، ولكن ابن سعود كان يعرف تماما انه لا يتلقى الاوامر من أحد ، وانه إذا توقف عن عمل فلأنه يعرف حدوده وامكاناته وهو لن يتجاوز حدوده ، وبالتالى فقد وضع سائر الافكار القاتلة خلف ظهره .

ولكن ابن سعود ظل طوال الصيف يقلب الامر هنا وهناك دون أن يصل إلى قرار يحدد به مساره . كانت كل الضغوط عليه أن يتوجه نحو الحسين ولكنه كان يعلم انه لو فعل ذلك فسوف يغضب الانجليز ، وان مثل هذا الموقف قد يحبذه الاتراك . وكان تقدير ابن سعود في موضعه ، اذ كان يدرك ان الانجليز سوف يكسبون الحرب ضد الاتراك وان كل التقارير التى كانت تحضرها له عيونه تؤكد ان الجيش التركى في سبيله إلى الانهيار . لقد كان الجيش التركى يعانى من المجاعة وقلة العتاد والمرض ، وتنقصه القيادة والروح المعنوية ، وكان الجنود يهجرون الجيش بحيث اصبح عدد الهاربين في التلال اكثر من عدد المقاتلين في الجيش النظامى . ذلك في الوقت الذى كان الانجليز يحضرون فيه قوات جديدة ، ومدافع وعربات مدرعه ، وطائرات ، وقد بدأوا يكثفون هجومهم على القوات التركية .

ولما رأى الحسين تعقل ابن سعود أرسل قوة أخرى إلى مدينة « الخرمه » ومرة أخرى هزمت قواته . وقاد الدفاع عن المدينة الشيخ لؤى الذى طلب مرة أخرى النجدة من ابن سعود ، ولكن ابن سعود كان في موقف صعب .

وحاول ابن سعود ان يصلح الامر بان ارسل رسالة احتجاج إلى الحسين ،ولكن الحسين اعاد الرسالة إلى ابن سعود دون ان يفتحها ، وأخطر الحسين رسوله ان يبلغ

ابن سعود رسالة شفوية قالها أمام الملأ فحواها انه سيسير إلى الرياض بنفسه ليؤدب أهلها . ولم تعجب تلك الرسالة أهل الرياض لأنهم لم يفعلوا شيئا يستحقون عليه تلك الكلمات القاسية ، وبدأت الاصوات ترتفع وتصيح مثل الزئير تطالب ابن سعود ان يفعل شيئا . وكان هذا رأى والده ورأى العلماء والمشائخ ورأى الدويش شيخ المطير ، وزاد هذا من تعقيد الامر امام ابن سعود الذى كان يدرك خطورة الموقف مع الانجليز خاصة وانه لم يكن مطمئنا إلى موقفهم من سياسته .

لقد كان موقف الانجليز غريبا حقا ، فهم قد تحالفوا معه في نفس الوقت الذى كانوا يحمون معارضيه الذين كانوا يرسلون السلاح إلى ابن الرشيد لمحاربته . وكانوا في نفس الوقت يطلبون إليه ألا يهاجم الحجاز بينما يعطون الحسين السلاح والمال لمهاجمته . ولم يستطـع « فيلبى » الذى كان مخلصا لقومه ان يفسر له في فوضى الحرب والسياسات المتنافرة التى كان يتخذها مكتب الهند ووزارة الدفاع ، ووزارة الخارجية ومكتب الشئون العربية في مصر ، اذ بينما كل هذه الجهات تتبع جسدا واحداً ، فقد كان كل منها يتخذ سياسة تختلف في طبيعتها عما يتخذه الآخرون ، وقد تكون هذه السياسة متناقضة مع غيرها من السياسات ، وبينما كان مكتب الهند يعمل بالتنسيق مع ابن سعود ، ويقدم له بعض المساعدات والمعونات العسكرية ، فان مكتب الشئون العربية في مصر كان يعمل مع الحسين ويقدم له المال والسلاح والوعود ، وفي نفس الوقت وقعت وزارة الخارجية البريطانية اتفاقات مع الفرنسيين ضد سياسات بريطانيا مع كل من الحسين وابن سعود .





الفصل الرابع والأربعون

وأخيرا ، فقد بدأ صبر ابن سعود ينفذ ، ذلك ان التعقيدات كانت تزيد من ضيقه . كان ابن سعود يسعى بطبعه إلى ان يحلل المشاكل إلى عناصرها الاولية حتى يتمكن من اتخاذ قراره المناسب بشأنها وكان من الامور التى يكرهها ان يظل معلقا لا يتخذ قراره الحاسم ، ذلك ان مثل هذه المواقف كانت تصيبه بالالم وعدم راحة البال .

وذات يوم دخل معه « فيلبى » في مناقشة طويلة ومعقدة لم تبن لها نهاية واضحة وعلى الرغم من أن ابن سعود كبح جماح نفسه لمدة طويلة فانه فجأة تجاوز مناقشة فيلبى وقال في عدم صبر واضح وهو يضرب بعصاه على الارض حتى يؤكد قوله « اقسم بالله العظيم اننى لن أظل أتعب نفسى بما أفعله وما لا أفعله ، ان عندى الكثير من العمل من أجل أن أحكم هذه البلاد بشريعة الله لا أخشى شيئا حتى يأخذنى الله إلى جواره » .

وكانت تلك هى فلسفة ابن سعود فى الحياة . ولكن علاقته بالحسين والانجليز لم تسمح له ان يبسط الامور إلى هذه الدرجة وهكذا لم يستطع ان يحدد موقعه ، وبالتالى بدأ يشعر بالقلق ، وذلك ما قاده إلى حدة المزاج ، ومرة أخرى فقد ابتدأ شهر رمضان ، وكان رمضان في أحواله العادية امتحانا لشهوات الجسد ولكنه في ذلك العام جاء في شهر يونيو ، وبذلك اصبح امتحانا للعقل والجسد معا . كان الناس يصومون من وقت الامساك إلى وقت الغروب لا يأكلون ولا يشربون ، ويرفض بعض المتشددين حتى بلع ريقهم ، وكان موعد الافطار بعد غروب الشمس ، ولم يكن ابن سعود كعادته ينام في تلك الايام اكثر من ثلاث او اربع ساعات . وبينما كان الصيف متربا والحرارة كأنها فرن فى القصر ، وبينما كان اكثر الناس تشددا ينامون لقتل الوقت كان ابن سعود يعمل ويعقد مجالسه ويقضى بين الناس ويسمع شكاواهم ويؤدى الصلوات في مواقيتها . ولكن الضغط كان عليه شديدا ، واستقبل ابن سعود فيلبى الذى كان يحوم حوله كأنه ذبابة صيف وهو يحاول أن يصرف ابن سعود عن التفكير في الحسين وتوجيه أنظاره إلى ابن الرشيد . قال له ابن سعود « إن حلفاء الانجليز يحيطون بى من كل جانب ويهددونى . الله يقطعهم » .. ولكنى أنا نفسى عقدت اتفاقا مع الانجليز ، وعلى الرغم من ذلك فهم ما زالوا يهددونى ، ولكن كن

على علم يا فيلبى اذا لم يقم الانجليز بحمايتى من حلفائهم فسوف اضطر للدفاع عن نفسى » .

ولقد كانت تلك أياما قاسية على ابن سعود ، وقد عجب الانجليز كيف تحول ابن سعود وأصبح يتكلم ساعات طويلة دون أن يحدد موقفه بصورة واضحة . ولم يضع الحسين وقتا اذ أرسل جيشا ثالثا إلى الخرمه لقى نفس مصير الجيشين السابقين ، وعندئذ بدأ الحسين يعد المدفعية لدك المدينة . وكانت الضغوط تتوالى على ابن سعود وتصله رسل المدينة وبعض قطع السلاح التركى التى غنمها أهله . وأخيرا فقد ارسل أهل المدينة رسالة قالوا فيها « إذا كنت تحجم عن مساعدتنا من أجل كنوز الدنيا يا عبد العزيز فأخبرنا ، وسنعذرك ، ولن نرسل رجالنا في المرة القادمة . بل سنرسل نساءنا لاستثارة أهل نجد لمساعدتنا »

وكانت الرسالة مؤثرة جدا ، وقد أبدى عبد العزيز بموقفه هذا حنكة سياسية وعسكرية بالغة ، فقد جعل الانجليز من ناحية يعتقدون انه يحافظ على اتفاقيته معهم ، ومن ناحية أخرى جعل أهل نجد يضغطون عليه حتى يبدو موقفه طبيعيا مع الامر الواقع . وقد أثارت رسالة خرمة عاصفة في نجد . وكان ما يريده عبد العزيز هو ان يجمع التأييد حول موقفه وقد لقى التأييد الكامل ، اذ أصبح الدويش والاخوان وكل أهل نجد يتحدثون عن الحرب ، وبلغ بهم الحماس انهم قالوا لابن سعود انهم سيذهبون بمفردهم لانقاذ الخرمة ومن ثم سيتوجهون إلى مكة . وفجأة جاءت اللحظة الحاسمة التى لم تترك لابن سعود أى وقت للتفكير إذ صدقت كل تصوراته السابقة حين اتفق معارضوه الذين حددهم على مهاجمة نجد .



الفصل الخامس والأربعون

وفى الحال مد ابن سعود يده فى قبضة جديدة . فقد كان عدم اتخاذ القرار فى نظره مثل عبء يحني اكتاف الرجال ، ويبطيء خطاهم ، ولكنه قد زال الآن ، لقد ازاح ابن سعود عن نفسه ذلك العبء ، وبدأ يفتح اذرعته من جديد . لقد انتهى عهد القلق والصراع والمناقشة مع نفسه وساعات الحديث غير المحدد . لقد حدد – الآن –ابن سعود موقفه ، وقرر أن يهاجم ابن الرشيد فى الحال .

لم يكن يريد أن يخلق مشكلة بينه وبين الانجليز ، إذ كان بامكان الانجليز أن يعطوه مزيدا من السلاح والمال والذخائر ليقف بها فى وجه ابن الرشيد . ويمكنه بتوجيه الحرب إلى ابن الرشيد ان يصرف انظار الناس إلى حين ، ويوجه ضربة غير مباشرة إلى معارضيه الآخرين والذين كانوا قد اتفقوا على الهجوم على نجد .

وقد اتفق ابن سعود مع فيلبى على الا يقوم أي من سالم أو الحسين بالتعرض إلى قواته ، وبالتالى فقد ارسل ابنه تركى فى افضل مقاتلي الأخوان ، ومعهم الدويش كمستشار لمواجهة ابن الرشيد . ودخل ابن سعود فى مناقشة مع الشيخ عبد الوهاب والعلماء موضحا لهم ان ابن الرشيد كان دوماً هو الخصم التقليدى وهو الذى دمر بلاد نجد من قبل ، ويقف معه الآن الاتراك الذين كانوا يعطونه الآلاف من القطع الذهبية والسلاح كل شهر ، وقد وعدوه ان ينصبوه سلطاناً على الجزيرة العربية .

وكان الجميع يعلمون ماذا سيحدث إذا عاد الاتراك وابن الرشيد إلى الرياض . واقنعهم ابن سعود أن الموقف مع الحسين يمكن ان يؤجل لانه يمكن ان يسوى فى مرحلة لاحقه ، ويمكن للانجليز أن يلزموا الهدوء فى الوقت الحاضر ، ولكن ابن الرشيد يشكل خطراً داهماً خاصة وأنه قد جمع بالفعل رجاله ويستعد للسير بهم . ولم يؤخر سيره سوى أنه كان ينتظر شحنة من السلاح تأتيه من الاتراك ، واوضح لهم ابن سعود ضرورة السير إلى ابن الرشيد قبل ان يكمل استعداداته . ولما استطاع ابن سعود ان يكسب العلماء إلى رأيه أرسل إلى شيوخ القبائل لمقابلته عند مدينة شقره .

وجاء قادة القبائل عند الموعد المحدد وهم يتحرقون للحرب . وكانت كل مجموعة تصل يقف ابن سعود لتحيتها ثم يفسح لها المجال لتقف مع شيخها

وهى رافعة اعلامها وغارزة الحراب امام خيمة الشيخ ، بينما يقف راكبو الجمال والخيول حول شيخهم . وعندما تجمعت الوفود كلها دعاهم ابن سعود إلى مؤتمر عام ، فجلس رجال المدن والقرى والبدو ومجموعة كبيرة من الاخوان حول ابن سعود فى ثلاثة اضلاع ، وصنعوا مربعاً ضخماً فوق السهل الرملى ما وراء البوابة الشمالية للمدينة .

وكان فى الضلع الرابع للمربع يجلس ابن سعود وإلى جانبه حراسه .

ولما أخطرهم ابن سعود بان الحرب ستكون مع ابن الرشيد بدا كثير منهم يشعر بالشك لانهم كانوا يريدون ان يتوجه بهم وجهة اخرى وبدأ الرجال يتحدثون واحدا تلو الآخر فى هذا المعنى ، وقد تحدث فى ذلك المشهد ممثل الأخوان كما تحدث فيصل الدويش شيخ المطير الذى طالب ابن سعود ان يتوجه بهم إلى مساعدة أهل الخرمه أو لوقف حد لهجمات العجمان الذين ظلوا يغيرون على القرى ويرجعون إلى الصحراء دون عقوبة تذكر ، وطلب فيصل الدويش من عبد العزيز أن يصدر اوامره فى هذا الاتجاه ووعده ان يجد كل الناس خلفه .

وجلس ابن سعود يسمع اليهم ، وادرك بحنكته القيادية ماذا يدور فى اذهانهم . وكان الموقف خطراً جداً ويحتاج إلى كل مهارات ابن سعود التى عرفت عنه ، خاصة وان بعض الناس بدأوا يهمسون ان عبد العزيز يحجم عن التوجه جنوباً بسبب موقف اتخذه من الانجليز . وكانت الصعوبة التى تواجه ابن سعود هى ان فيصل الدويش وهو صاحب اغارات معروفة وتأثرت كثيراً بموقف ابن سعود كان بطبعه يكره الاجانب والانجليز بصفة خاصة ويشعر بالغيرة ، ولكنه فى الحقيقة كان يتحدث بما فى قلبه ، وكان يقف وراء فيصل الدويش صفوف الأخوان الذين أصبحوا قوة في تلك السنوات الأخيرة ، خاصة بعد ان ازدادت اعدادهم ، وعلم ابن سعود انه ما لم يعالج الموقف بحكمة فان تلك الصفوف المتحمسة قد تشتعل ناراً وتتوجه جنوباً لمحاربة الحسين دون قيادته .

وجلس ابن سعود لفترة من الوقت يفكر وعيناه متجهة إلى اسفل بينما قد وضع يديه على ركبتيه كعادته المعروفة . وظل الناس تحت حرارة شمس اغسطس المحرقة ينظرون إليه فى صمت بالغ ينتظرون قراره الحاسم . وأخذ ابن سعود يمرر يده على لحيته ، وفجأة بدأ الكلام وهو يواجه الجميع ، وقد بدأ الاشراق على وجهه ، اذ كان ابن سعود خبيراً بالكيفية التى يواجه بها مثل اولئك الرجال ، وكان يعرف الكيفية التى يصل بها إلى قلوبهم ويستثير حماسهم ، وكان عبد العزيز يمتلك جاذبية الشخصية ، وملكة الخطابة التى يصل بها إلى قلوب الناس ، وأخذ ابن سعود يتكلم

اليهم بالكلمات المعسولة ، ثم يغير الكلام ليستثير مشاعرهم الدينية ، ثم يلهب فيهم الحماس للايمان بقيادته ، واخيرا طلب اليهم ان يتناسوا خلافاتهم الشخصية ويحاربوا من اجل العقيدة وحدها .

قال عبد العزيز وقد رفع صوته تدريجياً .

« انظروا إلىّ .. انكم جيشى ، وانى لا املك جيشاً غير عون الله ثم انتم ، واريدكم ان تعلموا أننى لا أقصر فيما هو واجب عليّ ولا أقصر عن ادراكه واما بالنسبة للحسين فلا تفكروا فيه مرة أخرى ، فاما يوقفه الانجليز عن مهاجمة الخرمة والا أعاهدكم عهد الله ان اسير فى مقدمة الصفوف إليه وكل ما يريده الموقف هو أن أرسل أحد أفراد عائلتي او حتى خادماً من خدامى إلى الجنوب لتهتز الأرض تحت اقدام الحسين ، واما بالنسبة للعجمان فانتم تقولون مالا تعلمون ، انكم تقولون ان الانجليز يقفون خلفهم . واذا كان الامر كذلك فلماذا يقول لي الانجليز اضرب حائل الآن ، وانته إلى الأبد من خصمك اللدود ابن الرشيد وأنا لا آخذ أوامرى من الانجليز ، ولكنى أعلم بحسب ما أرى أن تلك كلمة حق ، لان العجمان لن يكون لهم دور اذا بسطت حكمى على حائل ، وإذا فعلت ذلك فان الانجليز سوف يتركون سائر قبائل الصحراء تحت حكمي ، وبعد ذلك فلن تكون لنا مشاكل مع اولئك الذين يسكنون على حدودنا » .

وبعد ذلك شرح لهم ابن سعود كيف ان ابن الرشيد هو الخطر الحقيقى ، وطلب اليهم ان يثقوا فى قيادته ويتركوا له الامر كى يديره ، وعندئذ طلب ابن سعود من العلماء كى يقفوا ويحددوا موقفهم ، وكانت المفاجأة عجيبة ، اذ حدث التحول الذي ينتظره ابن سعود . إذ أعلن العلماء ثقتهم فى قيادة ابن سعود وحسن توجهه وتبعهم الاخوان الذين نحوا شكوكهم وهتفوا بالموافقة لابن سعود ، وأخذوا يضربون جباههم على الارض ويبكون من الندم وهم يقولون « يا عبد العزيز لماذا لم تصارحنا من قبل ، وكنا قد سرنا خلفك دون ان نترك للوساوس مجالاً تشككنا فى حسن قيادتك » .

وهكذا استعاد ابن سعود الموقف لصالحه ، واصبح القائد الذى لا يشق له غبار وتجمع شيوخ القبائل حول خيمته لمجرد لمس يده تعبيراً عن ولائهم له . وفى المساء وقف الرجال جميعاً خلف ابن سعود وهو يؤمهم فى الصلاة وقد بدا بارزا بطوله فوقهم وكان يقف خلف ابن سعود اثناء الصلاة زنجي وهو شاهر سيفه تحسباً لاى هجوم مباغت اثناء الصلاة .

وبعد أن انتهت الصلاة توجه ابن سعود إلى الناس ، وقال لهم ليذهب كل منكم إلى منزله ويستعد للحرب ، وبعد أن تدبروا أمركم عليكم أن تقابلوني فى بريدة عند مطلع البدر الجديد ولتشملنا عناية الله ورحمته بالنصر .



الفصل السادس والأربعون

وبعد شهر من ذلك التاريخ قاد ابن سعود الطلائع فى طريقه إلى حائل وكانت عيونه قد رصدت ابن الرشيد يصيد إلى الغرب وان استحكامات المدينة ضعيفة للغاية . وكان بين ابن سعود وحائل بعض القبائل الرعوية وهم بنو « يطرف » وهى قبائل تتسم بالشجاعة وتدين بالولاء لابن الرشيد . واستطاع ابن سعود ان يدفعهم أمامه ويشطرهم إلى نصفين ، ولكن التأخير الذى أحدثوه كان لانذار ابن الرشيد الذى عاد مسرعاً إلى حائل وأغلق البوابات وبدأ يستعد لفترة الحصار . ولم يكن ابن سعود يريد أن يحاصر المدينة . ذلك انه كان يعلم أن قبائل شمر قوم شجعان ويصمدون للحصار بينما الذين يقفون معه تعودوا فى الماضى على الكر والفر وليس بهم صبر للبقاء مدة طويلة فى عمليات الحصار بدون عمل . لقد غنم هؤلاء شيئا من الماشية والسلاح والذهب من بني يطرف وكانوا يفكرون فى العودة إلى ديارهم . ولقد حققت حملة ابن سعود اهدافها الاستراتيجية اذ هو لقن ابن الرشيد والاتراك درساً ، كما شق المؤامرة التى كانت تحاك ضده ، وأرضى في نفس الوقت الانجليز وأنصاره . ولم يجد ابن الرشيد مفراً من طلب السلام وقد وافق ابن سعود على ذلك وعاد إلى دياره وهو يشعر بحلاوة الانتصار .





الفصل السابع والأربعون

وعند عودة ابن سعود من حائل كان الانجليز بقيادة الجنرال « اللنبى » فى فلسطين وبقيادة الجنرال مارشال فى بغداد يطردون الاتراك المشتتين أمامهم . ولقد اكتسح اللنبى فلسطين واستطاع ان يأخذ دمشق . وكان الحسين قد ارسل رجاله إلى الجبهة تحت قيادة ابنه فيصل ويصحبه لورنس ، وذلك لمساعدة « اللنبى » .

وأخذ الجنرال مارشال الموصل واستطاع بالتضامن مع اللنبي ان يطرد الاتراك عبر جبال طوروس خارج البلاد ألعربية جميعها وطلبت تركيا وبلغاريا هدنة وتبعتهما فى ذلك النمسا ، ولم يمض كبير وقت حتى كانت المانيا قد جثت على ركبتيها وانتهت بذلك الحرب العالمية .

وفى أعقاب الحرب العالمية الاولى فى عام ١٩١٨ عم وباء الانفلونزا الذى وجد فرصته السانحة فى أجسام الجوعى فى المانيا وروسيا وكبرت المأساة من خلال الامراض التى تفشت بسبب الجثث التى لم تجد من يدفنها فى جميع الجهات وتناثرت عبر حقول العفن الفطرى . وقد بدأ هذا الوباء الذى غذاه يأس الناس فى أوروبا يستجمع قواه ويأخذ من الارواح أكثر مما أخذته الحرب ذاتها .

ووصل الوباء إلى الجزيرة العربية ، ولم يفرق بين البدو وسكان القرى ، ودخل الوباء إلى الرياض . وكان يأخذ القوي قبل الضعيف بحيث لم يكن هنالك منزل فى الرياض لم يكن فيه موتى . وكان ضحية هذا الوباء « تركياً » الابن الأكبر لابن سعود . وهوشاب كان يتسم بالشجاعة وقد رشحه ابن سعود لخلافته وكان يضعه فى حدقة عينه ، وكان الوباء ايضاً سبباً فى قتل « جوهرة » زوجة ابن سعود . وكانت امرأة على قدر كبير من الرواء والحنكة تفوق بها سائر البنات العربيات وكان ابن سعود يحبها حباً عظيماً .

وحدث ان اختلفت معه ذات يوم ، وافترقت عنه ولكنه علم انه لا يستطيع العيش بعيداً عنها فعادت إلى موقعها منه . ولقد ولدت له جوهرة اثنين من ابنائه . ولم تزده الايام الا حباً لها ، وكانت وفاتها مصدر أسى كبير بالنسبة له .

كان ابن سعود فى حياته الاسرية رجلاً ودوداً ومحباً عظيماً ، وكان ذا تقدير للمراة كرفيقة درب وكأم لابنائه . ولم يخبىء هذه الحقيقة عن أحد ، وكان يلتزم فى

ذلك قواعد الشرع ويقول « اننى اتبع فى كل ما اسلك سنة النبى ﷺ فما أباحه أبيحه لنفسى وما لم يبحه امتنع عنه » .

وذات يوم في عام ١٩١٧ وحين كان يتحدث إلى « بلهافن » أبدى دهشته ان يبيح الناس المتحضرون في انجلترا الزنا والخيانة الزوجية ، ويمجدوا ذلك في كتبهم واشعارهم فقال له بلهافن وكم زوجة عندك ؟

فقال ابن سعود وقد اراد أن يفجعه : مئه ، واذا شاء الله سأتزوج غيرهن وأطلق مادام ذلك في حدود الشرع .

وفي مرة أخرى كان يتحدث مع فيلبى في مسائل الزواج والطلاق فقال : « لقد تزوجت كثيراً فى حياتي ، وبعون الله ، فمازلت شاباً وقوياً ، والآن بعد كارثة الحرب سوف يدرك الناس في أوروبا حكمة تعدد الزوجات ، وسيلجأون إلى ذلك .

ولم يكن ابن سعود يتصور امكان ان يتخذ الرجل زوجاً واحدة لأن هذا امر غير واقعي ويدعو إلى السخرية ، والرجل الذي يكون في مثل هذا الموضع يستحق الرثاء وعليه ان يعرض نفسه على الاطباء لاخصاب حيويته .

لقد عاش ابن سعود فى حدود الشرع ، ولم يبح لنفسه ابدا شيئا لم يبحه الرسول ﷺ ولم يكن المسيح قد اعطى اى تعليمات بشأن عدد الزوجات ولكن محمداً ﷺ قد جاء برسالة تكمل رسالة المسيح عليه السلام وقد ورد فى القرآن الكريم :

﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ﴾

وكان من عادة ابن سعود ان يحتفظ بثلاث نساء واذا كان عنده اربع نساء واراد الزواج فانه يطلق واحدة . ولم يكن ابن سعود يتخذ الجواري ، وكان ابن سعود حسن المعاشرة لزوجاته . وكان يذهب كل مساء بعد الصلاة وفى حوالى التاسعة مساء لزيارة اهله ، ولم يحدث ان اشتكت اى من زوجاته منه او ادعت انه يهملها .

وكان زواج ابن سعود يتم لاغراض مختلفة . ففى بعض الاحيان كان زواجه سياسياً يستهدف به تقوية موقفه التحالفي مع القبائل الكبيرة ، مثل زواجه من احدى بنات عائلة عبد الوهاب في الرياض وذلك ليوجد علاقة مصاهرة بينه وبين هذه العائلة الدينية الكبيرة ، وكانت احدى زوجاته من السدير واخرى من المطير ، وثالثة من عنزة ورابعة من الدواسر .

ويمكن أن يقال إن عبد العزيز تزوج من معظم العوائل الكبيرة . ولم يعترض هؤلاء على الطلاق ، لأن عبد العزيز لم يترك مجالاً لاحساس اى واحدة بعدم العدل .

إذ كانت معظم العوائل تشعر بشرف كبير أن يتزوج منها عبد العزيز ، وإذا أنجب أطفالاً نشأت بين هذه العوائل وآل سعود صلة دم .

وكان ابن سعود يرعى مطلقاته رعاية كاملة باعطائهم المال ، وبتزويجهن اذا لم يكن لديهم أطفال منه . وإذا كن قد انجبن أطفالاً فهو يقبلهن ويخصص لهن خدماً ومساكن يرعين فيها ابناءهن .

وكان عبد العزيز فى بعض الاحيان يتزوج من أجل أن يدعم علاقاته مع بعض القبائل التى ضمها حديثاً إلى سلطته ، أو من أجل رغبته فى أن يرفع مكانة إحدى العوائل التى أدارت لها الأيام ظهرها أو حين يرى ذلك واجباً عليه ، وذلك حين تزوج أرملة أخيه سعد .

ولا شك أن عنفوان ابن سعود وقوته هوالذى جعل ذلك ممكناً .

وعلى الرغم من كل التعقيدات فى حياته وزيجاته المختلفة فقد ظلت « جوهرة » هى الاثيرة لديه وهي الملكة .

لقد شعر ابن سعود بالحزن لوفاة « تركى » ولكن حزنه على جوهرة امتد طويلاً . وقد اثر موتها على حياته مدة طويلة . فقد ظل طوال الشتاء والأيام الأولى من خريف عام ١٩١٩ ـ وكانت ايامه جميلة ومشمسة – يشعر بالحزن ولم يكن هنالك شيء يواسيه . كان يغلق نفسه عن سائر الناس . وقد أغلق سائر الغرف التى كانت فيها جوهرة فى القصر وترك كل شيء من شئونها فى مكانه دون أن يمسه أحد ، وباستثناء أخته « نورا » لم يكن يسمح لأحد أن يدخل غرف جوهرة . ولقد ظل محتفظاً بخدمها ، وكان فى كل جمعة بعد الصلاة يذهب إلى مقابر الرياض كى يترحم عليها .





الفصل الثامن والأربعون

خرج ابن سعود من تحت مظلة الحزن ، وأجبر مرة أخرى إلى أن يعود إلى الحياة لمواجهة احداثها الجسام .

لقد بدأ عبد الله السير نحوه ، وحاصر عبد الله « المدينة المنورة » حيث كانت هنالك حامية تركية تحت قيادة فكرى باشا ما تزال تقاوم ، وحتى حين وقعت اتفاقية الهدنة مع تركيا ، فان فكرى باشا رفض التسليم بالامر الواقع . ولكن فى عام ١٩١٩ حين قطعت خطوط امداداته وحوصر ، وقل الطعام ولم يكن هنالك أمل فى النجدة، وأخذ رجاله يموتون من المرض ، قام بالتسليم . وبمجرد ان استسلم فكرى باشا وجه عبد الله جهوده إلى قبائل العتيبة بهدف استعادة الخرمة من جديد . ووفى ابن سعود بوعده الذى قطعه على نفسه امام مقاتليه قبل محاصرة حائل . لقد شعر ابن سعود بالسعادة لانه عاد إلى الميدان من جديد بعد ان انتهى من سنوات القلق و التفكير . وكان صبره فى الحقيقة قد نفذ وكان العلماء على حق حين قالوا إما أن الانجليز لا يقدرون او لا يرغبون فى اثناء الحسين وابنه عن عزمهما . لقد اقسم ابن سعود فى شقره أنه سوف يحمى الخرمه إذا تعرضت مرة أخرى للعدوان . ولم تكن أمامه اية مشكلة فى هذه المرة ، إذ تدافع الرجال إليه سراعاً وهم يهتفون مطالبين بنجدة إخوانهم المسلمين فى الخرمة ضد الانجليز ونفوذهم فى الحجاز .

وقد عرض الانجليز فى مصر أن يحكموا فى الامر ، وبدأ ابن سعود و الحسين كلاهما فى التحضير للمواجهة ، وبينما كان ابن سعود يعمل فى كثير من السرية والحكمة فقد كان الحسين يجاهر بنواياه ، وكان ابن سعود قد قرر ألا يكون هو البادىء بالعدوان وان يجعل الحسين يرتكب هذا الخطأ وحده .

وقد عقد الانجليز مؤتمراً فى القاهرة . وكان الحسين هو حليفهم النشط فى الحرب . ويمكن أن يكون كذلك فى السلم . ولم يقدر الانجليز ابن سعود حق قدره ، إذ كانوا لا يرون فيه اكثر من شيخ قبيلة ، ناجح تقتصر جهوده على الصحراء الداخلية . وكان الانجليز على ثقة بان جيش الحسين المدرب تدريباً انجليزياً وضباطه السوريين ومدافعه الاوتوماتيكية يمكنها ان تدحر ابن سعود وتعيده من حيث اتى إلى صحراء نجد الداخلية . وهكذا قرر الانجليز مساندة الحسين ، وأنذروا ابن سعود ان يتراجع ويترك أمر الخرمة ، وهددوه بانه إذا تجاوز حدوده فانهم سوف يستعملون

كل ما لديهم من قوة لمنعه من التقدم ، وهددوه أيضا بانهم ربما قللوا أو قطعوا الاعانة الذهبية التى كانوا يرسلونها إليه .

وقال ابن سعود فى الرد على كل ذلك انما النصر والنجاح من عند الله ، واننى لا استحق أن أنال منكم ما تهددونى به ، ولكن إذا قررتم قطع اعانتكم عنى ، فالله اكبر ، وأن شرفى لن يمس بسوء وسأكون حينذاك حراً فى التصرف بما يمليه علىّ شرفى وضميرى .





الفصل التاسع والأربعون

لقد سار عبد الله ومعه أربعة آلاف مقاتل نظامي مسلحين باحدث البنادق والمدافع ، بالاضافة إلى عشرة آلاف بدوى ، توجهوا جميعاً إلى مدينة الخرمة ، وتوقفوا فى قرية « تربه » وكان ابن سعود قد وصل فى ذلك الوقت إلى آبار « ساخا » إلى الشرق من المدينة . وكان الجيشان يتوجهان نحو « الخرمه » بينما كان الشيخ لؤى يعمل لحسابه الخاص . وكانت الخرمة فى ذلك الوقت ملأى بالاخوان والمتطوعين . وقد جاءت العيون تخبر « لؤياً » ان عبد الله قد نزل فى الواحة التى قبل « تربة » ، ولم يتخذ أية احتياطات ولم يقم نقاط مراقبة . وكان الوقت فى آخر شهر مايو والقمر فى ربعه الأخير ، والليل يتشح بالسواد الدامس . وقد هبت عاصفة ممطرة ، ونزل ضباب متدن زاد الرؤية سوءاً . وانتهز لؤى تلك الظروف المواتية وسار ليلاً وهاجم جيش عبد الله . وكانت المفاجأة مذهلة ، إذ كان الجنود فى حالة نوم عميق ، وقام الاخوان باكتساح المعسكر دون مقاومة ، واستطاعوا أن يكملوا معركتهم بالسيوف والمدى دون ان يأخذوا معهم أية أسرى ، واستطاع عبد الله أن يقفز فوق صهوة جواد ويغادر المعسكر ولم يتوقف إلا فى مدينة مكة المكرمة وتوجه بصورة مباشرة إلى والده وكان يرتعش من الاضطراب ، بعد أن ذاب البدو الذين جمعهم أو هجروه او التحقوا بجيش لؤى . ولم يتمكن من الهرب فى ذلك اليوم من أربعة آلاف جندى سوى مئة . وقد غنم لؤى كل البنادق والمدافع الرشاشة وببساطة لم يعد هنالك جيش للحسين .

وبمجرد أن سمعت الطائف الأخبار بدأ الناس يفكرون فى سلامتهم . وكانت مكة فى ذلك الوقت ملأى بالاجانب الذين بدأوا يتخذون طريقهم إلى جدة ومنها إلى خارج البلاد . ولا ينكر أحد أن الحسين كان رجلاً شجاعاً ولكنه القى باللائمة كلها على ابنه ، وطلب منه ان يغادر القصر بينما أرسل رسائل عاجلة إلى الانجليز طالباً المساعدة ، وانتهز ابن سعود الفرصة وسير جيشه نحو « تربه » وهو يشعر بالابتهاج . وقد عجب من رؤية الدمار الذى خلفته الحرب بين لؤى وعبد الله ، اذ رأى الخيام والمؤن والجثث كما رأى المتاجر وقد نهبت . وكان العجيب أن ابن سعود لم يحتج لاستخدام جيشه . فقد تحقق الهدف دون ان يطلق طلقة واحدة . وهكذا اصبح الطريق إلى الحجاز ممهداً ،بل واصبح الحجاز كله ينتظر ما سيفعله ابن سعود .



الفصل الخمسون

وبمجرد ان بدأ ابن سعود يستعد للسير نحو الحجاز ، أرسل إليه الانجليز مرة أخرى ينذرونه ويحذرونه ، ولكن عبد العزيز كان قد اكتسب خبرة واسعة ، واخذ يعد حساباته بدقة . فقد كان انتصاره فى تربه سهلاً . وكان المتحمسون يهتفون له كى يقودهم إلى الحجاز ، وكان عبد العزيز يريد ان يتبرك بالأراضي المقدسة التي لم تعد بينه وبينها أية عوائق ، وقد نصحه مستشاروه أن يتقدم بدون تردد ، وعلى الرغم من أنهم قد بدأوا يغمزونه فلم يكن ابن سعود من الذين يساقون بالكلام ، إذ هو من الرجال الذين يفكرون ملياً قبل التقدم . وكان ضبط النفس هو من الخصال المعروفة عن ابن سعود . وقد عرف عن ابن سعود أيضاً أنه يوازن الأمور ويقومها ويضعها فى إطارها الصحيح ، ويتخذ خطواته فى منتهى الهدوء ، ويكون ناقداً لنفسه فى الوقت الذى يتحرك فيه كل من حوله بالحماس ولا شك أن تلك الخصال التى تحلى بها ابن سعود هى التى انقذته فى كثير من الاحيان من الوقوع فى الزلل . كان ابن سعود على علم بقوة الانجليز العظيمة . فقد رأى كيف انهم بعد الحرب بسطوا نفوذهم على الشرقين الاقصى والادنى دون أن يكون هنالك من يصاولهم . وكان ابن سعود يعتقد أن الانجليز كانوا يعنون تحذيرهم له وانه لا يستطيع مقاومتهم بمفرده .

لقد ظل ابن سعود على مدى سنوات طويلة محاطاً برجال يهابونه ويعملون له ألف حساب . وكان متعوداً على الطاعة من رجاله . ولم يكن هنالك أحد يعترض رأيه ، وكان من الممكن له إذا أراد أن يعتمد على انتصاراته القديمة أن يتجاهل الأمر الواقع ويتقدم دون حذر . ولكن ابن سعود كان قائداً يعرف حدود قوته ، ولذلك فقد جمع رجاله وأخبرهم أن الوقت لم يحن بعد للسير نحو الحجاز ، وطلب من الشيوخ قيادة رجالهم والعودة بهم إلى بلادهم . ولم يكن هنالك من يخالف رأى ابن سعود لان قيادته كانت بلا منازع . وأقام ابن سعود حامية فى « الخرمه » ثم أدار ظهره إلى الطريق المفتوح إلى الحجاز وتوجه إلى الصحراء الداخلية ، وكان الدرس الذى تعلمه ابن سعود من تلك الحملة هو أنه على الرغم من رحيل الاتراك فان الانجليز قد ورثوا نفس سياساتهم القديمة .

الجزء التاسع



الفصل الحادى والخمسون

لقد سحب ابن سعود قواته ولكنه لم يتخل عن طموحاته ، فقد قرر انه حين يحين الوقت فسوف يتقدم من جديد نحو الحجاز ، حيث سيتمكن من حكم الجزيرة العربية باسرها . ولكنه فى تلك المرحلة عاد من جديد إلى الرياض واخذ ينتظر الفرصة المناسبة .

كان كل ما يدور حول ابن سعود فى ذلك الوقت هو نوع من التغير السريع ، وقد ساعدت الحرب العالمية على تحطيم الامبراطورية التركية . ويمكن القول انه على الرغم من تقادم الامبراطورية التركية وضعف إدارتها ، فقد استطاعت أن تكتسب لنفسها مكانة فى الشرق الاوسط والبلاد العربية ، ومهما يكن من أمر فقد ذهب الاتراك وتداعت وسائل الضبط السابقة ، وقد تمخض عن تداعى الامبراطورية ظهور كل من سوريا وفلسطين والحجاز واليمن وعسير والعراق ومصر وأواسط الجزيرة العربية ، فى مجرى سياسة المنطقة . وكان الانجليز يطمحون فى ان يجعلوا كل تلك البلاد تحت نفوذهم ؟ ذلك ان الانجليز كانوا فى قمة قوتهم العسكرية وكانوا يمتلكون قوات كبيرة . واستطاع الانجليز أن يقيموا لانفسهم حاميات فى القاهرة واسطنبول وبغداد ، وحلب ودمشق ، كما استطاعوا ان يمدوا نفوذهم من البحر الأحمر وإلى البحر الاسود ، ومن البلقان وحتى مصر والخليج العربى والهند .

وباختصار فقد كان العالم العربى كله تحت قبضتهم باستثناء اواسط الجزيرة العربية ونجد .

كان الانجليز يعرفون ان بسط النفوذ على تلك الأراضى الشاسعة إلى ما لا نهاية هو من المستحيلات لانه يحتاج قوات عظيمة ، وكان الجنود الانجليز يشعرون بالتعب من الحرب العالمية ، ولم تكن بهم رغبة فى العالم العربى ، وكانوا يطالبون حكومتهم بالعودة إلى بلادهم . وكان هنالك ضغط فى بريطانيا ذاتها بضرورة التخلى عن الالتزامات العالمية ، ولم يكن الشعب الانجليزى على استعداد كى ينفق امواله فى حملة جديدة على العالم العربى . وحتى تواجه هذا الموقف المعقد ، فقد قامت الحكومة البريطانية بوضع خطة واضحة المعالم . وكانت الخطة تقوم على انشاء اتحاد عربى يضم شعوباً تتحدث بلغة واحدة وتدين بعقيدة واحدة تحت حكم رجل واحد يكون تحت نفوذهم . ورأى الانجليز ان هذا المشروع سوف يكلفهم قليلاً من

المال . واقترح الانجليز ان يكون الحسين هو رأس هذه الدولة الجديدة وكانوا قد وعدوه بذلك خلال الحرب . وكانت خطتهم ان يعلنوا الحسين خليفة للاسلام لان ذلك سوف يمكن الانجليز من التحكم في مسلمي الهند .

لقد بدأ المشروع في ظاهره بسيطا ، ولكن تعقيداته ظهرت بعد قليل ، إذ لم يكن المشروع مبنياً على الحقائق ذلك انه لم تكن هنالك رغبة فى انشاء دولة عربية واحدة ، فقد كانت لكل دولة عربية ظروفها الخاصة ، ولم تكن هنالك دولة راغبة فى تحقيق أغراض الانجليز .

وكانت سوريا فى ذلك الوقت قد وعدت للفرنسيين ، بينما وعدت فلسطين لليهود . وكان الفرنسيون واليهود يصرون على أن تنفذ الوعود التى وعدوا بها . وكان الفرنسيون يقاومون الخطة الانجليزية وبالتالى فقد عملوا مع حلفائهم لمحاربة فكرة الاتحاد .

ومن ناحية أخرى فلم يكن الحسين فى وضع يمكنه من القيام بهذا الدور الكبير . فقد كان ولداه على وزيد غير راغبين فى مثل هذه الامور . ولقد اخفق عبد الله فى المسئوليات التى تولاها ، وكان فيصل شاباً لطيفاً ، ولكنه لم يكن مناسباً للقيادة ، وكان الحسين نفسه بسبب عناده واتوقراطيته غير مناسب للقيادة ، ذلك أن العرب بطبعهم يتطلبون من القائد كثيراً من الصفات التى هى جزء من عاداتهم وتقاليدهم . وعلى الرغم من هزيمة الاتراك وذهابهم ، فقد كان العرب ينظرون اليهم على انهم اخوانهم المسلمون . وكانوا يفضلونهم على أى نفوذ انجليزى . ولقد اخطأ الانجليز حين ظنوا أنه فى استطاعتهم أن ينشئوا قائداً بحسب شروطهم .. وكان الخبراء الذين ينصحون الحكومة الانجليزية يعقدون الأمر كثيراً ، إذ قد تجمع هؤلاء حول لورنس ، وظلوا يؤيدون موقف الحكومة الانجليزية من الحسين .

لقد ارسل لورنس فى عام ١٩١٦ من مقره فى مصر لإنقاذ ثورة الحسين ضد الاتراك . واصبح من ذلك التاريخ قوة مؤثرة وقد قاد جيوش الحسين إلى دمشق . وقد أعطاه سجله الحربى مكانة خاصة فى بريطانيا . واعتبر لورنس فى بريطانيا على أنه خبير فى الشئون العربية . وهكذا قاد الحكومة البريطانية من أنفها فى الطريق الخطأ . لقد طالب لورنس فى القاهرة وفى لندن وفى مؤتمر باريس أن تحافظ الحكومة البريطانية على وعودها للحسين وأن تتخلى عن وعودها للفرنسيين واليهود .. ونظراً لان الحسين كان مفعماً بفكرة الاتحاد العربى ، فهو لم يستطع ان يرى الجوانب غير العملية فى ذلك المشروع ، وذلك بسبب إلحاح لورنس على الفكرة . وكان لورنس يجهل واقع الجزيرة العربية ودور الحسين فيها وخاصة

المناطق الداخلية التى يسيطر عليها ابن سعود . وكان الذى يعلم الحقائق كاملة هو جون فيلبي مندوب الانجليز إلى الرياض . وكان لورنس يرفض الاستماع إلى فيلبى وكان غير قادر على تقويم حقيقة ابن سعود تقويماً سليماً . وكان الانجليز لا ينظرون إلى ابن سعود على أنه أكثر من شيخ قبيلة ظهر فجأة من قلب الصحراء ، ولم يفكروا فى أن يكون له اى دور فى اتحادهم المقترح : وكان الانجليز يرون اخذ ابن سعود لـ « تربه » مجرد حادثة عابرة ، ولكنهم مع ذلك فقد اعترفوا بان اغاراته تعرض خططهم للخطر ، ولذلك فقد استقر رأى الانجليز على محاصرة ابن سعود بالاتحاد المقترح حتى لا يتمكن من الخروج من الصحراء الداخلية .





الفصل الثانى والخمسون

لقد سمع ابن سعود وهو فى الرياض بشىء مما يجرى من تلك الاحداث ، وارسل بسرعة بعض رسله إلى الفرنسيين فى دمشق ليعرف المزيد مما يحاك ضده . وقد جاءته اخبار جعلته يشعر بعدم الارتياح . إذ بمجرد أن غادر الاتراك ، فقد جعل ابن الرشيد نفسه تحت حماية الحسين ، وجاءت أخبار أخرى أن الانجليز فى بغداد كانوا يعدون العدة للدخول فى اتفاق مع ابن الرشيد ضد ابن سعود وذلك هو نفس الاسلوب الذى اتبعه الاتراك من قبل . وهو ضرب فريق بالآخر ، وقام الانجليز بجعل فيصل ملكا على دمشق وعندئذ سأل ابن سعود الانجليز إذا كانوا مازالوا يعتبرون انفسهم من الاصدقاء . وفى نهاية عام ١٩٢٠ قام ابن سعود بمقابلة السير « بيرس كوكس » وكان يشغل منصب المندوب السامى فى بغداد . وقد تم الاجتماع فى العقير .

ولم يكن ذلك الاجتماع كافياً لان ابن سعود خرج منه وهو نصف مقتنع .

وكانت سياسة الانجليز تستهدف اغلاق ابن سعود وحصره فى داخل الصحراء وذلك باحاطته بحزام من المناوئين . ولم يمض وقت كبير حتى قام الفرنسيون بازاحة فيصل عن دمشق ، على الرغم من صيحات لورانس . ولكن الانجليز عوضوه بأن جعلوه ملكا على العراق ، بينما جعلوا عبد الله أميراً على الاردن . وهكذا أصبح نفوذ الانجليز يمتد من الكويت إلى بغداد وإلى الاردن ، ومن بلاد شمر إلى الحجاز وحتى حدود عسير ، ومع الأخذ في الاعتبار وجود المجمعات البريطانية على الساحل الغربى للبحر ، فلم يكن أمام ابن سعود خارج هذا الحزام سوى نجد والاحساء . وكان بامكانه أن يضرب ليكسر هذا السياج الذى أقيم حوله ، ولكن فى أى مكان يتجه كان يجد الانجليز امامه . ولو كان الانجليز يعملون ضد رجل غير ابن سعود لكان هذا الرجل قد انكسر واستسلم لهم . ولكن ابن سعود كان يعرف تماماً متى يكبح جماح غضبه ، ولم يحاول ان يظهر تبرمه ، وكان يعرف ان عليه ان يواجه الانجليز بدهاء يفوق دهاءهم ، ولذلك تظاهر بان الامور تسير بينه وبينهم على ما يرام وحافظ على كل الاصول معهم ، ولكنه ظل يترقب فى داخله الفرصة المناسبة لانهاء هذا الوضع .



الفصل الثالث والخمسون

وبينما كان ابن سعود ينتظر ، فقد جاءت الفرصة إليه فى صيف عام ١٩٢١ ، وقد كانت أضعف نقطة في السياج حول ابن سعود هى نقطة ابن الرشيد ، وقد أدرك ابن سعود هذه الحقيقة منذ زمن طويل ، ذلك أنه منذ أن تعامل مع العتيبة ، فقد بدأ يرسل الوعاظ إلى كل المناطق حيث أثاروا الحماس الدينى عند سائر الناس ، بحيث أصبحت العلاقة الدينية التى تربط بين الناس هى فى مقدمة الولاءات الأخرى ، وقد استطاع ابن سعود من خلال دعوته الدينية ان يكسب المزيد من القبائل إلى جانبه . ولم يكن لقبائل شمر فى ذلك الوقت قائد معروف ، ذلك ان ابن الرشيد قد قتل خلال فصل الربيع وأخذ الباقون فى حرب بعضهم بعضاً من أجل الحصول على القيادة ولم تحقق هذه الحرب اغراضها لأنها جعلت الجميع فى حالة من الضعف كبيرة .

وقام « نورى شعلان » شيخ الروالا بارسال رجاله من سوريا حيث أخذوا واحة الجوف إلى الشمال من حائل ولم يستطع الشمريون ان يتصدوا له . وبدا واضحاً لابن سعود ان كل الأمور كانت تسير إلى صالحه ، فقد حدث فى ذلك الوقت أن مات سالم شيخ الكويت ، وخلفه الشيخ أحمد الذى كان يريد علاقات طيبة مع ابن سعود . ولم يستطع الحسين أن يقدم مساعدات إلى شمر بسبب الصعوبات التى كان يواجهها فى الحجاز والتى أثرت كثيراً على وضعه هناك . وكان الانجليز يواجهون فى نفس الوقت صعوبات جمه ، إذ كانت هنالك ثورة ضدهم فى العراق ، كما أثيرت المشاكل ضدهم فى مصر والهند وتركيا . ولم يكن يستطيع فيصل ان يفعل شيئاً دون مساعدة الانجليز وكان هذا الوضع بأسره يعنى أن اللحظة التى كان ينتظرها ابن سعود قد اقتربت . وكان ابن سعود حين يتحرك يبدو مفاجئاً بحيث يظهر وكأنه يتحرك بطريقة عشوائيه ، كما هى عادة البدو . ولكن ابن سعود لم يكن كذلك ، اذ هو لا يتحرك فى العادة بدون تعقل واحكام وروية . وكان من عادة ابن سعود ان يخبىء أفكاره بالتظاهر

أنه لم يصل إلى قرار بعد ، ذلك فى الوقت الذى يكون قد درس وضعه واتخذ قراره بالفعل . وعلى الرغم من ذلك فقد كان الحذر هو طابع ابن سعود ، وكان حذره فى كثير من الأحيان هو الذى يضلل أعداءه ، وحتى أصدقاءه ويجعلهم يعتقدون أنه غير قادر على اتخاذ قراره . ولكن ابن سعود كان على عكس ذلك حين يقتنع ، فهو يتصرف بسرعة ويندفع إلى الأمام دون ان ينظر إلى الوراء لقد بدأ ابن سعود بالفعل

يفكر في موقعه بكل روية ، وكان الاخوان يريدون منه ان يتصرف بسرعة وكان مستشاروه يريدون منه التحرك أيضاً ولكن ابن سعود كان دائماً صوت نفسه يتدبر الأمر ويفكر فيه قبل ان يتخذ قراره الحاسم . لقد ارسل بعض قواته للإغارة على حائل وذلك لاختبار الموقف وقد عادوا وأخبروه أنهم لم يصادفوا سوى مقاومة ضعيفة . وبدأ الحسين وفيصل يشعران بنوايا ابن سعود ، فأخطرا الانجليز كي يتدخلوا في الأمر ، ولكن الانجليز رفضوا التدخل اذ اعتبروا النزاع في وسط الجزيرة هو بين حاكمين محليين ولا يهمهم في شيء وكان ذلك هو ما أراد ابن سعود معرفته ، اذ بمجرد أن علم ان الانجليز لن يتدخلوا اعلن تحركه وأمر جنوده ان يتقدموا في سرعة بالغة وقد أرسل في أول الأمر الدويش مع الفي مقاتل لايقاف شمر كما ارسل رسله لتجميع أهل القرى والقبائل من أجل الحرب وتدافعت القبائل نحو ابن سعود لأن تلك هي اللحظة التي كان ينتظرها الجميع . وبمجرد أن وصل المقاتلون وضح لهم ابن سعود اماكنهم في المسيرة وفي المعسكر ، وخلال المعركة تم اقتسام الجمال بين المقاتلين وفجأة جاءته الأخبار بأن شمر قد هاجمت الدويش واستطاع ان يوقفهم بصعوبة بالغة كما جاءته الأخبار ان « فهداً » حاكم بريدة قد قتل جماعة من رجاله في احدى معارك الفروسية .

ولم يكن أمام ابن سعود وقت فسيح وبعد صلاة الفجر جلس في العراء يراجع الأمور مع جنوده ويصدر أوامره الأخيرة وكان متضايقاً وقد وبخ الذين حوله في غضب ذلك أنه كان يريد أن يتحرك بسرعة إلا أن « ربكة » قد وقعت في المعسكر جعلت الخدم يبطئون في تحميل الأغراض مما زاد من مضايقته وبدأ يتساءل لماذا تأخرت بعض القبائل عن الحضور ولماذا أخذت كل ذلك الوقت في تحضير نفسها ؟ وما أن بدا الفجر واضحاً للعيان حتى كان الجميع بقرب جمالهم وعلى استعداد للمسير وفي تلك اللحظة اعطى ابن سعود اشارته وكان مطرف حامل العلم يسير في المقدمة وقد نشر علمه ذا اللونين الأخضر والأبيض ولما رأى ابن سعود ذلك ذهب عنه ضيقة ، وكان ابن سعود يجلس عالياً على جمله الأصفر يطل على الجميع وحوله الحراس وخلفه الف من أحسن مقاتلي نجد يصحبهم خدامهم وكان يسير إلى جانب ابن سعود ابنه الأكبر سعود وهو شاب في التاسعة عشرة من عمره . وكان الاخوان كتلة متراصة إلى يمين ابن سعود ، وإلى شماله الدواسر في خط متماسك وجاء خلف هؤلاء اهل المدن والقرى وشيوخ القبائل كل منهم ينشر العلم الخاص بقبيلته .

لقد اختار ابن سعود الوقت باحكام دقيق اذ كانت شمر بدون قائد وقد تاثروا بخطب الوعاظ بينما كانت من خلفهم قوات « نوري الشعلان » وتحرك ابن سعود عبر الأراضي الصلدة حول حائل من أجل أن يكتسح المدينة ويحاصرها ثم يأخذها

وأقام ابن سعود حاميته ثم أرسل ابنه إلى الأمام مع فصيلة عسكرية وتوجه هو نحو بقية المناطق حيث هرب بعض رجال القرى إلى العراق ولقوا الحماية عند فيصل وقدر ابن سعود أن هؤلاء الرجال سوف يكونوا ذوى فائدة له فى يوم من الأيام .

وأما الآخرون فقد ألقوا السلاح وأعلنوا ولاءهم لابن سعود وترك ابن سعود اولئك الذين يثق بهم تحت حكامهم المحليين وعين حكاماً لأولئك الذين لم يكن يثق بهم ، ولقد كان ابن سعود فى كل تصرفاته كريماً ، إذ عامل سائر الناس بالحسنى ، وأرسل الرجال من أسرة ابن الرشيد إلى الرياض حيث أكرمهم وخصص لهم المساكن والخدم ولكنه بالطبع قد أبقاهم تحت ناظره وتزوج امرأة ابن الرشيد المقتول وتبنى ابناءه وهكذا اقام ابن سعود بربط نفسه بعلاقة الدم مع عائلة ابن الرشيد .

ورجع ابن سعود إلى الرياض منتصراً وخرج اهلها مع والده عبد الرحمن للقائه ، وكانوا يشعرون بالرضى لأن عبد العزيز هو أول سعودى يحكم حائل منذ عدة سنين . وفى الحال عقد المجلس فى ديوان القصر الكبير برئاسة عبد الرحمن الذى أعلن أمام العلماء والمشايخ والأعيان تعيين عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود سلطانا على نجد وتوابعها وهكذا أصبح ابن سعود حاكما على أواسط الجزيرة العربية كلها .



الجزء العاشر



الفصل الرابع والخمسون

كانت تمتد شمال حائل سهول واسعة تصل إلى حدود فلسطين وسوريا ، كانت تسكنها قبائل شمر و « الروالا » حيث يرعون فيها ابلهم وماشيتهم ، في وسط تلك السهول وعلى بعد سبعمائة ميل إلى الشمال من الرياض كانت هناك واحة الجوف « وسكاكا » ويخرج منهما واد طويل هو وادى السرحان ، وهو ملىء بالقرى ويمتد إلى مسافة مئتين وخمسين ميلاً ويجرى فى داخل فلسطين ذاتها .

ولقد كان وعاظ ابن سعود يعملون فى تلك السهول حيث استطاعوا ان يحولوا الكثيرين إلى مناصرة ابن سعود . وكان الاخوان يشعرون بالنصر لهذا النجاح الكبير . ولم تكن قبائل « الروالا » قادرة على مقاومتهم اذ كانوا ايضاً بدون قائد . لقد كان قائدهم « نورى شعلان » فى صباه محارباً عنيداً ، ولكن حين بلغ به الكبر آثر الراحة والسكون وسكن فى دمشق على نفقة الفرنسيين . وعندما تقدم الاخوان لم يأت هو بصورة شخصية لقيادة القبيلة ، وانما ارسل حفيده الذى هرب طلباً للنجاة ، وترك الجيش تحت قيادة رجال ضعاف . ولما اصبح الامر على هذا النحو أعلن حاكم « سكاكا » ثم حاكم الجوف تأييدهما لابن سعود . وهكذا تبعتهما القرى واحدة اثر الأخرى . وتقدم الاخوان فى وادى السرحان حتى اقتربوا من فلسطين ذاتها . وعند هذه المرحلة بدأ الانجليز يشعرون بالخطر ، ذلك ان الجوف هى مفتاح الصحارى الشمالية ، وهى مركز للبدو وتقع فى طريق القوافل بين مصر وبغداد وبين سوريا والخليج العربى ولا شك أن كل من يسيطر على وادى السرحان يكون فى موقع استراتيجى ممتاز بالنسبة لسائر دول الشرق الاوسط . وكان واضحاً أن صحراء الجزيرة العربية الداخلية كلها كانت تغلى وتود الخروج إلى ما وراء الحدود ، كما كان شأنها فى أيام الاسلام الاولى قبل ثلاثة عشر قرنا . وكان الدويش قد أغار فى داخل العراق على قوات الهجانة التى دربها الانجليز بالقرب من الناصرية ، وقام الدواسر ببعض الهجمات شمالاً كما قاموا ببعض الهجمات فى الحجاز .

وبدأ الانجليز يقولون ، لقد اربك ابن سعود الاستراتيجية الانجليزية باسرها ، ذلك أنه كان بامكانه الخروج فى اى وقت لمهاجمة المناطق الغنية على الاطراف مما يهدد مشروع الاتحاد المقترح ، لذلك فقد ارسلوا اليه يطلبون منه ان يلتقى بهم فى مؤتمر عام ولكن ابن سعود تجاهل الانجليز فى هذه المرة ، اذ كان مستشاروه

يعيشون نشوة النصر تماما ، مثل الاخوان . وقد شجعوه ان يتقدم إلى البحر المتوسط ولمواجهة الانجليز فى بغداد ، لان الانجليز قد انتهوا فى نظرهم خاصة وقد بدأ الاتراك والافغان فى مهاجمتهم . وكانت الهند على وشك الانفجار فى ثورة . وكانت الامور فى داخل انجلترا نفسها غير مستقرة ولكن ابن سعود لم يستمع إلى تلك النصائح فقد كانت نظريته ابعد من ذلك ، كان يعلم أن الانجليز لم ينتهوا ومازالوا يحتفظون بقوتهم . وعاد ابن سعود مرة اخرى يرسل المندوبين للتفاوض ، وكان يحسب لكل خطوة حسابها فى حذر .

وفى الوقت الذى كان ابن سعود يتفاوض فيه ، خرج حوالى ١٥٠٠ من الاخوان ومن قبيلة حرب من مدينة « شقره » دون علمه ، واتجهوا شمالاً فى شهر اغسطس ، وتحت شمس الصيف المحرقة وليس معهم طعام سوى اللبن الرائب ، واغاروا على قرية « تريب » فى الاردن وهى لبنى شاكر ، واخذوا ما استطاعوا من الضأن والجمال وغيرها . وكانت تلك حادثة فريدة فى نوعها لان العرف فى السابق كان يقول ان القتال يكون فقط بين المحاربين ولكن الاخوان كانوا لا يحاربون وفق الاعراف القبلية . واسفر الموقف عن تحرك الانجليز الذين ارسلوا عربات مدرعة وطائرات من مدينة القدس واستطاعوا ان يلحقوا اضراراً بالغة بجيش الاخوان الذي لم تكن له مثل معدات الانجليز وهكذا لم يعد من أصل الذين تحركوا من شقرة سوى ثمانية جنود فقط .





الفصل الخامس والخمسون

ومرة أخرى يمكن أن نبرر حذر ابن سعود لأنه مبني على فهم عميق للحقائق ، وذلك ما لم يره كثير من مستشاريه . لقد سرت أخبار هزيمة المهاجمين لـ « تريب » فى الصحراء . وتلك هى اول مرة يواجه فيها مقاتلو الصحراء الاسلحة وطرائق الحرب الحديثة . وعلموا منها خطورة تلك الاسلحة ، كما عرفوا مدى قوة الانجليز . وكان ابن سعود اكثر الناس علماً بذلك ، ولكن ماذا يفعل ؟ فقد تحرك الذين هاجموا تريب دون اذنه ، مما جعلهم يعرضون نجاحاته السابقة ومكانته للخطر . ونظراً لذلك فقد قام ابن سعود بتأديب اولئك الذين كانوا وراء تلك الحملة بما فيهم الثمانية الذين عادوا من القتال .

وفى أواخر خريف عام ١٩٢٢ قام ابن سعود بدعوة السير « بيرسى كوكس » لمقابلته فى العقير ، وكان المستر كوكس صديقاً قديماً لابن سعود وكانا يحترمان بعضهما بعضا احتراماً كبيراً وكلاهما كانا طويلاً ويتخذ قراره بروية قبل ان يتجه للعمل ، بالاضافة إلى انهما كان يشتركان فى الذكاء وحب العمل . وكان كوكس يتميز بقدرة عجيبة فى الاستماع . ومن الناحية الأخرى فان ابن سعود كان يحب أن يتكلم وبصورة بلاغية ولكنه مع ذلك كان حذراً ولا يعطى فى كلامه لمفاوضه إلا القليل مما يريد . وكان ابن سعود حين يتحدث إلى أحد يحاول أن يشعره وكأنه الشخص الوحيد الذى يهتم به فى العالم . وكانت بسمته آسرة وتكسب المتحدث اليه ، بحيث يخرج منه مسروراً ، ولكنه بعد فترة طويلة يدرك انه قد خرج خالى اليدين وحتى فى تلك الساعة ، فلن يشعر بأسف لكونه تحدث إلى ابن سعود .

وكانت المشكلة التى دار حولها النقاش بين الاثنين هى الأولى من نوعها فى الجزيرة العربية ، إذ كان الموضوع الأساسي هو وضع الحدود الواضحة بين نجد وما يجاورها من بلاد . ولم تكن الحدود ضرورية تحت سلطة الامبراطورية التركية ، إذ كان الرجل يسافر ألفى ميل من حلب وإلى عدن دون أن تواجهه أية حدود . وكانت القبائل تسافر فى كل الاتجاهات التى يكون فيها ماء وكلأ لبهائمهم . ولم يكن التحرك يؤثر على ولاء القبائل لانها كانت تنظر إلى نفسها كعصبة وليس كوحدة إقليمية . ولذلك لم تكن هذه القبائل تحفل بمسائل الحدود والمسائل الإدارية المتعلقة بها مثل الجوازات والتأشيرات ونحوها . وبرز هنا رأيان متعارضان ، رأى

ينادى بأن تكون الحدود على النحو المعروف فى أوروبا ، ورأى ينطلق من مفهومات بدوية لا تحفل بمثل هذه الأمور الشكلية . وبينما كان كوكس يرى ضرورة ترسيم الحدود كان ابن سعود لا يرى أهمية لذلك لأن القبائل لن تعترف بمثل تلك الحدود . ولم يكن ابن سعود فى الواقع غافلاً عن أهداف الانجليز من وراء مشروعهم وكان قد قال لاحد اصدقائه وهو فى ميناء العقير ينتظر المستر كوكس .

« أنت ترى ما فعله الانجليز معي ، إنهم ينسجون وينسجون واشار باصبعه فى حركة توضح ذلك - شباكهم حولى ، وقد أحاطوني بالاعداء ، وهم يريدون إنشاء دويلات لكى تقف ضدى » وجميع أنصار الانجليز فى المنطقة ينظرون إلي على انني بدوي لا هدف لى سوى الاغارة .. لقد قال الجميع ذلك وقالوا أكثر منه واقنعوا الانجليز بما قالوه ، ولا هدف لهم الا ان يحصرونى فى داخل الجزيرة » .

ولم يجد ابن سعود فيما قاله كوكس شيئاً يثير اهتمامه ، اذ رأى أن موافقته على قيام دويلات حوله يكون على رأسها اعداؤه كان يعنى انه قبل طائعاً ان يقفل فى صحراء الجزيرة الداخلية . لذلك فقد صمم ألا يمكن الانجليز من تنفيذ تلك الخطة .

وبعد عدة أيام من الاجتماع توصل الاثنان إلى بعض الاتفاق ، إذ اعترف الانجليز بابن سعود حاكما على حائل وشمر والجوف . وتعهدوا بأن يقدموا له معونة ذهبية ، وفى المقابل طلب الانجليز إليه أن يعترف بالحدود بين نجد والعراق مع وجود منطقة بينهما ، وأن تكتسب القبائل حق المرعى على الجانبين ، على ألا تبنى القلاع الحربية بالقرب من آبار الماء .





الفصل السادس والخمسون

عاد ابن سعود من المؤتمر وهو غير راض لأنه لم يحرز فيه شيئا ، وشعر بأنه ربما دعم موقف الحصار حوله ، كان يشعر كأن قيداً قد احاط برأسه وهو يريده أن ينكسر ولكنه لا يمتلك الوسائل . قال ابن سعود لاحد اصدقائه « انظر حين يريد الانجليز شيئاً فانهم يحصلون عليه ولكن علينا نحن أن نقاتل من أجل أن نحصل على ما نريد وهم يتوقعون منا أن نبصم لهم ، ولكني لن أمكنهم من ذلك ، وسوف اضرب حين استطيع ، ويشهد الله انى لا أخون أحداً ولكنى ادافع عن نفسي . ويعلم الله أن كل شيء يؤخذ منى بالقوة سوف استرده حين أمتلك القوة » .

وكانت غرائز ابن سعود كلها موجهة نحو الرفض ، كان لا يريد أن يقيده أحد ، ولكنه كان يعلم أن ليس فى مصلحته أن يعادى قوة عظمى بصورة ظاهرة .

وكانت القبائل التى تواليه مثل المطير بقيادة الدويش غير مقتنعة ايضاً ، ليس لان الانجليز يريدون حصارهم ، بل لانهم ممنوعون من أن يضربوا فى أى اتجاه ، وكان الانجليز فى العراق قد دعموا القبائل التى التجأت اليهم ، وسمحوا لها بالاغارة على نجد . وكان عبد الله من ناحية اخرى قد أرسل قوات إلى وادى السرحان وسيطر على بعض القرى ، وكانت قبائل عتيبة وحرب تتعرض لتهديدات مستمرة وكان رجال الأخوان يريدون السير إلى الحجاز ، وعاودوا هجماتهم فى وادى السرحان والعراق ، وكانت القبائل فى كل مكان تريد أن تتحرك ما وراء الحدود . وكان قلب ابن سعود معها وليس ضدها .

ومرة أخرى دعا الانجليز ابن سعود لمؤتمر جديد لم يتوصلوا معه فيه إلى شيء ، بل زادوا من غضبه لان المستر كوكس لم يكن حاضراً ولم يعرف الانجليز الذين حضروا كيف يتعاملون مع ابن سعود . لقد ظل هؤلاء ينظرون إلى ابن سعود على انه امير الرياض ولم يعرفوا انه اصبح سلطان نجد وسيد الصحراء الداخلية . لقد اخطأ الانجليز حين مسوا كبرياء ابن سعود ، وهكذا صعب عليهم أن يتفاهموا معه لأن العربى إذا مس أحد كبرياءه يصبح عنيداً وغير قابل للتفاهم .

وقال ابن سعود فى ثورة غضب « نعم يمكن لى أن اصادق الانجليز ، ولكنى لن أذهب معهم أبعد من المدى الذى يسمح به دينى وشرفى » وكان عبد العزيز قد

وصل معهم إلى هذا المدى ، ولكنه على الرغم من ذلك لم يحطم رأسه على صخرة المستحيل ورأى أن الصبر سوف يعطيه فرصة أفضل .





الفصل السابع والخمسون

لم يكد المؤتمر ينتهي حتى جاءت الاخبار تقول بأن قوات من الحجاز قد بدأت تتقدم نحو الخرمه وتربه ، وقد ارسلت قوات اخرى من الشمال ، وعلى وجه التحديد من عبد الله وفيصل لمساعدة قوات والدهما . وكان ذلك كثيراً على صبر ابن سعود . فقد تنادت القبائل والاخوان وحتى رجال المدن فى نجد يطلبون من ابن سعود أن يتقدم من أجل مواجهة الموقف فى خرمة . وسواء كان القرار حكيماً ام غير حكيم ، فقد قرر ابن سعود انه لم يعد هنالك مجال للصبر ، فقد قرر بالفعل ان يتحرك . وفجأة مرض ابن سعود وعانى من التهاب فى الوجه . ولم يمرض ابن سعود من قبل سوى مرة واحدة حين اصيب بالروماتزم وهو طفل . وكما هو معروف فقد كان ابن سعود يسوق نفسه بالشدة ولا يعطى نفسه مجالاً للراحة ، وكان يهمل طعامه ونومه مما جعله يعاني بصورة مستمرة من سوء الهضم . وبدأ ذلك يؤثر على صحته . لقد ارتفعت حرارة ابن سعود إلى درجة كبيرة ولكن ابن سعود رفض أن يستسلم ، غير أن المرض اخذ منه وفقد كثيراً من وزنه حتى اصبح كالهيكل العظمى . وقاوم ابن سعود المرض ورفض أن يستسلم له ، وكان يريد ان يعرف كل شيء حتى لا تفلت الامور من يده ،وأخيراً عندما بدأ المرض يفارقه وبدأ فى استرداد عافيته شرع ابن سعود مباشرة ، وقبل ان يستكمل علاجه بدأ فى العمل بقوة كما كانت عادته وبعد اربعة اشهر أخرى بدأت عينه اليسرى تؤلمه . وقد سمح للأطباء بمعالجته بالطب الشعبي فساءت حال عينه حتى لم يعد يرى بها .. واستدعى احد الاطباء السوريين ولم تفلح جهوده ، واخيراً استدعى طبيباً من مصر واجرى له عملية في عينه اليسرى استطاع بعدها ان يسترد شيئاً من بصره .





الفصل الثامن والخمسون

كان المرض هو الذي منع ابن سعود من اتخاذ قرار متسرع ، وخلال فترة مرضه سارت الأمور لصالحه ، اذ استطاع أهل الخرمه وتربة ان يصدوا جيش الحسين ويتابعوه خارج القرى المجاورة .

ولقد بدأ الحسين يفقد كثيراً من شعبيته بسبب عناده وعدم رغبته في سماع الشكاوى والاحتجاجات .. ولم يعد يتعامل بصورة مباشرة مع الناس كما كان دائماً وقد أغضب ذلك الكثيرين .. ذلك أن من عادة العرب ان يتقدموا للحاكم بشكاواهم بصورة مباشرة .. وكان كثير من الذين يعملون في ادارته لاهم لهم غير مصالحهم الشخصية . ولم يكن الحسين يعاقبهم على ذلك . وقد انقص رواتب الموظفين على أمل ان يفيدوا من نواحي اخرى . ولم يكن على وجه العموم يستمع لأي نقد أو نصح . وإذا اجترأ شخص على ابداء وجهة نظر معاكسة فان مصيره هو الارسال إلى الدهليز تحت القصر .

وقد تأثر الحج كثيراً بهذا الوضع ، إذ كان البدو يبيعون أغنامهم للإدارة بأسعار زهيدة بينما تبيعها الادارة بأسعار عالية ، وقد احتكرت الإدارة سائر عمليات النقل من الموانيء إلى مكة والمدينة وقد ارتفعت أسعار المياه بحيث كان الجاويون يجدون صعوبة في تأدية فريضة الحج ، وكان المطوفون لا يقومون بواجباتهم على النحو الامثل بسبب الضرائب المفروضة عليهم ، وقد انعكس ذلك على وضع الحجاج بصورة عامة .. ولم تكن الأموال تصرف في الحجاز بل في القاهرة وفي غيرها من المدن . ولقد كان الوضع الصحي والطبي متدنياً إلى درجة كبيرة ، بحيث كانت اعداد كبيرة من الحجاج تموت من الاهمال ، وكذلك كان الأمن في اسوأ حالاته ، اذ كان اللصوص ينهبون الحجاج . وكان بعض الحجاج يقهرون على الالتحاق بالجيش .

وكانت المشاجرات في مدينة مكة من الامور العادية ولم تكن السلطة قادرة على حفظ النظام ، وكان من نتيجة ذلك أن اعداداً قليلة بدأت تفد إلى الحج ، وبالتالي فقد انخفض الدخل إلى درجة كبيرة ، وأوقف الانجليز كذلك خلال الحرب كل المساعدات التي كانوا يقدمونها للحسين ، وقد لجأ الحسين لتعويض ذلك بفرض مزيد من الضرائب . وقد قاومت قبيلتا حرب والعتيبة تلك الضرائب ، كما رفض الناس

الضريبة على دفن الموتى واضطر الحاكم لسحبها . وكان الناس في مجملهم في الحجاز غير راضين ؛ حتى الخدم والجنود الذين بدأوا يتحسرون على أيام الأتراك الماضية ، وذلك عندما كان الحجاج يأتون بالآلاف وينفقون كثيراً من المال ولم تكن هنالك ضرائب باهظة . وكان الوضع الخارجي شبيهاً بالوضع الداخلي ، فقد احتجت الحكومة الهولندية على الطريقة التي يعامل بها الحجاج التابعون لمستعمراتهم ، كما حدث اختلاف بين الحسين والحكومة المصرية في نفس الموضوع ، وكذلك الشأن مع الفرنسيين في سوريا ، ومع الأتراك ومسلمي الهند ولم يكن الحاكم مهتماً لذلك ، إذ كان تفكيره بأسره مركزاً على فكرة أنه ملك البلاد العربية جميعها ، وكان بسبب انغلاقه في قصره وعدم توضيح الحقيقة له من معاونيه يعتقد ان العرب جميعاً مقتنعون بأنه مليكهم وكان اختلافه مع الانجليز وهم مؤيدوه الوحيدون من الأخطاء الكبرى في سياسته .. وكان الحسين يطالب الانجليز بتنفيذ وعودهم له ، وقد أرسل الانجليز « لورنس » لكي يتفاهم معه ، واشترط الانجليز عليه ان يوقع على اتفاقية « فرساي » على ان يقوموا هم بحمايته . ولم يكن لورنس يدرك أهمية ابن سعود في هذه المنطقة ، وأما الحسين فلم يكن يريد مزيداً من الوعود من الانجليز ، ونظر إلى كلمة الحماية التي أدخلها الانجليز إلى قاموسهم بازدراء شديد وقال سوف يطلب الانجليز في الغد القريب ان يكون الحجاز أحد محمياتهم .

وفي عام ١٩٢٣ حاول الإنجليز أن يصلوا إلى تفاهم مع الحسين ولكنه رفض ذلك ، وقد كان الإنجليز يشعرون بالسعادة أنهم سيتخلون عنه ، لأنه لم يكن يستخدم المنطق في التعامل معهم . وكما هو معلوم فإن الإنجليز أنفسهم كانوا في ظروف صعبة ، ذلك أن فترة ما بعد الحرب كانت فترة كساد واضح في انجلترا ولم يكن الإنجليز لديهم المال ، ولذلك فقد قللوا كثيراً من التزاماتهم الدولية . وكان الإنجليز يشعرون أن لديهم كثيراً من المشاكل مع الفرنسيين ولا يريدون مزيداً من المشاكل مع الحسين ، فقد كانت ايرلندا في حالة حرب ، وهي كالسرطان الذي في القلب تشل حركة انجلترا . وكانت هنالك مشاكل في الهند وافغانستان ، وكانت هنالك مشاكل في مصر والسودان ، كما كانت هنالك مشاكل قام بها الأفراد في العراق ، وكان الأتراك يهددون بمهاجمة الحدود الشرقية والسيطرة على الموصل .

وكان الإنجليز في الداخل يعتقدون أن الاستراتيجية التي أرسلت الإنجليز للمحاربة في البلاد العربية كانت في أساسها خاطئة . إذ كانت الحملات العراقية وفلسطين ضياعاً للموارد المالية . ولم تكن لها أية أهمية في كسب الحرب ، ومهما يكن من أمر فقد استقر الأمر على الخروج من تلك البلاد وتركها تواجه مصيرها بنفسها .

وفي عام ١٩٢٣ عندما كان ابن سعود يفكر في التحرك نحو الحجاز ؛ ذهب فيصل لزيارة أخيه عبد الله ، وكانا يحاولان التأثير على والدهما لكي يعيد تفاهمه مع الإنجليز ، ولكن والدهما لم يستمع إليهما ، وقد اتصلا بالإنجليز لكي يتدخلوا عند ابن سعود ، ولكنهم لم يفعلوا ، وقالوا إن على ابن سعود والحسين أن يعالجا أمورهما بنفسيهما ولن نتدخل .

وبمجرد أن شفي ابن سعود من مرضه بدأ يستعد للتحرك فأرسل وعاظه إلى قبيلتي حرب والعتيبة كما أرسلهم إلى الحجاز لكي يقوموا بتحريك القبائل ، وكانت علاقات ابن سعود حسنة مع الفرنسيين والمصريين والهنود المسلمين . وعاقب ابن سعود بشدة أي رجل حاول الاغارة على العراق أو الأردن لأنه لم يكن يريد أن يتخذ الإنجليز ذلك ذريعة للوقوف ضده .

وزار الحسين ابنه عبد الله في عام ١٩٢٤ ، وأظهر تبرمه من وجود انجليزي على رأس الإدارة . وفجأة وفي الثالث من شهر مارس ألغى الأتراك الخلافة وخلعوا الخليفة من اسطنبول وبعد ثلاثة ايام أعلن الحسين نفسه خليفة على سائر المسلمين وأذاع الخبر على العالم كله ، ولقي الإعلان معارضة في معظم البلاد الإسلامية ، وكانت تلك هي اللحظة المواتية التي كان ينتظرها ابن سعود وكان يعلم انها ستأتي .





الفصل التاسع والخمسون

كان ابن سعود على الدوام رجلاً طموحاً ، ومنذ تلك الأيام التي كان فيها معدماً ولاجئاً في الكويت ، فقد كان يتفاخر أمام أقرانه بما سيكون عليه حاله ، وعلى الرغم من أن سنوات كفاحه شهدت كثيراً من الانتصارات والهزائم ، فإن ابن سعود لم يفقد الثقة في نفسه أو في شعب الجزيرة العربية مطلقاً . فقد كان مؤمناً بأنه سيحكم ذات يوم الجزيرة العربية بأسرها كما فعل أجداده من قبل . وكان يرى أن كل من وقع تحت حكم أجداده سيكون من محكوميه . ولم ينس ابن سعود في أية مرحلة من مراحل عمله أنه مهيأ لأن يعلي كلمة الإسلام ، وكان انشاؤه لجماعة الإخوان لهذا الغرض . وكانت كل خطوة إلى الأمام تقربه من النجاح ، وكان يرى أنه يقود العرب من الدرك الذي تردوا إليه إلي مجتمع القوة الموحد . على أمل أن يصبح العرب من جديد قوة عظمى تحت راية الإسلام . ولقد بدأ كثير من الناس في العالم الإسلامي ينظرون إلى ابن سعود على أنه القائد المنتظر والذي سينهض به العالم الإسلامي في وجه الغرب المسيحى .

ولقد حاول أعداؤه أن ينالوا منه ، بأن وجهوا حملتهم ضد الدين وبدأوا يثيرون قضايا مثل التعصب وغيرها ، ولكن ابن سعود كان مقتنعاً بدعوته ، ونما عنده شعور عظيم بالدين ، وكان إحساسه بوجود الله سبحانه وتعالى إحساساً قوياً . وقد تأسس كل ذلك على التعاليم التي استقاها من والده في مطلع صباه ، اذ كان تأثير والده عليه عظيماً . وكان ابن سعود يرى أن الله يراقب أفعاله في كل وقت ، في السر والعلن ، سواء كان ذلك خلال المعارك أو حين يكون جالساً في قصره ، وسواء كان في الصحراء جالساً في خيمته أو سائراً بجيشه . كان يرى الله سبحانه وتعالى هو الذى يوجه خطواته ، وكان ابن سعود يصلي قبل أن يتخذ قراراته الحاسمة . ولم تكن أمور الدنيا تتعارض مع معتقداته الدينية ، فقد كان ابن سعود يقول : أنه مسلم أولاً ، وعربى ثانياً ، وأنه دائماً في خدمة الله ، وأن ما يقوم به من عمل إنما هو في سبيل الله .

وبصرف النظر عما يقوله أعداؤه ، فلن يكن ابن سعود متناقضاً مع نفسه ، إذ كان في داخل نفسه مؤمنا ولا يقل حماساً عن أنصاره . وكان أنصاره يؤمنون بإخلاصه لمبادئه وعمله من أجل نشرها سواء كان ذلك بالكلمة الحسنة أو بالسيف

ولكن ابن سعود كان على علم واسع بصعوبات الواقع . وقد قال ذات مرة إلى فيلبى وهو يشير إلى خلافه مع الحسين « إذا قلت كلمتي فستجد الناس كلهم يلتفون حولي ، وليس منهم الا من يعتقد أن الموت أفضل له من الحياة ، وليس منهم إلا من يعتقد أن التردد أو التراجع هو السبيل إلى نار جهنم » .

لقد كان ابن سعود يشارك كثيراً من انصاره معتقدهم ، ولكنه يختلف عنهم في أنه لا يندفع بغير روية ، وإنما كان ينظر إلى الواقع بعين العقل . وذات مرة طلب منه الدويش أن يعلن الجهاد ضد الإنجليز ، ولكن ابن سعود رفض ذلك واستشهد بأن الرسول ﷺ ما كان يبيح الجهاد إلا إذا توافرت له فرص النجاح . وكان ابن سعود يرى أن الانتصار ضد الإنجليز هو أمر مستحيل في تلك الظروف : وكان الدويش نفسه قد رأى مصير اولئك الذين أغاروا على « تريب » في الأردن . وعلى الرغم من الضغط على ابن سعود ألا يتصل بالأجانب ، فقد كانت رؤيته أن ذلك مستحيل في عالم لا يمكن أن ينعزل فيه الإنسان بصورة كاملة ، وليس في الدين ما يمنع ذلك .

كان ابن سعود في مسائل الدين يعتمد على آراء العلماء ، ولكن في المسائل التي تتعلق بالسياسة فقد كان يأخذ النصائح التي تتوافق مع الكتاب والسنة ، ولا يسمح بالآراء التي يكون فيها خطر على الدولة ، لأن الدولة في نظره أمانة أوكل الله له ادارتها ، ولم يكن ابن سعود من الذين يعيشون بالأوهام ، ولم يداخله الغرور أبداً . وقد جاء له في بعض الأوقات مسلمون وطلبوا اليه أن يعلن نفسه خليفة ولا سيما بعد أن نحى الأتراك سلطانهم ، وطلبوا إليه أن يقودهم ضد المسيحيين ، وطالبوه بأن يعلن نفسه مهدياً ، ولكن ابن سعود لم يوافق على ذلك ، وقال لهم ان وقت إعلان الخلافة لم يحن بعد ، ورفع صوته قائلا : إني مجرد واعظ متواضع أعمل في سبيل الله ، ومهمتي هي نشر الدين بالموعظة الحسنة ، فإن لم استطع فبالسيف .

وقد دعاه حماسه الديني كي يتوجه إلى الحجاز لكي يضع أمور الدين في نصابها ، ويبطل الممارسات الخاطئة . وكان ابن سعود يريد بذلك أن يؤمن سلامة الحجيج ومصالحهم ، وكانت رؤيته تنطلق من أن يرى اليوم الذى يتجه فيه سائر المسلمين إلى مكة المكرمة تجمعهم أخوة الدين ، وكان يأمل أن تكون مكة المكرمة هي عاصمة العالم يتجه إليها المسلمون من أجل توحيد كلمتهم في عبادة الواحد الأحد .



الفصل الستون

لقد جاءت الآن الفرصة الأخيرة لابن سعود ، وهى الفرصة التى خطط لها وأخذ ينتظر ، وهى خطة السير إلى الأراضى المقدسة ، ولكن حتى هذه اللحظة فقد كانت خطواته محسوبة ، إذ لم يكن يريد أن يسير إلى الحجاز كما سار إلى حائل والإحساء وشمر من قبل فقد كانت طبيعة الارض مختلفة وهى فى عمومها صحراء قاحلة وشمسها حارقة ومياهها قليلة ، وهى أيضا قليلة المدن والقرى . وعلى الرغم من موانيها على البحر الاحمر فقد كانت تجارتها قليلة ولكنها مع ذلك فهى المركز الروحى لملايين المسلمين فى كل أنحاء العالم ، لكونها تحتضن الأراضي المقدسة التى ولد النبى صلى الله عليه وسلم فيها ، وكل مسلم يتمنى أن يؤدى فيها فريضة الحج حتى لو مرة واحدة قبل وفاته ..

وعلى وجه العموم ، فقد كان ابن سعود يدرك أنه لكى يضم الحجاز فلابد أن يكسب عطف الجميع وتأييدهم ، لأنه بدون ذلك سوف يجد نفسه وقد تحمل مسئولية كبيرة . ولذلك فقد بدأ يحضر نفسه لتلك المسئولية الكبيرة ، وقد دعا إلى مؤتمر فى الرياض ليكسب تاييد الناس ومبايعتهم له ، وقد عقد المؤتمر فى منزل والده عبد الرحمن ، وحضرته أعداد كبيرة من العلماء والمشائخ ورؤساء القبائل ، وكان ابن سعود حريصاً فى المداولات ألا يتهمه أي أحد بأنه يدفع الأمور فى غير اتجاهها الصحيح ، وكان عبد الرحمن قد بدت عليه علامات الكبر ولكن نظراته الثاقبة كانت هى الاساس الذى نظر إليه الجميع . وقد جلس العلماء إلى جانب عبد الرحمن بينما جلس ابن سعود فى الجانب الآخر دون وضع متميز فى حضرة أبيه . وتحدث العلماء عن الوضع المتردى فى الحجاز ، وطالبوا ابن سعود كى يتحرك من أجل أن يفتح أمامهم طريق الحجاز . ولم يشارك ابن سعود فى النقاش الدائر ولكن حين طلب إليه المؤتمر أن يبدأ بالتحرك على الفور ، تدخل وطلب التريث فى الخطوات ، وكانت وجهة نظر ابن سعود ان يحصل على موافقة إخوانه المسلمين قبل التقدم ، وذلك حتى لاتجد الدول الأجنبية ذريعة للتدخل ضده . ولم يقبل الكثيرون وجهة النظر هذه ، لأنهم كانوا يعتقدون أن ضميرهم هو المحك فى هذا الامر الخطير ، ولكن براعة ابن سعود هى التى جعلتهم يلتزمون الهدوء . وكل ما طلبه ابن سعود فى ذلك المؤتمر هو توجيه رسائل إلى كل الدول الاسلامية ، يشرح لهم فيها أحوال الأراضى المقدسة

وما وصلت إليه من سوء الأحوال . ويطلب إليهم أن يسير أهل نجد بالنيابة عنهم لوضع الأمور فى نصابها ، وذلك مباشرة بعد الحج . وقد وقع الرسالة الأمير فيصل ابن عبد العزيز ، ولم يضع ابن سعود اسمه عليها ..

وكان أسلوب ابن سعود . أنه حتى حين يكون متقدماً فإنه يضع لنفسه دائماً فرصة التراجع ، وذلك حتى يصل إلى هدفه بطريق آخر . لذلك فقد قرر أن يكون المؤتمر مسؤولاً عن توجيه الرسالة وليس هو . فإذا كان هنالك خطأ فى الأمر ، فيمكنه هو أن يتدخل ليصلح الخطأ .

ولم تكن الرسالة ذات تأثير كبير بسبب الخلافات فى العالم الاسلامي وعلى الرغم من ذلك فقد جاءت بعض الاجابات غير محددة ، ولم يختلف معظم زعماء العالم الإسلامي فى ان ابن سعود هو بطلهم فى تلك المهمة الصعبة ..





الفصل الحادى والستون

لقد بدأ الجميع يستعدون للعمل ، واشترك فى ذلك أهل المدن ، ورجال القبائل ، وغيرهم وكانوا كلهم يعارضون الحسين ، وعلى الرغم من دعوة الجميع إلى ابن سعود كى يتقدم ، فقد كان ابن سعود يحسب خطواته بكل حذر ، وكان مستشاروه بقيادة حافظ وهبة ، وهو مصرى التحق بخدمة ابن سعود لسنوات طويلة وكانت لديه معرفة واسعة بكثير من البلاد ، وكان ابن سعود يثق فى مشورته ـ قد قالوا له ـ إن النصر سيكون حليفه . وعلى الرغم من ذلك فقد تصرف ابن سعود فى حذر ..

وأخيراً فقد وضع ابن سعود خطته الكاملة ، وقرر أن يهجم من خلال الخرمة وتربة ، وحتى يختبر استعداد عبد الله وفيصل فى ارسال قوات لمساعدة والدهما ، فقد أرسل فصيلة من الإخوان إلى حدود الرياض وأخرى عبر الخط الحديدي بين المدينة ودمشق . وثالثة من الجوف ووادى السرحان نحو الأردن ـ وأرسل من ناحية أخرى إلى الشيخ بجاد شيخ العتيبة للإغارة على حدود الحجاز . كما طلب من الشيخ لؤى فى الخرمة أن يختبر الطريق إلى مكة المكرمة ، وكانت مدينة الطائف هى المدينة الرئيسية بعد الخرمة ، وهى مدينة لطيفة ترقد بين مجموعة من التلال والبساتين والأزهار والأشجار ، وهواؤها لطيف . وهى محمية بسور كبير وقلعة وحامية من الجنود ، وكان معظم أعيان مكة المكرمة قد بنوا لأنفسهم قصوراً فى الطائف ، وكان الحسين وعائلته يأتيان إلى الطائف حين تشتد الحرارة فى مكة المكرمة ..

وذات مساء فى أغسطس ، جاءت الأخبار إلى الشيخ لؤى أن « علياً » الابن الأكبر للحسين وقائد الجيش ، جاء إلى الطائف للراحة ، فأرسل إلى « بجاد » الذى جمع رجاله فى سرعة وهاجم الطائف ، فما كان من على وحاميته إلا أن تركا المدينة التى فتح أهلها البوابات لـ « بجاد » وبمجرد أن دخل جيش « بجاد » فتح البوليس عليه النار ، فرد الإخوان بالمثل ، وعندما سمع الإخوان بالخبر أرسلوا مزيداً من التعزيزات ، وفى ذلك الموقف جمع على قواته فى الهدا وهى على الطريق بين الطائف ومكة المكرمة ، ولكن الإخوان استطاعوا أن يكسروا جيشه ويتوجهوا مباشرة إلى مكة المكرمة ..



الفصل الثاني والستون

بدأ الناس فى مكة المكرمة يشعرون بالقلق خاصة وأن الأخبار قد بالغت فى رواية أحداث الطائف بشكل لا يعبر عن الحقيقة . وفى دوامة الخوف أخذ كثير من التجار بضائعهم وتوجهوا نحو الساحل وكما فعل عبد الله حين خرج من « تربة » فقد جاء على إلى ابيه فزعاً مما أربك الموقف . وقد تميز الحسين من الغضب . وكان الحسين فى ذاته شجاعاً ، ورفض أن يقابل علياً وكان رأيه أن يقاتل ، وقد ذهب به الغضب أن طرد علياً من القصر وطلب إليه أن يذهب ليستأثر بالسلامة فى جدة ، وطلب بعد ذلك من أنصاره أن يعدوا أنفسهم للمقاومة ، ولكن لم يتقدم إليه أحد ، وحتى الخدم والجنود فقد هجروه . وجاءته على الفور بعثة تطلب منه ان يتنازل لصالح ولده على ، وطلبوا إليه أن يتخذ الطريق إلى جدة ، لانه كان مأموناً ، وتلك هى الطريقة الوحيدة التى يوقف بها سفك الدماء ورفض الحسين الطلب وأصر على أن يقاتل ..

وقام الطويل مدير الجمارك فى جدة بالاتصال بالحسين ، وطلب منه أن يتنازل ، ولكنه رد عليه فى غضب بالرفض ، ولم يكن الحسين يستمع إلى أحد وهو يذرع القصر جيئة وذهاباً ..

وكانت زوجته التركية هى الوحيدة التى تستطيع أن تتعامل معه فى لحظة الغضب ، وقد رجته أن يغادر مكة المكرمة حيث كان مازال في الوقت متسع . وبدأت الجماهير تتجمع حول القصر تطالبه بالخروج إلى جده ، وهدد بعضهم بتسليمه للعدو فى مقابل سلامة المدينة . ولم يكن الحرس مصدر ثقة ، إذ كان من الممكن أن يسمح للجماهير بالدخول إلى القصر ، وأدرك الحسين الحقيقة آخر الأمر ، فتنازل واعد نفسه للرحيل . وكانت هنالك مجموعة كبيرة من السيارات تنتظر ، ولم يكن غيره فى الحجاز يمتلك سيارات . وهكذا جمع الحسين كل ممتلكاته الفضية والذهبية وتحرك الموكب يتقدمه الحراس الذين مازالوا مخلصين له نحو جدة . وعلى الرغم من أن الشوارع كانت ملأى بالجماهير الغاضبة ، فلم يحاول أحد الهجوم عليه ، وبعد أسبوع آخر ، غادر يخت يحمل الحسين وعائلته وبعض صناديق الذهب التى كان قد تسلمها من الانجليز . وقد فرض الحسين رقابة مشددة على إدخالها إلى السفينة . وعندما أصبح كل شيء جاهزاً أبحرت السفينة إلى العقبة ، ثم إلى قبرص . وعلى الرغم من صلاح الحسين وتقاه فقد دفع آخر الأمر ثم عناده ..



الفصل الثالث والستون

لم يكن هنالك أحد أكثر اندهاشا من نجاح الاخوان الكامل مثل ابن سعود ، وكان مثل هذا النجاح قد اشار به حافظ وهبه وغيره من المستشارين ، أما ابن سعود فلم يكن متأكدا أن الانجليز لن يغيروا رأيهم ويقرروا التدخل لحماية الحسين . وكان يعلم أنه بدون ذلك التدخل لن يكون صعباً عليه هزيمة الحسين ، على الرغم من انه كان يتوقع قتالا حقيقيا . لقد كانت أوامر ابن سعود إلى لؤى وبجاد أن يستكشفا له الطريق ، ولم يكن يتصور ان يحققا مثل ذلك الانتصار الساحق . وعلى الرغم من خروج الحسين فقد عاد علىّ من جديد إلى مكة لينظم المقاومة ووجد صعوبة فى ذلك لأن أحداً لم يتقدم لنصرته ، ولم يكن علىّ نفسه مقاتلاً وقد حاول ان يكون مخلصاً لوالده ولكن الحسين عامله بازدراء . ولم يكن علىّ يريد أن يكون ملكاً أو يتابع أملاً سرابياً ، إذ كل ما كان يريده هو أن يعيش في سلام الا أن الطويل مدير الجمارك كان يلح عليه أن يقاتل .

وقد طلب علىّ أول الأمر من الانجليز أن يتدخلوا ببعض الطائرات والسلاح والمال ، ولكن الانجليز قالوا ان الحرب الدائرة الآن هى حرب دينية وهم لا يتدخلون من حيث المبدأ في هذه المسائل وقد أدرك الانجليز أخيراً أخطاء لورنس ومكتب القاهرة وأثر ذلك على سياستهم . مع ابن سعود . وبعد ان فشل علىّ في اقناع الانجليز توجه إلى ابن سعود نفسه ، وطلب منه هدنة يناقشان فيها شروط السلام . ولكن ابن سعود رفض طلب علىّ وأمر الشيخ لؤى والشيخ بجاد أن يتقدما وشرط عليهما الا يسفكا الدماء وقد حملهما مسئولية ذلك إذ لم يكن يريد ابن سعود تكرار ما حدث في الطائف . وبمجرد أن علم علىّ بذلك خرج مع بعض رجاله إلى جدة حيث القنصل البريطاني حليفه وحيث البحر إذا قرر مغادرة البلاد .

وقد عسكر بجاد في طريق نجد خارج مكة ، وأرسل أربعة من الرجال بالجمال وفي ملابس الإحرام إلى مكة . فوجدوا مكة هادئة والحوانيت مغلقة والمنازل مسيجة وقد حصن الناس انفسهم في داخل المنازل . وسار الرجال الأربعة في الشوارع وتوقفوا في المناطق المهمة وأعلنوا للناس انهم آمنون في حماية الله وابن سعود .

وفي اليوم التالي قام لؤى ومعه ألفان من الرجال فى ملابس الإحرام . ولكنهم

مسلحون ودخلوا المدينة المقدسة ، واتخذوا مواقعهم فيها . وعلى الرغم من أن لؤياً لم يكن يحبذ الطريقة التي يتعامل بها الناس هناك ، فهو لم يقم بأى عمل خوفاً من ابن سعود ، الذي كانت أوامره واضحة في هذا الشأن . إلا أن رجاله قاموا بتحطيم الأواني والزينات وسطحوا القبور والمقامات ، ولم يسمح لهم لؤى بأكثر من ذلك . ومد هؤلاء نفوذهم خارج مكة ، فأذعنت لهم القرى ، ماعدا بعض القبائل مثل « بلى » وكانت مدن جدة وينبع والمدينة المنورة جميعها محصنة تحصينا قوياً ورفضت الاستسلام وباستثناء هذه المدن فقد كانت سلطة ابن سعود قد غطت الحجاز كله .





الفصل الرابع والستون

عقد ابن سعود في الحال اجتماعا كبيرا في الرياض ، كما ارسل خبر أخذه للحجاز إلى سائر الاقطار وقال في رسائله ، أما وقد زال الحكم غير العادل والطغيان ، فان هدفنا هو فتح الأراضي المقدسة لسائر المسلمين ، وسوف أذهب إلى مكة المكرمة ورجائى هو أن يرسل أخواننا المسلمون ممثليهم للتشاور معنا في الأمر . وبعد أن عين ابنه الأكبر « سعوداً » نائباً له في الرياض جمع العلماء والمشايخ والاعيان وقادة الجيش والوزراء وركب جمله الأصفر خارج باب مكة ، يحيط به حراسه وجماعة كبيرة من الرجال وأخذ يسافر فى بطء عبر هضبة نجد ، وإلى المراعى التي بعد بلاد عتيبة ثم إلى جبال الحجاز . وفى كل قرية كان يقف فيها تتدافع إليه القبائل لتعبر له عن ابتهاجها بالانتصار الكبير . وفي اليوم الخامس عشر ارسل بعض وزرائه مع حافظ وهبه كبير مستشاريه والدملوجي وزير خارجيته لعمل ترتيبات وصوله إلى مكة المكرمة . ومر في اليوم الخامس عشر عبر آخر سلسلة من الجبال تحيط بمكة المكرمة . وعندما مر بالوادي الذي يرى منه المدينة المقدسة أناخ جمله وعسكر . وعند هذه النقطة توقف أن يتمثل دور الفاتح ، واصبح هو المعتمر وخلع ابن سعود ملابسه ونحى سيفه ولبس ملابس الإحرام « وصندلاً » ثم ركب حصانه وهو غير مسلح . وبدون خيلاء أو موكب تجاوز جبل عرفات عبر وادى ابطح وطريق المعابدة الرملى الواسع ، ومن ثم إلى المدينة المقدسة وهو يردد التلبية .

« لبيك اللهم لبيك ... »

وقد قابله عند مقبرة المعلا الشيخ لؤى وكان ابن سعود يسير على قدميه وحوله أنصاره وجمهرة كبيرة من الناس وقد توجه على الفور إلى المسجد الحرام ، حيث أدى مناسك العمرة بكل ما هو واجب على المسلم من تواضع .

الجزء الحادي عشر



الفصل الخامس والستون

عندما دخل ابن سعود مكة المكرمة كان قد استقر رأيه على أن يظل الحجاز هو المركز الرئيسى للإسلام ، وهو المنطلق الذي يعاد منه تأسيس امبراطورية الإسلام من جديد . ولم يكن ابن سعود قد حدد الكيفية التي يدار بها الحجاز ، إلا أنه في دعوته التي وجهها للدول الإسلامية كى تنظر فى أمر الحجاز - لم يكن على غير وضوح في مسألة ان يكون الحجاز تحت حكمه الشخصي وكل ما يريده هو أن يكتسب التأييد الدولي فى هذه المسألة .

وكان قد قال ذات مرة لأمين الريحانى « نحن نعرف أنفسنا ولا نقبل الآخرين لقيادتنا وعلى الرغم من ذلك قد كان ابن سعود يتحرك في هذه المسألة بحذر شديد ذلك انه يعمل فى منطقة جديدة ، وقد شعر بالصعوبات التي ستواجهه وهو ما يزال في الرياض ، كان ابن سعود يحكم فى الرياض منطقة معزولة يسكنها رجال الصحراء ، وأما في الحجاز فهو يسيطر على منطقة لها أبعاد فى سائر انحاء العالم . لذلك قرر ان يقوم الحقائق ويطوعها لسياسة واضحة بدلا من ان يفرض على الاحداث سياسة لا تستند إلى حقائق . واتجه ابن سعود في أول امره إلى إنشاء ادارة مؤقتة للحجاز ونظراً لأن الحجاز كان في حالة حرب ، فقد عين لجنة لإدارة الحجاز تحت قيادة ابنه الثانى فيصل يساعده بعض الاعيان من مكة وسائر بلاد الحجاز . وقد عين ابن سعود « لؤياً » قائداً للقوات بينما عين حافظ وهبه حاكما اداريا لمدينة مكة ، وارسل ابن سعود قوات لمحاصرة جدة وينبع والمدينة المنورة ، وأخرى للتعامل مع قبائل الشمال بصورة مؤقتة حتى ينصرف لهؤلاء جميعاً .

ولم يكد يفعل ذلك حتى واجهته الصعوبات التي كان يتوقعها ، ذلك أن جميع الذين حكموا الحجاز واجهتهم صعوبة كسب رضى الناس ، وها هو ابن سعود يخوض تجربة الامتحان . وكانت أولى الصعوبات التي واجهته قد خلقتها طوائف الشيعة الايرانيون . وكان ابن سعود هادئاً فى مواجهة مثل هذه الصعوبات ، ويستخدم قدرات غير عادية ، خاصة وهو يتعامل لأول مرة مع الأجانب وعلى الرغم من أن ابن سعود كان مهتما بالأجانب ، وكان يستجوب كل من يزوره منهم ، وكان يقرأ صحف البصرة والقاهرة وحلب ، ولم يكن يستأنس بشىء مثل الشئون الخارجية ، فلا يستطيع أحد ان ينكر انه كان من ابناء الصحراء . وفيما عدا تلك السنوات التي

قضاها في الكويت ، فهو لم يكن أبداً على اتصال بالعالم الخارجي ، بل كان معظم حياته في الصحراء الداخلية للجزيرة العربية ومهما يكن من أمر ، فإن معرفته الفطرية ، وحكمته هى التي جعلته يتعامل مع الشئون الدولية التى بدأت تفد إليه . ولم يكن ابن سعود يظهر أى نوع من الغرور أو التعالي على النقد الذي كان يوجه اليه في مسائل السياسة ، وانما كان يدعو البلاد الاجنبية لترسل ممثليها لترى الامور على الطبيعة ، وعندما جاء الفارسيون لرؤية مالحق مكة المكرمة من ضرر ، وهم بطبيعتهم مناوئون ، رجعوا وهم راضون عن ابن سعود الذي كسبهم بعد ان أوضح لهم حقيقة الموقف . وكان ملك مصر فؤاد فى ذلك الوقت يطمح في أن يكون خليفة الاسلام ، وأن تكون القاهرة عاصمته ، وجاء الوفد المصرى وهو يشكو من كلمات سمعت عن الدويش ، فما كان من ابن سعود الا ان طيب خاطر الوفد المصرى وأوضح لهم أن كل ما سمع عن الدويش لم يكن صحيحاً ، ووعدهم بأنه لا الدويش ولا أحداً من رجاله سوف يسمح له بدخول المدينة المنورة بعد ذلك ، كما اوضح لهم ان الدويش لم يلحق ضررا بالمدينة المنورة .

وجاءه الهنود ، وكانوا مصادقين ولكن يصعب التفاهم معهم ، لأنهم كانوا يتحدثون بالمفهومات الغربية التي كسبوها عن الانجليز مثل الديمقراطية ، والتقدم المادى ونحو ذلك . وكانوا على درجة من الغرور ، ويحاولون اظهار تفوقهم على العرب ، ولكن ابن سعود عاملهم بحنكة بالغة وجعلهم يذهبون إلى بلادهم وهم راضون . وجاء الشيخ السنوسي من تركيا ، وكان رجلا ورعا وذا سمعة دينية كبيرة ، وكان لديه كثير من الاتباع في الحجاز .وغيرها من البلاد . وقد زار قبور امهات المؤمنين ويقال انه دعا ان يتشفعن له عند الله وعندئذ نشأت مشاجرة كبرى وتأزم فيها الموقف وتدخل ابن سعود بحكمته وأنهى الأزمة .

وعلى الرغم من أن ابن سعود كان يواجه كثيرا من المواقف الصعبة والنقد والحسد ، فقد كان هادئاً وصابرا وحليماً . وكان كثير من خصومه ، وهم يرون ذلك يعتقدون أنه كان معتذرا لهم وهو لا يستطيع أن يتخذ الموقف الحاسم ، وكان هو في حقيقة أمره يحاول اختبارهم . كان يراقب الموقف من أجل أن يعرف الحقائق ليتخذ منها موقفه . وكانت تلك هى طريقة ابن سعود .





الفصل السادس والستون

في وسط كل تلك الصعوبات والمشاكل جاءت بعثة انجليزية برئاسة السير « جيلبرت كلايتون » ، ذلك ان نهاية الحسين قد جاءت مفاجئة للانجليز إذ كانوا يتوقعون حربا طويلة تنتهي بنوع من المصالحة يضعف فيها كلا الحسين وابن سعود . ولكنهم الآن وبعد ان ذهب الحسين ادركوا انه لابد لهم أن يتصرفوا بسرعة ، ويتفاهموا مع ابن سعود قبل أن يصبح قويا بما فيه الكفاية فيصعب عليهم التفاهم معه . وفي البداية فقد قاموا باحتلال قطعة من الارض حول العقبة في اقصى شمال الحجاز وكان الطريق يسير فوقها عبر سيناء الى قنال السويس ، وهي تشكل حماية للاردن في تلك المنطقة . وكان ابن سعود قد اتخذ معسكره قبالة قرية « بحرة » بين مكة وجدة عندما زاره المستر كلايتون . وقد جلس الاثنان يتحدثان بينما كان رجال ابن سعود والشيوخ يحيطون بالوفد . وكانت الضجة والغبار واصوات الناس والابل توحي بما في المعسكر من حركة . وكان كثير من القبائل والمبايعين تفد لتهنئة ابن سعود والانضمام اليه . وكان ابن سعود يستقبل قادة القبائل ويوضح لهم مكانهم في المعسكر . ووقف امامه كثير من الرجال الذين كانت بينهم مشاكل وقضايا فانجزها لهم . كان يستمع ويقرر ويعطي الاوامر في سرعة ويقوم الحراس بالتنفيذ . ولم تكن المقاطعات تزعجه ، اذ كان يمارس عمله ثم يتجه الى الوفد الانجليزي لمواصلة النقاش دون أن يؤثر ذلك على مجرى الحديث .

لم يكن موضوع العقبة من المسائل المهمة التي يريد المستر كلايتون مناقشتها مع ابن سعود ذلك أن ابن سعود قد ارسل قواته ما بعد وادي السرحان واحتلت ارضا ما بين العراق والاردن وقاربت الوجود الفرنسي في سوريا . وكانت تلك خطة افسدت جميع الخطط البريطانية في البلاد العربية لأنها قطعت الحزام الذي اقامه الانجليز كي يقفلوا ابن سعود ، وفتحت له الطريق الى البحر المتوسط وفلسطين ، كما أن تلك الارض تقطع طريق السيارات الى بغداد ، فالهند ، بالاضافة الى خط الانابيب الذي يحمل النفط الى الاسطول الانجليزي الذي أخذ يبني قاعدته في حيفا .

لقد علم ابن سعود اهمية ذلك الممر ولذلك اوضح للمستر كلايتون انه لن يتخلى عن تلك المنطقة . وعندئذ بدأ المستر كلايتون يلعب ورقته فأخطر ابن سعود أن الفرنسيين والانجليز قد اتفقوا على أن يخلي ابن سعود ذلك الممر وأن يدفع حدود

نجد الى الوراء . وقد وقعوا اتفاقية بهذا المعنى . وكان ذلك إنذاراً وتهديدا مباشرا . وأحس ابن سعود بالغضب والاهانة . ونظر الى معسكره وكان كل ما يحتاجه هو أن يعطى كلمته حتى تسير قواته نحو الانجليز ، ولكن ابن سعود كعادته كتم غضبه ، وقدر انه لايستطيع محاربة الانجليز والفرنسيين معاً ، لأن أمامه مازالت قضية جدة وينبع والمدينة المنورة بالاضافة الى أن كثيرا من رجاله كانوا يشعرون بالتعب ، ويريدون الذهاب الى اهاليهم ، وهو نفسه كانت امامه مهمات كثيرة لتثبيت موقفه . ولم يكن فى مقدوره أن ينشىء اعداء جدداً ، خاصة وهو كان يتوقع أن يكبح الانجليز جماح فيصل وأخيه عبد الله ووالدهما الذي كان مازال يرسل الذهب والسلاح الى نجد . وفجاة نظر ابن سعود الى كلايتون باسما واخطره أنه سينسحب من الممر ، ولكنه ترك موضوع العقبة مفتوحاً . وفي مقابل ذلك قبل به الانجليز سيداً على وادى السرحان وقبائل " الرولة " .





الفصل السابع والستون

كانت عادة ابن سعود اذا شغل نفسه بالحسابات والحذر أن تبدو عليه علامات الغضب ، وهاهو الآن بعد شهور من الغضب من الانجليز فقد قرر أن يتخذ موقفاً واضحا منهم وهو عدم التردد ، وأقسم ألا يجعلهم مرة أخرى يتفاوضون معه وهو في موقف ضعف ، وقرر على الفور أن ينهى فتح الحجاز ، ويتخلص من عليٍّ ويحكم قبضته على القطر بأسره كحاكم وملك .

وكان هدف ابن سعود هو توحيد موقف سائر المسلمين فى مسالة الحجاز ، ولكن هؤلاء خيبوا آماله ، إذ أنه ظل على مدى عام كامل ينتظر وفودهم وتوحيد كلمتهم دون فائدة . وقد كرر الدعوات ولم يتسلم غير الاعتذار ، وحتى اولئك الذين حضروا لم يحددوا موقفا واضحا حتى بالنسبة لابسط الامور ، اذ قضوا اوقاتهم يتشاجرون مع بعضهم بعضاً ، ويتناقشون في أمور ليست هى موضع خلاف من أحد .

ولم يكن ابن سعود من الذين يقحمون انفسهم في المجالات المذهبية ، ذلك أنه بحسب تكوينه كان رجل بساطة وعمل . وكانت وحدة الاسلام هى هدفه الاكبر . وكان يرى أن عدم الوحدة هو خطيئة المسلمين . وبدأ ابن سعود يشعر أن الجدل الفارغ هو سبب عدم الوحدة الذي جعل المسلمين يفقدون امبراطوريتهم العظيمة ويعيشون فى تلك الحالة من الضعف .

لقد جاء فى القرآن الكريم ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾ وقد أغضب ابن سعود حال العرب والمسلمين ، واتجاههم نحو الخلاف والفرقة ، ولذلك فقد قرر أنه لايستطيع أن يقبل تلك الحال طويلا ، اذ كان رجاله يضغطون عليه ، وكان ابن سعود يعلم أنه لايستطيع أن يفعل شيئاً لا يريده رجاله خاصة وأنهم كانوا لا يحسنون الظن بالاجانب . ولم يكن هؤلاء يقبلون نظرة التعالى التى جاء بها بعض من تباحث مع ابن سعود مثل الهنود الذين ادعوا انهم اقدر على الحفاظ على الأمن في الاراضى المقدسة . وكان الرأى الهندي مدعاة غضب النجديين والحجازيين على السواء الذين رأوا فيه تقليلاً لمكانتهم ، وهم الذين بذلوا المال والدماء من أجل المحافظة على الاماكن المقدسة .

وقال أحد الحجازيين لأحد الهنود ، « نحن نفضل ابن سعود حتى لو أساء حكمنا على اى اجنبى يحاول السيطرة على العرب ، واذا كنتم تريدون السيطرة علينا فاثبتوا أولا قدرتكم على إدارة مطاعم بومبى قبل أن تحضروا إلينا » .

ورأى ابن سعود أن الوضع يحتم عليه أن يتخذ قراره دون تردد باعلان نفسه ملكاً ، لأن ذلك هو السبيل الوحيد لحماية القطر من النفوذ الاجنبى وادخال العدالة والسلام اليه ، خاصة وأن القوى المسيحية الكبرى قد بدأت تتألب عليه ، وقد قال ابن سعود لاحد الزوار الاجانب « كن على يقين من شيء واحد ، لن يكون هناك نفوذ اجنبى على بلادي ، وسوف احافظ بمشيئة الله على هذه البلاد مستقلة » .

وقال أيضا « ولقد نظرت فوجدت أنه ليس هنالك بين المسلمين من هو مؤهل اكثر منى لذلك ، اذ أن الهنود تحت النفوذ الانجليزي ، والسوريين تحت النفوذ الفرنسى ، وانا الوحيد الذي فتحت هذه البلاد بمشيئة الله ومساندة رجالي ، وأنا الوحيد الذي يمكن له أن يحافظ على حرية هذه الأماكن المقدسة لأننى لو تركتها لغيرى لحكمها المسيحيون من خلال مستعمراتهم . لذلك فمن واجبى أن أعلن نفسى ملكاً » وارسل ابن سعود رسالة أخرى الى سائر المسلمين يقول فيها « ليست لي مطامح شخصية في أن اكون حاكماً على الحجاز ولكن الواجب يحتم على أن احافظ على الامر حتى يختار شعبى من يعتقدون أنه الاصلح لكى يكون خادم الحرمين » .

وكان ابن سعود يعلن أنه حتى ألد الخصوم فى الحجاز لن يختار غيره لتلك المهمة .





الفصل الثامن والستون

لقد أصبح ضمير ابن سعود مرتاحاً ، وهدفه واضحاً ، وعقله مركزاً ، ولم يبق أمامه سوى العمل ، وحتى هذه اللحظة فهو لم يشدد الحصار على اي من جدة ، وينبع والمدينة المنورة ، وانما اكتفى بوضع عدد من الرجال حول هذه المدن ، ولكنه قد أعطى الأوامر لتشديد الحصار أو أخذ هذه المدن عنوة اذا لزم الأمر . وقد جاء الدويش الى مكة لأداء العمرة وتطوع للذهاب الى ينبع ، ولكن ابن سعود طلب منه أن يجمع رجاله ويعود الى اهله لأنه لم يعد بحاجة الى خدماته بعد الآن ، واحتج الدويش على ذلك القرار ، ثم أخذ رجاله بنية أن يذهب الى المدينة . وفى طريقه هاجم « قرية العوالي » وهي قرية لم تكن فيها دفاعات ، وارسل من هناك الى ابن سعود وهو يتفاخر بفعلته وطالباً مزيداً من السلاح للتوجه الى المدينة المنورة وامتلأ ابن سعود غضباً ، فأرسل اليه امراً حاسماً ، بأن يختفى وبأسرع ما يمكن والا تحمل نتائج افعاله . واخطره ابن سعود مرة أخرى انه ليس في حاجة اليه لأخذ المدينة ، ذلك أن ابن سعود رأى أن المبالغة فى التقتيل في العوالى هى امر لاتقره سياسته ، وهو فضيحة في نظر سائر المسلمين المعتدلين ، وكرر ابن سعود تحذيره بأنه اذا لم يمتثل الدويش لأوامره ، فليتوقع عقابه الرادع .

وذهب الدويش على الفور الى الصحراء الداخلية ، وعلى وجه التحديد الى عرطوية ، وكان غاضباً ؛ وقد صمم على أن يتحدى أوامر ابن سعود ، وأخذ يثير أهل عرطوية للعصيان ، وأرسل ابن سعود في ذلك الوقت أخاه محمداً الى المدينة المنورة وقام على الفور سكان المدينة الذين اقسموا أن يقفوا في وجه الدويش بالتسليم لابن سعود . وقد تبعت ينبع ذلك الاتجاه بعد فترة قليلة .

وكان على بن الحسين مايزال في جدة ، وكان مايزال يلقب نفسه ، « ملك الحجاز » وكان معه بعض بقايا جيش الحسين وبوليس مكة المكرمة ، وقد رفض هؤلاء أن يذعنوا لسلطة ابن سعود ، وقد انضم اليهم عدد من الضباط الأتراك والسوريين ، حيث قاموا بحفر الخنادق واصلاح السور واقاموا حاجزاً من السلك الشائك حول المدينة ، فاشترى على بن الحسين طائرتين للاستعمال الحربى . ولكن علياً لم يكن قائداً او منظماً ، ولم يكن جنوده على درجة من الكفاءة لمواجهة ابن سعود لذلكً فقد كانت المدينة وكل استعداداتها في حالة من الفوضى ، لقد كانت

المدينة بطبيعتها مزدحمة ، وفي مثل تلك الظروف زاد الزحام فيها بسبب الحجاج والمعتمرين الذين توافدوا عليها خوفاً من الحرب . ولم تكن هنالك امدادات للماء باستثناء بعض الآبار وما يمكن تنقيته من مياه البحر . وكانت الطبيعة حول المدينة قاحلة ولا يوجد فيها حدائق أو اشجار أو حشائش ، ولم يكن عند الناس مال يشترون به مستلزماتهم من خارج القطر .

ولم يمض كبير وقت حتى نفذ الماء والطعام ، وتفشت المجاعة والامراض . وأخذ الناس يموتون بالمئات . ولم يكن هنالك مكان لدفنهم . وكان المكدون يموتون في مواقعهم ، ويتعفنون ، وتحول كثير من الرجال والنساء إلى هياكل عظمية من شدة الجوع ، وأكل بعضهم الصقور والحيوانات الميتة وتقاتلوا من أجلها . وكانت الروائح الكريهة تنبعث من كل مكان تحت اشعة الشمس اللاهبة . وعندما اقترب المهاجمون ، وبدأوا يستعدون لأخذ المدينة لم يكن هناك شيء قد تبقى من جيش على ورجاله ، وحتى يحمى المدينة ، من النهب ، وافق علّي على التنازل والمغادرة ، وفي مطلع شهر ديسمبر من عام ١٩٢٥ رحل متخذا سفينة انجليزية حملته إلى عدن ، ومن هناك سافر إلى أخيه فيصل في بغداد . وهكذا خرج آخر رجل من عائلة الحسين من الحجاز .

وبعد اسبوعين ، وحين أصبح كل شيء معداً ، اتجه ابن سعود من مكة إلى جدة وعند بوابة المدينة قابله القناصل الاجانب . وأخذ ابن سعود يسير وخلفه الحراس والقناصل والمقاتلون ، وسط هتافات الجماهير ، وكانت اعلامه ترفرف في المقدمة ، وكان اول ماتجه إليه ابن سعود هو منزل محمد نسيم بالقرب من ميدان الجمارك . وهنالك جلس لفترة عين خلالها « الدملوجى » حاكما على جدة ، واستقبل أهل المدينة ، ثم أعلن بعد ذلك أن الحجاز بأسره قد استسلم له ، ورجع بعد ذلك إلى مكة المكرمة . وبمجرد أن اقترب من المدينة المقدسة ، خرج إليه الأعيان واخطروه أن أهل الحجاز قد انتخبوه ملكاً عليهم .

وكان دخول ابن سعود إلى جدة هو دخول الفاتحين ولم يكن موجهاً لاظهار هيبته امام القناصل الاجانب فحسب ، بل كان يريد أن يجعل منه رمزاً لنصره ، وعلى الرغم من ذلك فلم يقم ابن سعود الاحتفالات بمناسبة اعلانه ملكاً ، واكتفى فقط بالاجراءات الرسمية حتى لايتهمه أُحد بالغرور أو الخيلاء . ولان ذلك مخالف لما درج عليه النبى ﷺ والخلفاء الراشدون من التواضع .

وكان هنالك بالقرب من باب الصفا في المسجد الحرام مكان مرتفع ، ذهب إليه ابن سعود في الثامن من يناير عام ١٩٢٦ وبدون اعلان جلس فيه وهو يرتدي ملابسه العادية . وكان ملتفاً بعباءته البنية يستمع إلى أحد الوعاظ . وبعد ذلك ارسل

إلى الأعيان ، فجاؤا وأُخذ كل منهم يلمس يده علامة المبايعة ، ولما انتهى من ذلك دخل إلى الحرم وأدى الصلاة . وكان قد تجمع عند ذلك عدد كبير من الناس فخرج ابن سعود يحيط به حراسه وسار سيراً على الاقدام إلى منزل الحاكم . وهنالك عين ابنه فيصلاً ولجنة للعمل بالنيابة عنه ، ثم اقام استقبالاً لسائر الناس . وقد سمح للمدفعية في قلعة أجياد أن تطلق احدى وعشرين طلقة في تلك المناسبة .





الفصل التاسع والستون

لقد أصبح ابن سعود حاكما على الحجاز ونجد ، وكان يعلم انه لايريد في نجد مساعدة خارجية ، ولكنه إذا أراد أن يحافظ على الحجاز كمركز للاسلام فلا بد له أن يحافظ على صداقة سائر المسلمين ، وهذا هو الهدف الذى اتجه اليه ، اذ أرسل مرة أخرى دعوات الى سائر الدول كى يحضروا مؤتمرا عاماً يعقد في مكة المكرمة . ونظراً لأنه أصبح حاكم البلاد دون منازع فقد توافدت عليه الوفود من كل مكان .

لقد عقد الاجتماع ، فى السادس من يونيو عام ١٩٢٦ في تكنات المدفعية التركية السابقة والتى كانت تقف على تل رمادى في المدخل الغربى للمدينة ، وقد حضرت الوفود من سائر البلاد وتخلفت ايران عن الحضور ، كما تاخرت بعض الدول الأخرى ، ومنها تركيا واليمن ومصر وافغانستان وكان كل شيء قد اعد اعداداً جيدا ، وقد زينت قاعة المؤتمر بالستائر ، التى كان يغلب عليها اللون الاخضر ، لون نجد ووضعت منصة في أحد الجوانب ، صفت تحتها المناضد على شكل حدوة حصان حتى تتساوى جميع الوفود في المكانة . وقد زرع الطريق إلى قاعة المؤتمر حتى يبدو جميلا فى اعين الناظرين ، خاصة في فصل الصيف .

وبمجرد أن جلست الوفود ، دخل ابن سعود دون ابهة وخلفه حافظ وهبة ، واتجه مباشرة الى المنصة ، ورحب ابن سعود بالضيوف ، ثم بعد ذلك قرأ حافظ وهبه كلمة كان ابن سعود قد أعدها وجاء في نهايتها « لقد دعوتكم لهذا المؤتمر لدراسة كافة الوسائل الاخلاقية والدينية التى نعلى بها من شأننا مرضاة لله » .

وخرج بعد ذلك ابن سعود سريعا كما دخل القاعة ، وقد حيا الجالسين قبل خروجه ، وكان هدفه من ذلك أن يتيح للمؤتمرين فرصة مناقشة الامور في حرية كاملة .

ولم تترك الخطبة لأى واحد منهم مجالا في عدم فهم نوايا ابن سعود ، ذلك أن ابن سعود قد جعل موقفه واضحا فيما يخص واجباته ووظائفه . لقد أصبح ملكاً . وهو مستعد لأن يستمع الى النصح من أخوته المسلمين ، لكنه هو الذى يتخذ القرار ويحكم . وقد سأله أحد الأعضاء في نهاية المؤتمر عن الموقع الذى اختاره لنفسه ، فقال ابن سعود ورأسه عالية : « هل يستطيع أحد أن يضمن حياد ووحدة هذه البلاد المقدسة فى وجه الاعتداءات الأجنبية ؟ » .

وعندما لم يسمع أية اجابة قال : لذلك اخترت أن أكون ملكاً لانني بعون الله قادر على المحافظة على الأراضى المقدسة وضمان حرية العبادة فيها لسائر المسلمين ، ثم قال : « لقد دعوناكم لتتدارسوا الوسائل التى يمكن بها أن تصبح الاراضى المقدسة نموذجا لكل العالم يرى فيها نظافة الاسلام وكل ما من شأنه أن يحافظ على صحة المسلمين وعبادتهم » .

وكان ذلك هو السبب الذى جعل ابن سعود يدعو الوفود لعقد مؤتمرهم في مكة المكرمة . لقد دعا المسلمين لدراسة المسائل التى تتعلق بشئون الحج وما يتعلق به ، وأما الشئون الادارية العامة فهى من شأنه هو وحده وقد اقترحت عليه الوفود بناء خط حديدى بين جدة والمدينة ، وقد قبل ابن سعود فكرة المشروع وتعهد بأن يتولى الأمر بنفسه . وتعهدت الوفود بأن تجمع اموالا من حكوماتها على أن تدفع هذه الاموال في تطوير المرافق العامة في الاراضى المقدسة . وكان ابن سعود يعرف بخبرته أن ذلك مجرد كلام ، ولكنه مع ذلك قبل الفكرة من حيث المبدأ ، وقال بعد أن يجمع المال سوف يقرر في كيفية صرفه . وكان ابن سعود يعرف أن كثيراً من الوفود تتعامل مع بعضها بدوافع الغيرة وعدم الرغبة في الوحدة الحقيقية . وقد اثبت المؤتمر ذلك بصورة قاطعة ، اذ صدق ما توقعه ابن سعود ، فقد كانت كثير من الاجتماعات مجرد ضوضاء ومشاحنات ، اذ كانت الوفود تتشاجر في كل أمر تناقشه ، وكانوا في النهاية يتخذون قرارات عديمة الفائدة . وكان الوفد الهندى هو الاساس في كل المشاحنات ، وقد اقترح احدهم أن يتولى الوفد التركى الرئاسة بينما كان هنالك حجازى في مقعد الرئاسة . وكان بعضهم يصر على التحدث بالاردية والانجليزية في الوقت الذى اتخذ فيه المؤتمر قرارا بأن تكون العربية هى اللغة الاساسية . وبينما كان المؤتمر منعقدا نشأت مشكلة حادة . وكانت بحاجة الى تدخل ابن سعود ليحسمها ، فقد كان الحج في ذلك العام في منتصف يونيو ، وكان الحجيج قد بدأوا يتوافدون ، ووصلت قافلة المحمل من مصر . والمحمل هو مثل الصندوق ويبدو كالخيمة من أعلى ، ويحمله جمل يحرسه في العادة بعض الجنود المصريين من حملة البنادق ، وقد بدأ ارسال المحمل منذ ستمئة عام في عهد شجرة الدر ، ثم اصبح بعد ذلك رمز الحجيج المصريين . وكان من العادة أن يسير المحمل عبر وادى أبطح الى عرفات مخترقا قرية منى . وكان المصريون في تلك السنة قد أناخوا في منى حتى يلحق بهم من تخلف في السير . وقام الجنود بالنفخ في ابواقهم حتى ينبهوا الجنود المتخلفين . وكانت جموع الحجيج كبيرة في المكان . وكان بينهم من يستنكر عزف الموسيقى في تلك الاماكن المقدسة ، وفجاة أشار أحدهم الى المحمل ووصفه بأنه وثن ، يصلى الجنود حوله ويدخنون التباكو . وتجمع كثير من الناس حول

المحمل ، فأمرهم الضابط المسئول بالتفرق فرفضوا ، وصاروا يلقون الحجارة عليه ، وبدأ الضابط يطلق النار في الهواء . ولما لم يجد ذلك ، أمر جنوده باطلاق النار مباشرة على المتجمعين ، فقتل على الفور خمسة وعشرون رجلا ، واربعون حصانا وجرح عدد كبير من الناس . وتفجر الموقف ، وامتلأ الوادى بالرجال الغاضبين الذين هبوا لنجدة اخوانهم . وكان ابن سعود في ذلك الوقت في خيمته خارج منى . وحين سمع بالحادث ارسل ابنه فيصلا ليستجلى حقيقة الموقف . ولم يستطع فيصل أن يفعل شيئا ، فأرسل بطلب من والده الحضور لمعالجة الازمة . وجاء ابن سعود في الحال ، اذ خرج سريعا من خيمته وقفز فوق حصانه ، وصاح في حراسه كى يتحركوا نحو منى . وكان الليل قد بدأ يسدل ستوره . وكانت هنالك سحائب من التراب عالقة في الجو . وشق ابن سعود بحصانه بين النجديين والمصريين ، فعرفه النجديون بطوله الفارع على الرغم من الظلام . وعندئذ ذهب النجديون الى اعلى الجبل وأخذوا ينتظرون ، فاتجه ابن سعود الى الضابط المصرى وقال له :

– بأى حق قمت باصدار الاوامر لاطلاق النار ؟ يوجد فى هذه البلاد شريعة وحكومة وانا الحاكم . واذا كنت قد أرسلت تخبرنى لكنت عالجت الموقف .

قال الضابط بغرور :

– لولا احترامنا لك يا صاحب الجلالة لكنت قد أمرت جنودى بابادة هذا الحشد وبذل ابن سعود جهداً كبيراً كى يكبح غضبه . وكان الجندى المغرور ما زال يقف امامه ، فقال ابن سعود بهدوء : « ليس هذا مكان الادعاء . هذه هى الاراضى المقدسة وقد حرم القتل فيها ، وأنتم ضيوفنا ، ولذلك نحميكم ، ولولا ذلك لدفعتم ثمن ما فعلتم غالياً .

وعندئذ أمر ابن سعود الحراس أن يفصلوا بين الطرفين المختصمين ، وترك ابنه فيصلا وحافظ وهبه ليتوليا الامر ثم ذهب الى خيمته .

ولقد طلب ابن سعود بالطرق الدبلوماسية تعويضا عن الحادث وكان واضحا أن ابن سعود اراد أن يؤكد على انه هو السلطة في الجزيرة العربية واراد أن يعرف الجميع ذلك . وهكذا انتهى المؤتمر دون أن يحرز قيمة كبيرة ذلك أن المندوبين قد شغلوا انفسهم بالمشاحنات ومسائل الاختلاف وانصرفوا عن الامور البناءة . ورجعت الوفود الى بلادهم وهى خاوية اليدين ، والشيء الوحيد الذى عرفه الجميع وتأكدوا منه ، هو أن ابن سعود قد قرر أن يكون سيدا على بلاده ومحافظا على مصالحها .



الفصل السبعون

تقع منطقة عسير على ساحل البحر الأحمر جنوب الحجاز ، ويليها اليمن التى كان يحكمها الامام يحيى . وهو كان رجلاً عنيداً ودكتاتوراً وعلى خلاف مع جيرانه . واليمن هي بلاد جبلية تتميز بالخصب ، وتنزل عليها في كل عام الامطار الموسمية التى تأتى إليها من المحيط الهندي وتحجزها الجبال . ويتميز رجال اليمن بشجاعتهم وصلابة معدنهم وكانت عسير في ذلك الوقت منطقة فقيرة ، وقد أقام الاتراك فيها حامية حتى عام ١٩١٨ ، وقد قام الاتراك باخلائها خلال فترة الهدنة ، فشرع ابن سعود على الفور باحتلال الجزء الشرقي من المنطقة حتى أبها . وكان الجزء المتبقي يحكمه محمد ادريسى ، وحين توفي خلفه حسن ادريسى ، وكان ضعيفاً وغير محبوب ، وعندئذ أخذ ابن سعود يتقدم من الشمال ، بينما كان الامام يحيى يتقدم من الجنوب . وفي نهاية عام ١٩٢٦ اتخذ أهالي عسير قرارهم الحاسم ، بأن يكونوا تحت حكم ابن سعود . ولم يكن ابن سعود أو الامام يحيى في ذلك الوقت راغبين في تصعيد الموقف ، لذلك فقد اتفقا على أن يحتفظ الامام يحيى بما عنده وتصبح عسير تحت حكم ابن سعود ، وفي الحقيقة لم يكن ابن سعود راغباً في القتال لأنه كان يحتاج الى تدعيم موقفه في كل من الحجاز ونجد وقد ارسل له والده وبعض النصحاء يطلبون منه العودة الى الرياض بسرعة ، لأنه قد غاب عنها مدة تزيد على عامين وقد بدأ الناس يشعرون بأنه بدأ يركز على الحجاز بينما كثير من الأمور تتطلب وجوده في نجد ، لقد ظل الدويش يعمل ضده وكان حثلين ينسق معه ، ويحاول اثارة العجمان ، وكان فيصل وأخوه في العراق يعملان مع قبائل الحدود . وكان الموقف باسره يحتم عودة ابن سعود . وبمجرد أن اتفق ابن سعود مع امام اليمن ، قرر العودة الى الرياض . وهكذا دعا والده عبد الرحمن وابنه سعود سائر القبائل لحضور اجتماع لتحية ابن سعود بعد عودته .

لقد ظل قادة القبائل ينتظرون ابن سعود في ديوان القصر وكانوا يريدون أن يوجهوا له كثيراً من الأسئلة حول سياساته ، ولما ظهر سكت الجميع ، فتوجه ابن سعود الى والده وقدم فروض الاحترام ، وبعد ذلك اتجه لتحية الحاضرين ، وعلى الفور بدأ ابن سعود ، يتحدث الى الجميع مرحباً بهم ، ولم تمض لحظات حتى كانت شخصية ابن سعود قد طغت على الجميع . فقد تناسى الناس شكوكهم والنقد

الذي كانوا سيوجهونه له ، وبدأوا يستمعون بشغف إلى إنجازاته فى الحجاز . وقد أثار ابن سعود حماسهم عندما أخبرهم أن الحج قد أصبح آمنا . وعلى الفور طلب زعماء نجد من ابن سعود أن يكون ملكاً عليهم ، وقبل ابن سعود التكليف وأعلن ملكاً دون احتفالات بالمناسبة ، تماما كما كان شأنه في الحجاز ، وبعد ذلك قام ابن سعود بزيارة القرى للاتصال بالناس ، ذلك أن الناس في الجزيرة العربية يهتمون بالرجال قبل الالقاب ، وعندما انتهى ابن سعود من تلك المهمة عاد الى مكة المكرمة لمواصلة مابدأه هناك .





الفصل الحادى والسبعون

كان هنالك الكثير مما يفعله ابن سعود فى الحجاز ، ذلك أنه بعد سنوات من سوء الادارة والحرب كان الحجاز بدون ادارة وفيه كثير من عدم الامن ، فلم تكن الطرقات آمنة ولم يكن الناس يجرؤون على السفر خارج قراهم أو مدنهم ، كان الحجاج ينهبون أو يقتلون بالمئات دون أن تتخذ خطوات لحمايتهم ، وكان القتل شيئا عادياً يرتكب من أجل دراهم معدودة ، أو من أجل سلة من الخبز . لذلك فقد جعل ابن سعود الامن همه الاول ، فقد انشأ فى مكة المكرمة قوة بوليس من حرسه الخاص ، ذلك أن علياً كان قد أخذ قوة البوليس بأسرها معه الى جدة ، وقد عين مراقبين في سائر المدن وانشأ دوريات الجمال السريعة التى كانت تتحرك بسرعة وتظهر فجأة فى المعسكرات والقرى وتسيرفى العادة بالليل وتنزل على الناس دون انذار مسبق . وقد نفذ جند ابن سعود القانون بكل قوة ، اذ كانوا يأخذون القصاص من القتلة ويقطعون الأيادى فى جرائم السرقة ، ويمارسون الجلد فى الجرائم الاخلاقية . ولم تأخذهم شفقةفى تطبيق القانون حسب مقتضيات الشريعة ولم يكونوا يتعبون في ملاحقة المجرمين ولا يهدأ لهم بال حتى يلقوا القبض عليهم ، ولم يكونوا يستثنون احداًفى تطبيق القانون ، اذ لم تكن العاطفة تتدخل فى امور الامن ، ولم يمض وقت طويل حتى بثوا الرعب فى قلوب المجرمين ، وبدأت البلاد تشهد عهداً من الامن لم تعرفه منذ زمن طويل ، واختفت الجرائم الخطيرة ، واصبحت طرق القوافل آمنة حتى بالنسبة للمسافرين المنفردين . وربما ترك الرجل بضائعه الى جانب الطريق دون حراسة ويعود بعد اسبوع ليجدها فى مكانها . وكان المشاة يبتعدون عن البضائع الملقاه على قارعة الطريق حتى لايمسوها بالصدفة . وهكذا بدأ الناس يشعرون بيد ابن سعود فى كل موقع من اراضى الحجاز .

واتجه بعد ذلك ابن سعود لتحسين احوال الحج ومرافقه . وكانت كثير من القبائل ومن بينها حرب تفرض اتاوات على الحجاج . وقد الغى ابن سعود تلك الاتاوات وغيرها من الضرائب التى فرضها الحسين ، ونظم ابن سعود وسائل النقل بين مكة والمدينة وفرض رسوماً معقولة على السفر بالجمال ، كما ادخل السيارات فى النقل ، وامن الماء والعناية الصحية للحجاج ، وقد ادت هذه التحسينات الى مجىء اكثر من مئة ألف حاج فى عام ١٩٢٧ . وانشأ ابن سعودفى مكة والمدينة لجان

الأخلاق الحميدة ، وهى اللجان التى كانت تتولى تنظيف الشوارع وتقوم باصلاح الطرقات والمجارى ومرعاة أن الناس يعيشون فى حياتهم حسب اوامر القرآن الكريم والشريعة الغراء .

لقد أصبحت العقوبات فى المخالفات الاخلاقية شديدة ، واذ تخلف رجل بصورة متكررة عن الذهاب إلى الصلاة أو اظهر نوعاً من التفريط كلبس الحرير والذهب أو التدخين فانه كان يعرض نفسه للمؤاخذة من اللجان .

وكان ابن سعود قد عين ابنه الثانى فيصلاً ، يساعده مجلس تنفيذى لادارة الحجاز تحت سلطته ، وقام بتعيين خمسة مجالس أخرى فى مكة والمدينة وجدة وينبع والطائف ، كما عين مجالس فى الاقاليم . وكان أعضاء هذه المجالس من الاعيان والشيوخ ومهمتهم أن ينصحوه وينفذوا اوامره .

وكما كان الأمر سابقا ، فقد كان الامرفى النهايةفى يده ، اذ كانت شخصيته هى التى تلعب الدور الحاسم ، وليست أية آلية ادارية اخرى وكان لاجل ذلك يعمل عملاً متواصلاً يزيد عن ثمانية عشرة ساعة فى اليوم ، ولا ينام الا قليلاً .

تقع مكة المكرمةفى منخفض تحيط به الجبال البركانية التى تخترقها الشمس ، فترتفع حرارتها الى درجة كبيرة . وفي موسم الأمطار يصبح التحرك فى داخلها امراً صعباً . ونظراً لظروفه الصحية ، فقد بدأ ابن سعود يعمل من مقره . ولقد اشترى سيارة ، فلم يعد بالتالى يمارس التمارين الرياضية التى كان يمارسها بركوب الخيل والجمال وكان ابن سعود يزيد من استخدام الدواء مما اثر على كبده وانعكس على صحته العامة . وعلى الرغم من انه كان قد بلغ السابعة والاربعين وهى السن التى يبدو فيها كثير من العرب كباراً ، فان ابن سعود كان ما يزال يبدو فتياً ، ولم يفقد سوى قليل من اثر المرض .

ولم يكن ابن سعود يحب البروتوكولات الرسمية وكان لايحب الكلام الاجوف والجدل العقيم . واذا اقتنع بشيء فهو يصدر اوامره المحددة ويتوقع أن تنفذ تلك الاوامر ، وعلى الرغم من ذلك فقد كان يمضى الساعات الطويلةفى حرارة الجو وهو يقنع رجاله بسلامة موقفه وصحة قراراته بدلاً من أن يترك الناس ينفذونها دون اقتناع بذلك ، ولم يكن ابن سعود يسمح بعصيان اوامره ، فقد امر ذات مرة جماعة من أنصاره للذهاب إلى ينبع للمشاركة فى الحصار ، ولكنهم طلبوا من ابن سعود أن يبقوا فى مكة ، ولم يوافق ابن سعود على ذلك فأخذوا يتذمرون ، فجرد ابن سعود سيف أحد حراسه وتوعد أى رجل منهم يعصى امره ولا يتوجه على الفور فما كان من الرجال الا أن انصرفوا لتنفيذ اوامره لانهم علموا أنه جادفى انذاره وفى مرة أخرى ، وحين كان يتفاوض مع المستر كلايتون فى « بحرة » سار عدد من الانجليزفى ارض كان يصلى فيها بعض الاعراب . ولم يستحب الاعراب ذلك وقال احد شيوخهم أن

الانجليز دنسوا تلك الارض . فأرسل ابن سعود الى ذلك الشيخ وقال له : باى حق تتحدث الى ضيوفى بتلك اللهجة ؟ وبأى حق تستأثر بالارض لنفسك؟ الارض كلها لله ، ويمكنك الصلاة فى اى مكان ، وامر بجلد الرجل ليكون مثالاً لغيره ، وعلى الرغم من أن كل الامور كانت ترجع اليه ، فإن اتساع المملكة استلزم تعيين بعض الوزراء والمسئولين ليتولوا بعض الحمل عنه ، ولم يكن فى الجزيرة كثير من أولئك الرجال فى ذلك الوقت . وكان ابن سعود يعين كل من يراه مناسباً طالما كان عربياً ومسلماً . وكان عبد الله الفضل رئيس المجلس التنفيذى فى جدة تاجراً ، وكان عبد الله السلمان وزير المالية مواطناً من عنيزة فى نجد . وكان حافظ وهبه مستشار ابن سعود لسنوات عديدة مصرياً ، وكان يوسف ياسين رئيس الديوان وسكرتيره الخاص من اللاذقية فى شمال سورية وكان فؤاد حمزة الذى نظم وزارة الخارجية درزياً من لبنان . وكان كثير من موظفيه تجاراً ومدرسين من بلاد كثيرة من بينها العراق وتركيا .

وكان يعتمد ايضاً على ابنائه وبصفة خاصة سعود وفيصل ، وقد أصبح سعود بعد وفاة تركى وليا للعهد . وقد أظهر سعود مواهب قتالية وادارية . وكان يشبه ابن سعود فى البنيان ، والشجاعة ، ولكنه كان يميل الى المحافظة والهدوء . وكان قد قاد جناحاً من الجيش فى حصار حائل ، وقاد كثيراً من الحملات بعد ذلك ، ويحكم نيابة عن والده حين غيابه من الرياض . وكانت القبائل تحترمه لأنه كان كريما ، ورجلاً أصيلاً من رجال نجد ، وكان يعرف كيف يتعامل مع رجال القبائل ، وكان فى نفس الوقت رجلاً متدينا .





الفصل الثانى والسبعون

لقد أصبح الآن ابن سعود يحكم الحجاز ونجداً ، وبعد سنوات طويلة من المشاحنات والاتهامات المتبادلة ، التى سببها محافظة النجديين بسبب وجودهم فى الصحراء الداخلية ، وانفتاح الحجازيين بسبب اتصالهم بالعالم الخارجي . فقد أصبحوا جميعاً تحت سلطة ابن سعود الذى استطاع بذكاء بالغ أن ينشىء وزارة خارجيته فى مكة المكرمة بينما جعل القناصل الاجانب يعملون من خلال وجودهم فى مدينة جدة . وكانت الظروف الجغرافية تجعل مكة وجدة اكثر ملاءمة فى ذلك الوقت لإمكان الاتصال بالاجانب فى جدة وكان ذلك امراً غير متيسر فى الرياض . ولم يكن ابن سعود يسمح بدخول الافكار الاجنبية فى المسائل التى تتعارض مع القرآن الكريم ، وكان هو الحكم فى كل رأى يسمح به ، وكان ابن سعود يقول : « هنالك بعض الخصائص الاساسية التى تشكل قوة شعبى ، فاذا دخلت آراء جديدة فسوف أقوم بتمحيصها وسوف أحكم باذن الله إن كان فى هذه الآراء شىء يضر بقومى أم لا » .

وكان يريد أن يبقى أهل نجد بعيداً عن التاثيرات الاجنبية حتى لاتتأثر صلابتهم ، ولأن تلك هى رغبتهم وهو أمر فى صالحهم . وكان فى نفس الوقت يريد أن يستخدم المخترعات الحديثة التى يقتنع ضميره بأنها لاتتعارض مع الدين .

وقال ذات مرة لأحد زواره:« حكمى كله يقوم على شريعة القرآن ، وسنة الرسول ﷺ ، ولا يرفض هذان المصدران التطور ، ولا يرفضان استخدام الآلات أو الراديو أو التقدم بصفة عامة » ، لقد كان ابن سعود يرى أن الامل الوحيد من أجل أن تقف الدولة الاسلامية على ارجلها من جديد هو أن تاخذ بأسباب التقدم التقنى . وقال ابن سعود في أحد خطبه : « المسلمون يستيقظون الآن من نومهم العميق ، ويجب عليهم أن يمسكوا بسلاحين ، الاول هو التقوى والطاعة والتواضع والانصياع لأوامر الله سبحانه وتعالى ، والثانى هو الاخذ باسباب التقدم الحديث مثل الطائرات والسيارات ونحوها .

ولكن ابن سعود كان يعلم فى ذات الوقت أن أهل نجد سوف يقاومون ادخال هذه المنتجات العصرية ، لذلك فقد اعتاد أن يطلب من العلماء رايهم ونصائحهم فى هذا المجال . وقد سأل رأى العلماء فيما يختص بالتلغراف والراديو والسيارات

والطائرات . وكان يسير فى حذر فى مثل هذه الامور ، وكان يقضى شهوراً وهو يقنع العلماء أو يستميلهم الى خططه . ولم ينس ابن سعود أن العلماء كان عندهم الكثير ليقولوه ، وكان ابن سعود يحتاج الى العلماء لأنه كان يعلم انه من الصعوبة قيادة عرب الصحراء دون رغباتهم . وهم يندفعون وراء كل شىء يؤيده القرآن الكريم أو العلماء ، لذلك فقد كان ابن سعود يستشير العلماء فى كل شىء يتعلق بالدين . وكان رأيهم يشمل الحجاز ونجداً على السواء . وكان العلماء يفتون فى كل شىء وذات مرة انتقد أحد العلماء ابن مسعود لأنه اطال شاربه ، ولم يكن الرسول ﷺ يفعل ذلك ، وقبل ذلك منه وكان ذلك على مرأى من الناس ، فما كان من ابن سعود الا أن أرسل الى الحالق وطلب منه تخفيف شاربه بما يتفق والسنة .

وكان ابن سعود يستشير العلماء فى المسائل التى تتعلق بالحكم أيضاً . وكان يستقبل العلماء فى الرياض كل خميس حين يكون بها ، وقبل أن يدخل التلغراف ، والراديو والتليفون سأل العلماء رايهم فى ذلك . وكان ابن سعود يستشير العلماء ايضاً حين ينشأ خلاف بينه وبين رجال القبائل ، ولكنه بالطبع كان يضع حدودا فى المسائل التى تتعلق بسياسة الدولة ، اذ كانت الكلمة الأخيرة هى دائما له . ولقد استطاع ابن سعود بتعيين ابنه فيصل كممثله فى الحجاز أن يؤمن سلطته على نجد والحجاز على السواء .

وبمجرد أن بدأ ابن سعود يدعم سلطته ارسل الروس ممثلهم واخطروه باعترافهم به ملكاً على الحجاز ، وتبع ذلك الانجليز الذين ارسلوا السير جلبرت كلايتون ليتعامل معه كملك على الحجاز ونجد وتوابعهما ، وجاء بعد ذلك الفرنسيون ، والألمان ، والهولنديون ، وقد تأخر المصريون لان ابن سعود كان يطالب بدية الذين قتلوا فى حادثة المحمل . ويمكن القول أن ابن سعود كان يحكم معظم الجزيرة العربية من البحر الاحمر والى الخليج العربى ومن الربع الخالى الى حدود سوريا وأصبح بالتالى خادم الحرمين الشريفين وسيد الجزيرة العربية .



الجزء الثانى عشر



الفصل الثالث والسبعون

لقد بدأت بعض الأخطار الملحة تهدد ابن سعود وهو فى قمة نجاحه وقد بدأت
ه الاخطار فى اواسط الجزيرة العربية وهو مشغول هناك بقضايا الحجاز ، فقد
د الدويش الى موطنه من المدينة المنورة الى عرطوية ، وكان مصمما على أن
قم للإساءات التى لحقت به من وجهة نظره ووجد الدويش كثيرا من المتعاطفين
به خاصة أن بعض المطير كانوا يريدون أن يسمح لهم بالاغارة على المدينة ،
رجدها حثلين شيخ العجمان فرصة يرد فيها على هزائمه السابقة . وكان بجاد شيخ
عتيبة يريد يداً قوية على الحجاز . وكان الدويش يرتبط بالعجمان والعتيبة معا ، اذ
انت أمه من العجمان وزوجته من العتيبة . ودعا الدويش كلا من الشيخ حثلين
الشيخ بجاد الى عرطوية لتدارس الأمر . ومن هناك ارسلوا خطاباً الى ابن سعود
ذى كان في مكة يحتجون فيه على انه لايتشدد كما كان متوقعا منه ، وأثاروا بعض
لمسائل المتعلقة بالتباكو والضرائب ، وادخال التلغراف والتليفون والراديو ونحوها .
طالبوه بأن يحطم سائر الامور التى اوجدها هذا العصر ، وأن يعلن الجهاد على
لانجليز الذين استخدموا فيصلاً فى ارسال المغيرين على حدود نجد الشمالية .

وعاد ابن سعود مسرعاً الى الرياض لانه كان يعلم خطورة الموقف فى نجد ،
وكان يعلم انه يستطيع أن يصل الى تفاهم مع حثلين وكان يعرف أنه على الرغم من
عناد بجاد فهو رجل متدين ويمكن التأثير عليه بواسطة العلماء . واما الدويش فكان
ابن سعود يعرف انه عنيد ومتشدد فى امور الدين ولكن ليس لديه اخلاص رفيقيه ،
وكان ابن سعود يعرف أن الدويش رجل طموح ولا يمكن لأحد أن يقنعه بضبط النفس
بالاضافة الى انه كان مدفوعاً بموقفه الشخصى من ابن سعود . وكان ابن سعود
يعرف أن الدويش هو الرأس المدبر لكل تلك الامور والمشاكل ، لذلك فقد رأى أن
يعزل الدويش عن القبائل . وهكذا أرسل خطاباً ليناً فى الرد على القادة الثلاثة وطلب
منهم عرض الامر برمته على هيئة العلماء . ولم يكن الدويش يريد مثل ذلك
الاجتماع ، لذلك دعا حثلين وبجاد مرة أخرى الى عرطوية وطلب منهما مقاومة ذلك
الاقتراح وأخطرهما فى ذلك الاجتماع أن ابن سعود لم يكن راغباً فى الرد على
الحملات على شمال نجد كما انه وافق على مد خط حديدى بين بغداد ومكة المكرمة ،
وذلك وضع يهدد نجداً بأسرها .

وعلم ابن سعود أن الدويش سيبذل كل الوسائل لتصوير الوضع على غير حقيقته ، لذلك فقد دعاه لأن يمثل امام العلماء . وجاء الدويش ولم يكن قد استعد للمعارضة العلنية ، وكان قد أحضر معه الى الرياض ثلاثمئة من مقاتليه . وقد استقبله ابن سعود فى فناء القصر ، وكان رجال الدويش يضعون ايديهم على اسلحتهم فى وضع الاستعداد ، وواجههم ابن سعود بمفرده .

وكان الدويش رجلاً صغيراً فى الحجم ونحيفاً ، ولكنه خشن كالجلد وله وجه غليظ . وهو بطبعه متقلب المزاج وعنيف ، ولكنه كان فى نفس الوقت يتصنع التواضع . وكان اذا اظهر التواضع بدا متكلفاً ، خاصة وهو يراقب خصمه بين الفينة والاخرى ليرى اثر التواضع عليه ، ولأجل هذا السلوك كان كثير من الناس لا يثقون به .

كان الدويش خائفاً من ابن سعود ، ولكنه لم يرد أن يظهر خوفه امام رجاله ، لذلك فقد بدأ يخشن في كلامه . وكان يتحدث بصوت مرتفع وغاضب ، وردد نفس الاتهامات السابقة وطالب ابن سعود بأن يعلن الجهاد وأن يحطم محطات الجمارك وسائر مخترعات العصر الحديث . وظل ابن سعود هادئاً ، وجلس وهو يضع يديه فوق ركبتيه يستمع الى الدويش بامعان . بينما كان رجال المطير يجلسون فى قلق يتحدثون الى بعضهم بعضاً . وكانت حركة بسيطة ربما اثارت الموقف بأسره وفجأة بدأ صوت الدويش ينخفض ويعتريه الهدوء ، واصبح ابن سعود سيد الموقف .

ولقد استدعى ابن سعود العلماء وطرح قضية الدويش أمامهم . وقرر العلماء الغاء الضرائب والتشديد فى الحجاز ولم يكن العلماءمتأكدين بشأن الراديو والتليفون ولكنهم قالوا أن الافضل الا يستعمل هذه الاشياء دون أن يكون ذلك هو رأى الدين . وأما في شأن الجهاد فقد ترك الامر لابن سعود بصفته اماما ليقدر الامر بنفسه . وقد وافق ابن سعود على الفور على جميع القرارات . وأمر بأن تشدد القوانين في الحجاز ، وأن يتم تفكيك محطة اللاسلكى التى تقام خارج المدينة ، ولم يوافق على اعلان الجهاد لأسباب يقدرها هو وأغضب ذلك الدويش الذى طالب بجادا وحثلين أن يشاركاه في اعلان الجهاد .

ولكن ابن سعود شيئاً فشيئاً استطاع أن يضع الدويش في موقف حرج ، اذ أظهر أنه رفض أن يقف امام العلماء . وحين لم يجد مفراً من الوقوف أمامهم رفض أن ينصاع لقرارهم . ولقد ارسل العلماء على الفور الى سائر الوعاظ كى يحذروا الناس من الدويش الذى لم يكن يعمل من أجل إعلاء كلمة الله ، بل كان يعمل من أجل إعلاء مجده الشخصى . وبدأت كثير من القبائل تشك فى نوايا الدويش وسحبت تأييدها منه ، وحتى قبائل المطير نفسها انقسمت كلمتها . بعض يؤيد الدويش وبعض يعارضه .



الفصل الرابع والسبعون

بينما كان ابن سعود يدير ويخطط من أجل سحب البساط من تحت أرجل الدويش ، جاءت مشكلة حول الحدود حيث تسكن قبائل المطير . لقد اتفق ابن سعود والمستر كوكس في ميناء العقير على وجود منطقة محايده على الحدود ترعى فيها القبائل كما كان شأنها عبر التاريخ ، ولا تقام أية تحصينات حول مصادر المياه أو الكلأ ، وفى نهاية عام ١٩٢٩ قام الانجليز بارسال جماعة من العمال تحرسهم فرقة من الهجانة لانشاء مركز بوليس فى « بوسية » التى تقع فى المنطقة المحايدة وتعتبر مركز المجموعة من الآبار .

وكان المطير يرعون فى تلك المنطقة تحت قيادة احد ابناء الدويش ، وكانوا يتحرقون لقتال العمال الذين شعروا انهم يهددون حقوقهم التاريخية فى المرعى . وبالفعل قاموا بمهاجمة العمال والجنود وقتلوا عدداً منهم . وانتهز الانجليز الفرصة وقاموا بارسال بعض الطائرات قصفت المطير داخل الحدود النجدية ، وأمسك الدويش بالفرصة وارسل مجموعة من رجاله للاغارة على الكويت ، كما هاجم منطقة الحدود بينه وبين العراق وسلبها مرات عدة ، وفى كل مرة كان الانجليز يطاردونه بالطائرات ويقصفون القرى . وتجاهل الدويش ابن سعود وارسل الى سائر القبائل يطلب مساعدتهم لمواجهة الانجليز . وانتهز الدويش فرصة أخرى وهاجم تحت عاصفة ممطرة « جاريشانه » بالقرب من حدود البصرة ، وكان تحت قيادته حوالى ألفى مقاتل قاموا بتدمير القرى وقطع النخيل وقتل عدد من الناس ، وأخذوا ماشيتهم وابقارهم ، وجاء الانجليز خلفه بالطائرات يبحثون عنه فى العاصفة الترابية ، والسراب اللذين أقاما ساتراً وسط الرمال لتخبئة المطير . وعلى الرغم من ذلك فقد قام الانجليز بايجادهم مرتين وقصفوهم كما قصفوا القرى في داخل نجد وحتى عرطوية . ولم يخف ذلك الدويش الذى ارسل الى الكويت يهدد بأنه سيهاجم المدينة أن لم يفتح الميناء له بحرية وعلى الفور قام الكويتيون باصلاح سور مدينتهم وارسلوا الى الانجليز يطلبون المساعدة وأرسل الانجليز سفينة الى الميناء . وهكذا روع الدويش سائر القبائل التى على الحدود وقامت قبيلة عنيزة بالتهديد بأنها ستقدم ولاءها الى نجد اذا لم تجد الحماية الكافية ، كما توقف الرعاة عن السير جنوباً من اجل المرعى . وبعد أن توقف المطير ، بدأ العجمان فى التحرك ، وكان بجاد قد بدأ الاستعداد بحوالى ثلاثة آلاف مقاتل من بنى عتيبة .



الفصل الخامس والسبعون

كان ابن سعود فى الرياض عندما جاؤوا اليه بأخبار « بوسية » والغارات عليها ، ورأى أنه ما لم يتصرف بسرعة فإن نجداً كلها سوف تحمل السلاح وتكون خارجة عن طوعه ، وكان يرى ضرورة ايقاف القبائل قبل أن تدفعه الى حرب غير متكافئة مع الانجليز ، وهذا هو الوضع الذى سيرضى الدويش وأصدقاءه ، وهو الوضع الذى سيعود بالضرر على نجد كلها ، وكان التأخر يعنى أن يعود القطر الى الفوضى من جديد ، وأن يمارس المغيرون عاداتهم القديمة ، لذلك فقد أرسل ابن سعود رسالة احتجاج عاجلة الى الانجليز في بغداد وطالب بعقد مؤتمر عاجل ، وارسل عن طريق بريد الجمال المستعجل رسائل الى كل القبائل يطلب اليهم أن يتحدوا خلفه . وكان بجاد على وشك أن يتحرك ، وقد استطاع ابن سعود بصعوبة بالغة أن يثنيه عن ذلك حتى يناقش الامر مع الانجليز ، وقد وافق بجاد ، وتبعته بعض القبائل الأخرى ، وفعل الدويش نفس الشيء متحسباً أن تخذله القبائل ، فيصبح معزولاً امام ابن سعود ، وكان يريد أن يظهر بذلك حسن نواياه ، وقد ذهب الى حد أن أمر بارجاع بعض الماشية التى غنموها ، وارسل الانجليز السير جلبرت كلايتون الى جده لمقابلة ابن سعود . وقد قدم كلايتون احتجاجاً ضد غارات الدويش وابدى ابن سعود أسفه وأخبر كلايتون أنه لو ترك الامر له فسوف يتخذ موقفاً حاسماً من الدويش ، ولكنه فى نفس الوقت احتج احتجاجاً شديداً على الغارات التى تمت من الجانب الآخر من الحدود ، كما احتج على اقامة نقطة البوليس فى (بوسية) وضرب بلاده بالطائرات على الرغم من انها فى حالة سلام مع الانجليز ، وحذر ابن سعود المستر كلايتون بأنه ليس من حق الانجليز أخذ القانون فى يدهم ، واذا تكرر هذا الأمر فإنه لن يكون فى وضع يمكنه من السيطرة على القبائل وهى تحاول الدفاع عن نفسها .. وكانت الطائرات فى ذلك الوقت تلقى المنشورات التى تطالب قبائل المطير بالانسحاب مسافة اربعة ايام من الحدود . وكان ذلك غريباً لان رجال القبائل ماكانوا يقرأون المنشورات ..

وعلى مدى الربيع وبداية الصيف عام ١٩٢٨ م ظل ابن سعود والمستر كلايتون يتباحثان دون أن يصلا الى اتفاق إذ أصر الانجليز على اقامة نقطة البوليس على الجانب الأخر من الحدود مع نجد . وقرر ابن سعود أن يسافر لأداء فريضة الحج فى مكة المكرمة ، ولكى يوضح للانجليز أن الموقف لم يكن خطيراً ، ولكن

الموقف كان خطيراً ، فقد فشل المؤتمر ، واصبح الانجليز استفزازيين ويتهددون و اخذت الطائرات تحلق من جديد فوق نجد ، ومرة أخرى بدأت القبائل تحتج وتريد السير لمقاومة الخطر الخارجي وكان بجاد قد استعد للسير ، وكان حيثلين ينتظر كلمة الدويش وكان الدويش يلعب واحداً من ادواره القديمة ، فقد سارت رسله تستحث القبائل ، وبدأ العلماء يتحدثون عن الجهاد .

ولقد توفي عبد الرحمن ودفن في الرياض ، وكان عبد الرحمن هو الرجل العاقل وصمام الأمان بالنسبة للعلماء وغيرهم . كان الجميع يستمعون اليه حين لايستمعون لأحد غيره . وهكذا فقد ابن سعود الرجل الذى كان دائماً يساعده على التريث وكانت في الحجاز ايضا بعض المشاكل ، اذ اثارت قبائل حرب بعض المتاعب فيما يختص بشئون الحج . وكانوا قد قتلوا بعض الحجاج وعاقبهم ابن سعود على ذلك . وكان الدويش قد أرسل اليهم رسله بشأن الجهاد المقدس .

وفي الشمال كان عبد الله يرسل المال لقبائل « الرولة » وكانت قبائل « بلي » تحت قيادة « رفادة » قد خرجت واغارت على الوجه جنوب العقبة ، وقد وعدهم عبد الله بالمساعدة اذا دعت الحاجة ، وكان كثير من الناس في الحجاز يحنون لايام الفوضى ، ووقف ابن سعود في وجه سائر تلك التحركات موقفاً صارماً ، ومنع التجمعات السياسية كما ابعد مثيري الفتن خارج البلاد .

وكان امام اليمن قد عقد اتفاقية مع الايطاليين الذين جاؤوا يستكشفون امكانات البحر الاحمر . وكانوا يأملون أن تتعاون معهم اليمن في انشاء امبراطورية لهم ، ولم يكن ابن سعود يرغب في أن يفتح جبهات جديدة اذ كانت معركته هناك في نجد ، لذلك فقد ارسل الى كل القبائل كي ترسل ممثلين لها لحضور اجتماع موسع يعقد في الرياض ..





الفصل السادس والسبعون

عقد الاجتماع الكبير فى أواخر خريف عام ١٩٢٨ م فى فناء القصر بالرياض وقد حضره العلماء والوعاظ والامراء وكثير من الاعيان والشيوخ بالاضافة الى الجنود وعدد كبير من رجال القرى والمدن ، جاؤوا بالآلاف وقد جلس ابن سعود على الاعتاب بينما جلس الناس متربعين امامه ، وقد ملأوا ساحة القصر من الحائط الى الحائط ، وامتدت اعدادهم خارج القصر ، وعلم ابن سعود أنه لابد وأن يعاملهم بعناية اذ جاؤوا بكثير من الشكاوى والنقد ، وكان بعضهم بطبعه متوجهاً نحو المعارضة وكان ذلك الاجتماع اختباراً لقدراته الخاصة وشعبيته ، ولم يحضر الاجتماع بجاد وحيثلين والدويش ، وقد علم كل فرد أن ذلك نوع من التحدى ، وكان الجميع يريدون أن يروا كيف يتصرف ابن سعود خاصة وأن الذين كانوا امامه هم اهل نجد وأنصاره .

وكان من أقوال ابن سعود المأثورة « هناك أمر لا أحتاج فيه إلى نصيحة أحد ، لأننى أعرف فيه أكثر من أي شخص آخر ، وهو كيفية التعامل مع أهل البادية » .

وقد وضح الآن كيف يتعامل مع الناس الذين أمامه سواء بصورتهم الجماعية أو الفردية ، وبدأ ابن سعود بتحيتهم على أنهم شعبه واخوانه ، ثم ركز على مصدر زهوهم وحماسهم ، وأخبرهم انهم يشكلون شعبه المجتمع الذى يملك الحق فى أن ينتقده ، ثم بعد ذلك طلب منهم أن يقولوا آراءهم ويتخذوا قراراتهم وكان ابن سعود يعلم انه يناقش شعبه ويجادلهم ويقومون هم باطاعته دون تردد . وقد قال ابن سعود فى بدء حديثه : « الملك لله وحده . تذكرون اننى حين جئت اليكم كنتم مقسمين وتقتلون وتسلبون بعضكم بعضاً وكان الجميع يتامرون عليكم سواء كانوا عرباً أم آجانب ، وقد بذروا الشقاق بينكم حتى لاتتوحدوا ولا يكون لكم شأن وتذهب ريحكم ، وحين جئت اليكم كنت ضعيفاً ، ولم تكن لى قوة سوى الاستعانة بالله ، اذ لم يكن معى اكثر من أربعين رجلاً كما تعلمون ، وعلى الرغم من ذلك فقد وحدتكم وجعلتكم أمة عظيمة » .

ثم قـــال :

« لم أدعكم هنا لاننى أخاف احداً من الناس ، فقد وقفت فى الماضى القريب وحيداً ولا سند لى غير الله سبحانه وتعالى ، ولم اخف من جيوش اعدائى لأن الله

قد منحنى النصر لقد دعوتكم هنا لأننى أخاف الله ، وخوفى من الله هو الذى جعلنى اتخذ هذه الخطوة حتى لا أتهم بالغرور أو اقع في الخطأ » .

ولقد سمعت أن بعضكم له ظلامات ضدى أو ضد امرائى وممثلي ، فمن كانت عنده ظلامة فليتقدم ويعلن عنها حتي اتمكن من ردها واقف خالصاً امام وجه الله . واذا كان لأحدكم شيء ضدى فعليكم أن تقرروا الآن هل تريدون أن اقودكم أم تريدون رجلاً غيرى ، ولكن اعلموا اننى لن اسلم السلطة لأى رجل يحاول أن يتحدانى أو ينازعنى فيها ، ولكنى سأسلمها لكم بطوع اختيارى لأننى لا اود أن يقال عنى أننى أقود أناسا لايريدون قيادتى .

وهنا أمامكم أعضاء اسرتى ، ويمكنكم أن تختاروا قائداً من بينهم ، وسوف أسانده باخلاص واعطيكم عهد الله أننى لن اعاقب أيا منكم اذا تحدث ضدى سواء الآن أم في المستقبل . وانتظر ابن سعود رد فعل الجمهور ، وبعد قليل صاحوا بصوت واحد .

- لانريد أحداً غيرك يقودنا . لقد اتفقنا جميعاً على أن تكون قائدنا .

ثم قال ابن سعود :

« واذا كان لدى أى منكم شكوى ضدى ، أو نقد أو أى شيء آخر فإن عليه أن يتقدم واعاهدكم عهد الله الا اعاقب أحداً يقول رأيه . واذا كان النقد معقولاً فانني اعاهدكم أن انفذه فى الحال ، تكلموا وقولوا ما فى قلوبكم . وانتم أيها العلماء تكلموا كما ستتكلمون يوم المشهد العظيم . تكلموا دون خوف من أحد كبر أم صغر » .

وبدأ الممثلون يتكلمون بشجاعة ودون خوف . وقد ناقش ابن سعود كل الشكاوى قديمها وحديثها . وقد جعلهم ابن سعود يتحدثون فى مسالة المخترعات الحديثة والعلاقة مع الانجليز . ونحوها ولكنه رفض أن يسمح لهم ، أن يتكلموا فى الخلافات القبلية أو الشخصية ، لأن تلك يقرر فيها من واقع سلطته كحاكم فى الوقت المناسب ، وكان الاجتماع مقرراً لبحث العلاقة بينه وبين محكوميه ، استمرت المداولات عدة ايام ، وكان ابن سعود حاضراً يجيب على كل الناس فى منتهى الصبر يوضح الأسباب وراء مواقفه واذا كان هنالك شيء موضع خلاف فكان يطلب من العلماء أن يبحثوه فى القرآن الكريم والسنة ، وخارج جلسات المؤتمر اكرم ابن سعود ضيوفه وأعطاهم كثيراً من الهدايا كعادته ولم يدخر لحظة واحدة لم يقم فيها بمقابلة الناس فرادى أو مجتمعين متخذاً منهم اصدقاء له . وشيئاً فشيئاً استطاع ابن سعود أن يزيل الشكوك التى سيطرت على عقول بعض الناس خلال السنوات الاخيرة ، وحين وصل الاجتماع الى نهايته كانت الغالبية العظمى قد اقتنعت بموقف ابن سعود وعادوا الى منازلهم وهم من رجاله المخلصين .



الفصل السابع والسبعون

وبمجرد أن علم الدويش من مساعديه ماجرى فى الاجتماع أدرك ان لابد له من التصرف السريع وذلك قبل أن يتمكن ابن سعود من عزله وضربه وقد أنذر بجاداً وحثيلين بذلك ، وفى بداية عام ١٩٢٩ استقر رأيهم جميعا على أن الوقت قد حان ، وقد انضم اليهم ابن « معشور » شيخ « الروله » .

لقد بدأ حثيلين يهاجم فى الحدود العراقية ، ضارباً قرى نجد التى فى طريقه ، وأما الدويش وبجاد ومعشور فقد جمعوا خمسة آلاف مقاتل وساروا بهم شمالاً وطالبوا قرى نجد أن تدفع الاتاوات لهم . كما قاموا بالاغارة على القوافل التى كانت تسير على الطريق التجارى بين حائل والخليج العربى . وبدأ ابن سعود يواجه تحدياً حقيقياً اذ كان ما قام به هؤلاء يتناقض مع أوامره وأصبح تهديداً لسلطته ، ولذلك لم يكن فى وسعه أن يتجاهله ، وفى الحال أرسل ابن سعود رسائله يطلب الاستعداد لشن هجوم قوى ، فقد كان يدرك أن الجميع سوف يفسرون تردده على انه نوع من الضعف ، وقام ابن سعود بتنحية بجاد والدويش وحثيلين من مناصبهم واعتبرهم متمردين على سلطته وقد أرسل حافظ وهبه لبحث أمر هجماتهم مع الانجليز والتأكيد على أن الكويت والاردن والعراق لن يقدم مساعدات لهؤلاء لأن ذلك سوف يجعل الصحراء ترتد الى عهدها القديم ، وطلب ابن سعود من جلوى أن يجمع الرجال ويهاجم العجمان من المؤخرة .

وجاء رجال ابن سعود يمتلئون بالحماس . وكانوا يرون أن معاملته بالرفق للدويش قد طالت ولم يكن الدويش وحيثلين وبجاد يتحكمون فى قبائل العجمان والمطير والعتيبة بصورة كاملة ذلك أن الغالبية العظمى من هذه القبائل كانت تؤيد ابن سعود وكان المعتدلون دائما هم فى صف ابن سعود . وبمجرد أن جمع ابن سعود خمسة آلاف مقاتل قسم جيشه الى نصفين . جعل نصفاً بقيادة أخيه والنصف الآخر بقيادة ابنه سعود وسار خارج الرياض وعسكر قبالة بريدة ، وقد ظل الجانبان يتناوران على مدى اسابيع وأخيرا دحر ابن سعود الدويش وابعده عن الآبار والقرى بحيث أصبح يعانى عجزاً فى الطعام والماء وبدأ رجاله يهجرونه ، واخيراً فى نهاية شهر مارس قام ابن سعود بمحاصرته فى قرية « سبيله » بالقرب من عرطوية حيث كان الدويش يعسكر . وقد أرسل له ابن سعود كى يستسلم ويترك الأمر كله للعلماء

كى يقررون فيه على أن يقف الدويش وحيثلين وبجاد امام المحاكمة بتهمة الخيانة . ورفض الدويش . وظل ابن سعود يكرر طلبه والدويش يرفض وذات فجر أمر ابن سعود جنوده بالهجوم ، دون أن يطلقوا النار وباستعمال السيوف وحدها ، اخترق ابن سعود دفاعات الدويش ، وقاوم رجال الدويش بضراوة ولكن بعد ساعتين تمت هزيمتهم وجرح الدويش وقتل ابنه الاكبر .

وكان ابن سعود قد قام معسكره فى نخيل يبعد مسافة ساعتين من « سبيلة » وأمر بأن يحضر الدويش وعندما أخطر بأن الدويش قد أحضر خرج على الفور من خيمته وكان الدويش قد وضع فى كومة من الاعشاب ضعيفاً وهو ينزف ، ووقف الى جانبه اعيان عرطوية وزوجاته وابناؤه يبكون . وكان كثير من رجال القرى والبدو يشاهدون . وكان الدويش يتوقع أن يتخذ ابن سعود قراراً عاجلاً باعدامه ، ولم يكن الدويش جبانا على الرغم من كل خياناته لابن سعود ، وظل ابن سعود ينظر اليه فى حزم وغضب ، وفجأة زال غضبه ، واصدر العفو عن الدويش وطلب من رجاله أخذه مرة أخرى الى منزله فى عرطوية ثم أرسل على اثره مدحت شيخ الارض طبيبه الخاص لمعالجته ، ثم عاد مرة أخرى الى خيمته .

ولم يكن العفو عن الدويش مبرراً بحسب افعاله ولكن ابن سعود أقام حسابات سريعة ، فقد علم أن الدويش كان مريضاً لدرجة الموت ولم يكن هنالك داع لقتله ، وقرر ابن سعود أن تصبح قصة عفوه عن الدويش دراما يتناقلها الناس ، ولم يكن بجاد فى « سبيلة » بل كان فى الشمال يحارب مع رجاله . وكان بجاد هو الخطر الحقيقى ، فقد كان أميناً مع أهدافه وكان يقاتل من أجل قضيته وليس من أجل أطماعه الشخصية ، ولذلك قد كان رجاله يؤمنون به . وقرر ابن سعود أنه دون السيطرة على بجاد فإنه لايستطيع أن يطمئن الى أن التمرد قد انتهى ، واذا سمع بجاد أن ابن سعود عامل الدويش برفق فإن ذلك قد يكون حافزا له للتسليم ، وكانت تقديرات ابن سعود صحيحة ، ووقع بجاد فى المصيدة إذ قام بالتسليم وتمت محاكمته وامر ابن سعود بسجنه مدى الحياة .

ولم يشعر ابن سعود بحاجته للتساهل مع بقية المتمردين . فقد أرسل قوة طردت « رفاده » خارج الوجه كما أرسل قوة أخرى للتعامل مع العجمان والعتيبة والمطير . وقامت هذه القوة بهزيمة المتمردين وتدميرهم ، وبينما اختبأ معشور فإن حثيلين التجأ عند الشيخ أحمد حاكم الكويت . وبعد أن تأكد ابن سعود من إخماد التمرد توجه إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج .



الفصل الثامن والسبعون

لم يكن التمرد قد انتهى ، اذ كان ما يزال قائما تحت السطح فلم يكن الخصوم قد شعروا بالخوف ، ولم يمت الدويش بعد ، فقد كان عنيداً فى جسده وعزيمته ، وقد بدأ يتماثل للشفاء من جراحه ولم يكن نادماً على ما فعل بل ظل يمارس عمله القديم فى الوقت الذى كان فيه ابن سعود فى مكة المكرمة ، وقد وجد المطير والعجمان مستعدين للمتاعب وأرسل الى العتيبة لتخليص بجاد من السجن وطلب من معشور أن يحضر « الروله » ونشر اشاعة بأن فيصل والانجليز كانوا على وشك غزو نجد . ولما سمع جلوى أن حثيلين قد عاد من جديد من الكويت وأنه قد بدأ يحرك العجمان أرسل ولده فهداً لمراقبتهم . ولم يكن فهد متمرساً ، فقد دعا حثيلين وأمنه ، ولما حضر حثيلين ومعه خمسة رجال شك فهد فيهم ، وقام بقتلهم جميعاً ، وادى هذا الوضع الى قيام العجمان بقتل فهد ، ولما علم جلوى بمقتل ابنه شعر بحزن عميق أسلمه للمرض وخفت قبضته ووجدتها قبائل الاحساء فرصة لمعاودة سلوكها القديم ، وقام الدويش والمطير بالتعاون مع العجمان .

وفى الحال ارسل ابن سعود ولده سعود ليحل محل جلوى . وكان عليه أن يجمع رجالاً ويستعد للموقف ومرة أخرى أرسل ابن سعود حافظ وهبه لإثناء الانجليز عن ارسال مساعدات للمتمردين عبر العراق والكويت . واصبح التمرد صعباً لان القيادة لم تكن محددة ومرة اخرى قامت قرى نجد والمخلصون بالوقوف مع ابن سعود الذى بدأ يحارب على أسس جديدة ، اذ بدأ يستخدم الخياله والمشاة وراكبى الجمال على طرق حرب الصحراء التقليدية ، بينما جمع افضل مقاتليه فى السيارات واخذ يحركهم بسرعة . وكما هو معهود فقد كان القتال يدور حول الآبار والقرى وقد اصبح الآن ابن سعود قادراً على الحركة بسرعة وامتلاك وسائل متطورة للمعلومات ومكنه ذلك من الهجوم على الدويش وغيره بينما كانوا يعتقدون أنهم فى مأمن وعلى بعد خمسين ميلاً من قوات ابن سعود . ولم تكن قرية تعلن وقوفها ضد ابن سعود حتى تجده قد احاط بها . ولم يترك ابن سعود بدوياً يسير فى الصحراء بغير هدف حتى لا يقدم معونة اخبارية للمتمردين . وبدأ رجال الدويش يفقدون روحهم المعنوية لانهم لم يكونوا متعودين على هذا الاسلوب المتطور فى القتال وبدأوا يهجرونه ،وانتهزت القبائل التى على الحدود العراقية الفرصة وبدأت تنتقم من الدويش ، وترك العِجْمان الميدان

وعادوا إلى بلادهم ولم يتبق سوى العتيبة الذين استطاع ابن سعود أن يتعامل معهم قسماً قسماً .

لقد ظل الدويش يحارب بعناد ، وكان يعلم أن ابن سعود لن يرحمه مرة أخرى وقد جرح مرتين وقتل ابن آخر له بالاضافة الى سبعمئة من افضل مقاتليه وبمجرد أن بدأ مقاتلوه يقلون أخذ ابن سعود يطارده من مكان الى آخر واستطاع الدويش أن يهرب مع معشور الى الحدود العراقية . وقد توقفوا جميعاً فى وادى « الباطن » حيث تلتقى حدود نجد والكويت والعراق وهم يعتقدون أنهم فى مأمن من ابن سعود . ولما علم ابن سعود بمكانهم استخدم السيارات وداهمهم وحطم معسكرهم قبل أن يستعدوا له . وتمكن معشور من الهرب الى العراق ومن هناك الى سورية حيث أعطاه الفرنسيون الحماية . وهرب الدويش الى الكويت حيث استسلم لفرقة انجليزية قامت بتسليمه الى ابن سعود حيث قام بحبسه فى سجن الرياض مع بجاد .

وقام ابن سعود فى هذه المرة بتدمير سائر المتمردين الذين وقعوا فى يده ، وقال لهم : « لا تفكروا مطلقا اننا نعتبركم ذوى قيمة أو اننا بحاجة اليكم . يجب أن تكون طاعتكم لله أولاً ثم لنا ثانياً . وتذكروا انه ليس هنالك بينكم احد الا وقتل ابوه أو اخوه أو ابن عمه ، وذلك بسبب افعالكم . واذا حاولتم أن تعتدوا على حقوق الآخرين فلن تكون قيمتكم أعلى من قيمة التراب ونحن لن نتوانى فى حكم الخارجين على القانون بالسيف وسنظل نفعل ذلك » .

وهكذا انتهى التمرد ، اذ استطاع ابن سعود أن يتعامل مع سائر القادة ، فقد قتل حثيلين ، ووضع بجاد والدويش فى السجن .

وكان معشور قليل الاهمية . وبدون قادة لم يعد للمتمردين شأن ، وتعلم الجميع درساً ، واصبح ابن سعود مرة اخرى هو السيد المطاع .





الفصل التاسع والسبعون

لقد أصبح ابن سعود هو السيد في كل المواقع . وبمرور السنين فقد ازداد وزنه ، وتأثرت عضلاته ونظامه الهضمى وكان السبب في ذلك استخدامه للسيارة بدلا من الخيل والجمال ، ولكن ذلك لم يؤثر على حدة تفكيره وقدرته على اتخاذ القرار ، أو على تنفيذ سياسته ، وكانت قدرته على استقطاب الناس تحت قيادته قوية كما كانت أبدا . وكان خلفه نجاحاته السابقة كلها ومكانته التى تبناها بالكفاح ، وعلى الرغم من أن قرارته ظلت على مدى ثلاثين عاماً هى الحكم ، فهو لم يشعر ابدأ بأنه معصوم من الخطأ ، لذلك كان يستمع الى كل من ينتقده ، سواء كان من الناس العاديين أم من العلماء أم من النصحاء . وكان يسترشد في كل خطواته بالقرآن الكريم ، وقد جعلته السنين بعيد النظر ، واكثر حذرا في اتخاذ القرارات ، واكثر حكمة في تقدير الامور . ولكن ذلك كله لم يؤثر على سرعته في اتخاذ القرارات ، فقد كان حاسما في الرد على اعدائه .

وعلى الرغم من انه لم تكن هنالك بوادر تمرد جديد ضده ، فقد كان يشعر بأن هنالك مشاكل قادمة ، وكان لابد له أن يحضر نفسه لها . فقد كان كثير من الناس في الحجاز وقبائل بلى في الشمال وحرب في الجنوب يحنون لايام السلب والنهب . وقد كانت عائلة حثيلين في المنفى ، وكان العجمان على حالهم وقد هدأ المطير والعتيبة والروله ، ولكن كما هى عادتهم فقد كانوا ينتظرون ، وأما الاحساء فقد كانت خائفة من جلوى .

وكان ابن سعود يعلم أنه يعتمد على اهالى الرياض ونجد ، وما داموا مخلصين له فهو سيكون دائما في موضع القوة ، ولكن أمر هؤلاء لم يكن سهلا ايضا ، فقد كان هؤلاء متشددين ، ويريدون تطهير الحياة الاسلامية ، كانوا يتمنون موت سائر الهراطقة وخاصة اولئك الذين لا يتفقون معهم فى الرأى . وكانوا لايحبون الأجانب وبصفة خاصة الفرنسيين والانجليز والامريكان ، وكانوا يكرهون المخترعات الحديثة ، ولكن على الرغم من ذلك فقد كان يمكن الاعتماد عليهم في أوقات الشدائد .

وكان هنالك أيضا خطر الاغارة ، اذ كان عرب الصحراء يعتبرون الاغارة هى الحياة نفسها . وما كانوا يريدون سلاماً أو أمناً . وكانوا يرون العمل والصبر الذى تتطلبه الزراعة ليس من شأنهم ، خاصة وأن الجزيرة قاحلة وغير خصبة

وتتطلب جهداً كبيراً قبل أن تنتج . ولكن الاغارة غير ذلك ، وهي تجري في دمائهم ، فهم يحنون الى سرية التجمع . والسير ليلاً مع ماشيتهم ، والزحف بين الكثبان الرملية يراقبون الاعداء ، كما يحنون الى الصرخات والركض بالخيل ساعة المعركة . ويحنون الى اطلاق النار واثارة الغبار ، ورؤية بعض الرجال يقتلون والآخرون يجرحون . وكان ابن سعود يعد نفسه لمثل هذه الاخطار . فقد صمم على أن يشتري أفضل أنواع السلاح الذي يمكنه من الضرب بسرعة وفي كل الاتجاهات والمسافات بحيث لايستطيع أحد الهروب منه . ولقد صبر طويلا وعلى مدى ست سنوات على الآراء المتشددة خاصة فيما يختص بمخترعات العصر . ولقد اتخذ قراره الآن بأن هذه المخترعات ضرورية لأمن الدولة وسوف يدخلها دون تأخير أو تردد . وقد بنى ابن سعود خارج مكة والرياض محطة لاسلكي كبيرة وقام بربط الاقاليم مع قصره بالتلغراف والتليفون واللاسلكي حتى يستطيع أن يتحدث مباشرة مع الحكام الاقليميين وما يجري في سائر انحاء البلاد . وقد كانت له أربع سيارات مجهزة بمعدات ماركوني يستخدمها في اسفاره . وقد اشترى هو نفسه بعض السيارات وشجع غيره على اقتنائها ، ولم تكن في القطر في عام ١٩٢٦ سوى حفنة من السيارات ولكن بمجيء عام ١٩٣٠ كان هنالك حوالى ١٥٠٠ سيارة تجري بين مكة وجدة . وكانت هذه السيارات تستخدم عند الضرورة للأغراض العسكرية ، وقد بنى ابن سعود بعض الطرقات في الأماكن الصعبة من القطر .

وقام ابن سعود بتنظيم القوات المسلحة ، وكان لديه اكثر من خمسين الف جندي بالاضافة الى رجال القبائل ، ولكن هؤلاء لم يكن يعتمد عليهم ، وكانوا يستغرقون وقتاً لجمعهم ، ونظراً لأنه كان يحتاج الى قوة ضاربة سريعة فقد أنشأ مجموعة صغيرة زودها بأحسن الاسلحة مثل المدافع والعربات المدرعة حتى ينتقلوا بسرعة لمواجهة المشكلات . ولم يكن ينتهي من تلك المشكلات حتى بدأت قبائل حرب بعض المشكلات فعالجها ابن سعود قبل أن تعلم أنه سار اليها . وقد عاد الى البلاد ابن رفاده شيخ بلى الذي كان يغير في منطقة الوجه ثم هرب الى مصر وتلقى مساعدة من عبد الله في الاردن ، وشرع يقوم باغارات على الحدود ، كما حاول أن يثير قبائل بلى ، وقد علم ابن سعود بالاخبار عن طريق التليفون ، واستطاع خلال بضعة ايام أن يجمع عشرة آلاف حجازي في منطقة الطائف وستة آلاف في نقطة على خط حديد الحجاز واستطاع أن يقود الرجال جميعهم باللاسلكي من الطائف فقطع خط الرجوع على رفادة والقى عليه القبض بالقرب من مدينة « ضنجة » وقتله مع اثنين من ابنائه ولم ينج من جيشه سوى خمسة افراد تمكنوا من الهرب . وسار بعد ذلك ابن سعود شمالاً وقضى على المتمردين حتى الحدود الاردنية .

وقرر حسن ادريس أن يثير المتاعب في الجنوب ، فقرر ضم محمية عسير إليه ، ولكنه قبل أن يتحرك وجد ابن سعود أمامه وجعله يهرب الى جبال اليمن .

ولم تكن تلك العمليات تشبه حروب الصحراء القديمة ، حيث كانت هذه العمليات تتم بسرعة وتستخدم فيها المعدات أكثر من الافراد ، وقد علمت هذه الوسائل القبائل ماذا يتوقعون حين يبدأون التمرد .

واما في العلاقات الخارجية ، فقد أبدى ابن سعود حكمة بالغة وضبط نفس . وقد كانت عنده سائر الدوافع لكى يكون غير ذلك ، اذ كانت الجزيرة العربية فقيرة الا من الرجال المقاتلين . وكانت البلاد حوله هى مصر ، وفلسطين ، وسوريا والعراق وكان رجاله يتحرقون لأن يلعبوا من جديد الدور الذي لعبهم اجدادهم عبر القرون ، وهو نفسه كان يعتقد أن عليه مسؤولية استعادة مجد الآباء . وكانت الظروف في كثير من الاحوال تحفزه لكي يطلع برجاله خارج الجزيرة العربية ، ففي عام ١٩٢٢ كانت هنالك ثورة ضد الانجليز في العراق وكان بامكانه أن يتدخل ، وكان بامكانه أن يرفض اعادة الأرض التي أخذها شمال وادى السرحان ، ويبقى على الحدود السورية . وكان من الممكن أن يستمع الى نصيحة وزير تركي قال له عليك أن تملأ خزينتك وتجعل الرجال يتحركون ، وكان بامكانه أن يخفف الضغط الداخلي على نفسه بترك الرجال يهاجمون الحدود ، ولكن ابن سعود لم يفعل شيئاً من ذلك ، فقد كان يعلم انه لو فعل ذلك فإن نصره سيكون مؤقتاً . حقاً لقد اعترف به الانجليز ملكاً ، ولكن الانجليز ظلوا يتآمرون عليه ، ولم يكن يريد مواجهتهم لانه كان يعلم قوتهم ويعلم أن الفرنسيين سوف يتقدمون لمساعدتهم ، لذلك قرر ابن سعودأن ينتظر حتى تحين له فرصة مواجهتهم إذا دعا الامر .

ولقد عمل ابن سعود في سرعة للوصول الى اتفاقية مع فيصل في العراق تنص على احترام الحدود بينهما ، ولم يكن الموقف سهلاً مع عبد الله الذي كان يتسم بالعناد ، وعلى الرغم من انه كان يقف خلف رفاده فقد انتهى آخر الأمر الى عقد اتفاقية صداقة مع ابن سعود .

وهكذا أمن ابن سعود سائر جهاته الخارجية في الشمال والغرب وبقيت جبهة الجنوب حيث لجأ حسن ادريس الى الامام يحيى ، وقد حاول ابن سعودأن يصل الى اتفاقية معه ، واستمر الامر شهراً بعد شهر حتى ادرك ابن سعود أن الحرب لامفر منها . فأخذ في التحضير بحذره المعهود . وقد تأكد من أن الانجليز لن يتحركوا ، ثم اعد حملته وكان قد مهد لها بالوعاظ الذين كانوا يؤثرون الموت على الحياة .

وحاول ابن سعود محاولة اخيرة للوصول الى اتفاق . وفى عام ١٩٣٤ وجه دعوة الى امام اليمن كي يقابله في ابها في شمال عسير ، وقد انهار الاجتماع بسرعة ، ولم يجد ابن سعود امامه خياراً سوى أن يضرب مباشرة ، وقد اوكل ابن سعود قيادة فصيلة من الجيش لابنه الأمير فيصل الذي سار على الساحل ، وفصيلة اخرى داخلية بقيادة ولى العهد ابنه سعود ، وقد تقدم فيصل بسرعة حتى وصل « الحديدة » الميناء الرئيسى لليمن على ساحل البحر الاحمر ، وما كاد حاكم المدينة وهو ابن الامام الاكبر يرى جيش فيصل يتقدم حتى جمع سائر المال في المدينة وابحر طالبا النجاة في جزيرة « كرمان » وهكذا أخذ فيصل المدينة في سهولة وقطع الامام من البحر . وكان طريق ولي العهد صعباً ، إذ تخللته الجبال والطرق الوعرة مما دفعه في كثير من المواضع لترك سياراته وذخائره ومؤنه وعلى الرغم من ذلك ، فقد دفع العدو اماماً و احاط بمؤخرة جيش الامام في عسير ونجران وقطعهم من قاعدتهم ، بما جعلهم يندحرون ويتفرقون ، واجتمع جيشا ابن سعود في صنعاء عاصمة اليمن وانتهت الحملة في سبعة اسابيع ، واضطر الامام لعقد اتفاقية مع ابن سعود . ونظراً لأن ابن سعود ما كان يريد مزيداً من المشاكل والمتاعب فقد قرر الا يضم اليمن وترك الامام يحكم في بلاده بعد أن تعهد ألا يثير العراقل في المستقبل ، وكان ابن سعود راضياً بهذا الاتفاق .





الفصل الثمانون

وبعد أن أمن ابن سعود جميع حدوده بدأ يفكر في تحسين احوال شعبه ، ولكنه كان يفتقر الى المال . وكان المال الوحيد الذى يأتى الى الجزيرة هو الذهب الذى يرسل حتى يتوقف رجال القبائل عن الاغارة ولكن هذا الذهب قد توقف ، ولم يكن في وسط الجزيرة شيء يصدر سوى بعض الجمال والخيول ، ولم تعد لهذه التجارة فائدة بعد ظهور السيارة ، وكان دخل الحجاز يعتمد على الحج . وكان العالم كله يعانى من الكساد الاقتصادى بحيث لم يعد الحجاج قادرين علي الحضور حتى من البلاد القريبة مثل مصر ، وحتى اولئك الذين استطاعوا المجيء لم يكونوا ينفقون كثيرا . وكان ابن سعود يؤمن بالتطور المتدرج ، اذ كان قومه يشكون في كل شيء حديث ، لذلك فقد ركز على الامور الضرورية .

لقد انشأ ابن سعود المدارس في كثير من القرى ، وعين كثيرا من المدرسين من سورية ومصر ، وكانوا يدرسون العلوم الاسلامية وتطبيقاتها العملية . وكان هنالك القليل من العلوم المدنية والفقهية ولم يكن ابن سعود يؤمن بالتعليم العلمانى الخالص ، وكان يقول ليس لدى من سبيل سوى الدين والقرآن الكريم ، وقد انشأ ابن سعود عدداً من المستشفيات والعيادات فى القرى لكى يرفع من المستوى الصحى فى البلاد .

واعطى موافقة لشركة هندية كى تبنى خطاً حديدياً بين جدة ومكة ، واعطى امتيازا لشركة « ستاندرد اويل » الامريكية للتنقيب عن النفط ، كما اعطى امتيازات لشركات اخرى لتبحث عن الذهب والمعادن ، وكان من اهم اهدافه زيادة الرقعة الزراعية وجعل الناس يكتفون ذاتياً فى انتاج الطعام ، وكان ذلك يعنى مزيداً من استهلاك الماء لذلك فقد عمل على حفر الآبار الارتوازية في كل مكان وبعد ذلك فقد بدأ يشجع البدو علي الاستقرار ، وقد فعل البدو ذلك على مضض لانهم كانوا يفضلون حياة التنقل على العيش في القرى وفلاحة الارض .

وكان الذى اعطاه ابن سعود للناس هو الامن والسلام فقد كان حكمه عادلاً وقوياً . وكان سريعاً وحاسماً فى المعاقبة وكان نفوذه قويا بحيث خشيه الناس في كل اصقاع الجزيرة العربية . وكان بامكان المسافر أن يمشى منفرداً بين الخليج

العربى والبحر الأحمر ، وفى الشمال الى سوريا دون أن يتعرض إلى اذى وكان يمكن للتاجر أو الحاج الذى يملك ذهباً أو بضائع مطلوبة أن يمر بين اكثر القبائل شراسة أو أى طريق مهجور دون أن يتعرض لأذى . لقد اعطى ابن سعود لبلاده امنا واستقراراً لم يعرفه تاريخ الانسان من قبل . وكان السلام يعم جميع الاصقاع من الخليج العربى الى البحر الاحمر ، ومن سوريا الى حدود اليمن .

وعلى الرغم من ذلك فقد كانت هنالك ما تزال عاصفة شغلت تفكير ابن سعود فقبل الحرب العالمية كانت الجزيرة العربية كلها تحت الحكم التركى ، ولم يكن الانسان يحتاج الى جواز سفر ليتنقل فى دول المنطقة ، وكان الانجليز قد أدخلوا مفهوم القومية العربية للمنطقة ، وكان العرب ينظرون اليهم علي انهم اصدقاؤهم في مواجهة الحكم التركي . وبعد الحرب العالمية انقسمت المنطقة الى مجموعة من الدول المستقلة مثل مصر والاردن وفلسطين وسوريا واليمن ووسط الجزيرة . وكانت كل من تلك الدول لها حدودها ما عدا منطقة وسط الجزيرة واليمن . ولم يعد العرب الآن ينظرون الى الانجليز والفرنسيين على انهم من الاصدقاء بل هم مستعمرون .

وعلى الرغم من أن العرب ظلوا يحبون مخترعات الاوربيين فقد كانوا يكرهونهم على وجه العموم . فالعرب يحتقرون نساء الاوربيين كما يحتقرون رجالهم لانهم يفتقرون الى غيرة الرجولة . وبينما كان العرب يميلون الى القوة فإن الاوربيين يميلون الى الرخاوة ، وكان العرب يعتقدون أن زمنهم سوف يأتى بينما ستتحطم الحضارة الغربية بسبب حرب جديدة .

وقد بدأت العاصفة فى فلسطين حيث قرر الحلفاء في اتفاقية فرساى جعل فلسطين وطنا لليهود . وفسر اليهود ذلك على أن المقصود هو فلسطين كلها بما فى ذلك الاردن . وقد بدأوا على الفور اقامة المستعمرات التى جلبوا لها اليهود من وسط اوروبا وبولندا وروسيا وتشيكوسلوفاكيا ، وبدأ اليهود القادمون يشترون الاراضى والبساتين بأموالهم الكثيرة . ولم يفعل العرب شيئاً لانهم عاشوا لقرون طويلة مع اليهود دون أن يشعروا بتفرقة ، ولكنهم الآن بدأوا يحسون بخطر الهجرة اليهودية بعد وصول أكثر من ٤٠٠,٠٠٠ يهودى الى فلسطين ولو استمرت الهجرة بذلك المعدل فسوف يكون العرب اقلية فى عام ١٩٤٣ ودون أن تكون لهم ممتلكات .

ولقد كانت فلسطين محمية انجليزية تحت لواء الامم المتحدة ، وكانت مهمة الانجليز انشاء وطن لليهود مع المحافظة على مصالح السكان الاصليين وكان العرب يشتكون إلى الانجليز ولكن الانجليز لم يفعلوا شيئاً . وكانت موجات جديدة من الهجرة تفد الى فلسطين ، وهكذا قرر العرب أن يفعلوا شيئاً قبل فوات الوقت .

وقد بدأت حرب العصابات حتى أصبحت الطرق كلها غير آمنة وقامت المظاهرات فى القدس والمدن الرئيسية ، وحاول الانجليز التوفيق بين الطرفين ، وعقدوا المؤتمرات وارسلوا الوفود ولكنهم فشلوا فى ذلك كله . وقد دعى ملوك العرب لمواجهة الموقف . وقبل الانجليز وساطة الملوك . وكان ابن سعود هو الشخصية الوحيدة المهمة بين اولئك الملوك .

ومهما يكن من أمر فعلى الرغم من خلافاتهم ، فالعرب ينتمون إلى دم واحد ويتكلمون لغة واحدة ويدينون بعقيدة واحدة ، وهم الآن يواجهون عداء الاوروبيين واليهود معاً . وقد وقف ثلاثة رجال فى هذا الموقف وهم رضا بهلوى شاه ايران الذى كان بعيداً ، وكمال اتاتورك الذى على الرغم من طرده للاوروبيين من تركيا فقد كان يكره العرب وليست لديه عواطف اسلامية ، وابن سعود الذى كان فى موقف قوى اذ كان بامكانه الهجوم من الصحراء الداخلية دون ان يقدر احد على ضربه . وكان هو خادم الحرمين الشريفين في نظر المسلمين من الملايو وإلى أواسط افريقيا ، ولذلك فقد نظر اليه سائر العرب والمسلمين على أنه المخلص ولكنه كان فى ظرف صعب لعدم قدرته على الحركة فى مواقع لا يحكمها .



الجزء الثالث عشر



الفصل الحادى والثمانون

اصبح ابن سعود سيد الجزيرة العربية بفضل شخصيته وفعالية سيفه فهو رجل عظيم بمعنى الكلمة ، يمتلك حيوية وسطوة . وهو عملاق انجبته الجزيرة العربية بكل ما فيها من فوضى .

كانت الصحراء واسعة وقاسية ، تقطع اليد من اجل السرقة وتؤدب قبيلة من اجل الاغارة ، وتقطع الرأس من أجل الجرائم الكبرى . كان ابن سعود ملوكيا ، وذا هيبة فى مظهره يحكم الصحراء بعدالة ويطبق العقوبات الرادعة لتكون مثالاً ينظر اليه الناس . وهكذا استطاع ان يفرض شخصيته على قبائل يصعب حكمها .

كان يعيش بدون مظاهر أو أبهة يستوى عنده الشيخ والعبد ، الفقير والغنى . كل منهم يقف أمامه سواسية ويكرمهم جميعاً كضيوفة . وكانوا يأتون اليه على مسئوليتهم الخاصة ، اذ كان يملك سلطة القرار في مصائر الناس . كان يجلس في قصره في مكة ، أو في ديوانه في الرياض في عباءة يلفها حول جسمه ، وتبدو نظراته كالصقر يستقبل رعاياه ويستمع إلي مشاكلهم وشكاواهم ويصدر أوامره إلى موظفيه وإلى المسئولين ، كأنه أحد الخلفاء العظام .

كان يؤمن بالله ، وكان الناس ينظرون اليه على أنه قائد المسلمين ضد الكفار واليهود ، وتعتمد على قراره كثير من القرارات الدولية ، وكان هو يؤمن بان الله قد هيأ له ان يقود العرب من جديد إلى مواطن عظمتهم السابقة حيث لا تعلو كلمة غير كلمة الله سبحانه وتعالى .



المحتويـات

الموضوع صفحـة

الموضوع صفحة

الجزء الثالث

الجزء الرابع

الجزء الخامس

الجزء السادس

الموضوع | صفحة

الموضوع	صفحة

الجزء العاشر

الجزء الحادى عشر

الجزء الثانى عشر

الموضوع	صفحة

رقم الايداع

١٩٩١ / ٥٧٦٢

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر